فلسفة

مكتبة

بول نيزان

كلاب الحراسة

ترجمة: صلاح بن عيّاد

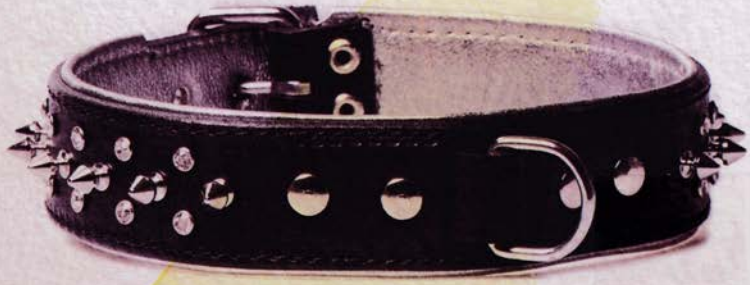

صفحة ٧

Les chiens de garde

Paul nizan

مكتبة
t.me/soramnqraa

كلابُ الحِراسة

ترجمة: صلاح بن عيّاد

صفحة ٧

صفحة ٧

كتاب

كلاب الحراسة

المؤلف

بول نيزان

الطبعة الأولى :2020

الترقيم الدولي

978-603-91437-2-7

رقم الإيداع

1441/9083

مكتبة

t.me/soramnqraa

E-mail: info@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966) 583210696

العنوان : الجبيل ، شارع مشهور
المملكة العربية السعودية

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة
www.page-7.com

«كنتُ في العشرين. ولن أسمح لأحد بأن يدّعي بأنّها أسعد سنوات العمر».

بول نيزان

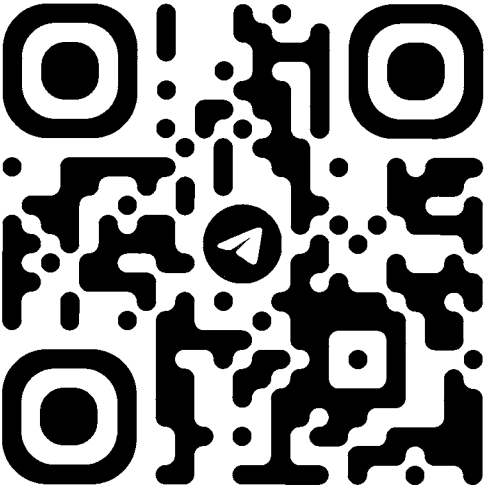

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

الفهرس

بول نيزان في بعض التّواريخ 7

المقدّمة 11

مقتطف من تقديم جون بول سارتر لكتاب «عدن، العربيّة» لبول نيزان 13

الفصل الأول: مآل الأفكار 17

الفصل الثاني: الفلسفة في مواجهة التّاريخ 29

الفصل الثالث: استقالة الفلاسفة 41

الفصل الرابع: وضعيّة الفلاسفة 55

الفصل الخامس: الوضعيّة المادّية للفلسفة 117

الفصل السادس: دفاعًا عن الإنسان 133

الفصل السابع: ملاحظات 159

مراجع بول نيزان 201

بول نيزان في بعض التّواريخ

مكتبة
t.me/soramnqraa

• 1905: ولادة بول **نيزان** في مدينة «تور» يوم 7 فبراير من أبٍ كان مهندسًا في السّكك الحديديّة.

• 1916: يدخل نيزان إلى معهد هنري الرّابع في باريس، حيث سيتعرّف على جون بول سارتر .

• بين 1922 و1923: يتحوّل إلى معهد لويس الأكبر بباريس صحبة صديقه سارتر حيث سيدرس فيما يسمى «الأقسام التّحضيريّة للمدارس العليا».

• 1924: يتمّ قبول بول نيزان في المدرسة العليا للأساتذة في شارع «أولم» وهي مدرسة عريقة يعود تأسيسها إلى الثّورة الفرنسيّة أواخر القرن الثّامن عشر، لم يكن نيزان وحيدا في المدرسة، لقد كان مرفوقا مرّة أخرى بجون بول سارتر ولينظمّ إليهما من سيصبح فيما بعد الفيلسوف وعالم الاجتماع الشّهير ريمون آرون (1905ــ 1983)، وسيقتسم **نيزان نفس الغرفة مع سارتر.**

• 1926: رحيل بول نيزان المفاجئ إلى عدن المدينة اليمنيّة السّاحليّة، أو (عدن البريطانيّة) كما كنت تُسمّى في ظلّ الاستعمار البريطاني، وهنا سيحصل بول نيزان على عمل كمُدرّس خصوصيّ عند عائلة إنجليزيّة .

• 1927: يعود بول نيزان إلى فرنسا، ويتزّوج بـ«هنريّات ألفِينْ» وكان الشّاهدان على زواجه: جون بول سارتر وريمون آرون. لينخرط فيما في الحزب الاشتراكي الفرنسيّ .

• 1928: ولادة ابنته آنّا ماريا.

• 1929: يساهم في تأسيس «المجلة الماركسيّة»، ويتمّ قبوله في مناظرة التّبريز في الفلسفة، وقد كان جون بول سارتر الأوّل، أمّا الثّانية فقد كانت سيمون دو بوفوار الفيلسوفة والرّوائيّة والمساهمة الفاعلة فيما يسمى «**حركة تحرير المرأة**» وعشيقة **سارتر** .

• 1930: ولادة ابنه باتريك .

• 1931: نشر **نيزان** أولى أعماله وهو كتاب بعنوان «منشور لعدن العربيّة»، في أكتوبر من نفس السّنة يُعيَّن بول نيزان كأستاذ للفلسفة في معهد لالاند .

• 1932: يرشّح نيزان نفسه للانتخابات التّشريعية عن الحزب الاشتراكي في إقليم «أين» التّابع لمنطقة «أوفرن ــ رون ألب». لينشر كتابه الثّاني المُعارض للفلسفة الجامعيّة، والّذي هو قيد ترجمتنا «**كلاب الحراسة**». في خريف ذات السّنة يستقيل من التّعليم الوطني ليصبح عضوا قارّا في الحزب الاشتراكيّ .

• 1933: يصبح رئيس مكتبة «الهومانيتي L'Humanité :، الإنسانيّة» في شارع لافيات بباريس. يوم 25 أكتوبر من نفس السّنة ينشر بول نيزان أولى رواياته وهي «أنتوان بلوياي» وقد قال عنها جون بول سارتر إنّها سيرة لحياة أب الكاتب .

- 1934: يسافر نيزان إلى موسكو ويشارك في المؤتمر الأوّل لاتّحاد الأدباء الرّوسيّين مع أندريه مارلو ولويس أراغون .

- 1935: يصبح كاتبا صحفيّا في مجلة «الهومانيتي L'Humanité» مختصّا في السّياسة الخارجية مع كتّاب آخرين مهمّين. في أكتوبر من نفس السّنة ينشر كتاب «**حصان طروادة**» عن دار غاليمار الشّهيرة .

- 1937: يؤسّس المجلّة الأدبية «كراريس للشبّان».

- 1938: ينشر كتابه «المؤامرة» عن غاليمار مرّة أخرى ويتحصّل على جائزة أنتيراليي، الجائزة الأدبيّة الّتي تُمنح كلّ سنة لصحفيّ يكتب الرّواية .

- مارس 1939: ينشر كتابه «سجلاّت سبتمبر» عن غاليمار، وهو سرد وتحاليل «لمعاهدة ميونخ»، يوم 3 سبتمبر من نفس السّنة، يقود نيزان حملة ضدّ هذه المعاهدة لتلقى صدى واسعا. يوم 25 مارس، يكتب رسالة للمسؤول الأوّل عن الحزب الاشتراكي ويقدّم استقالته على خلفيّة الاتفاقيّة الألمانيّة الرّوسيّة .

- 23 مايو 1940: يُقتل بول نيزان برصاصة ألمانيّة في منطقة «ريسكيوس سور هيم»، وكان بحوزته مخطوط لروايته الأخيرة الّتي تمّ ردمها من قبل جنديّ إنجليزي في إحدى البساتين، ولم يتمّ العثور عليها إلى الآن.

المقدّمة

كنتُ في العشرين. ولن أسمح لأحد بأن يدّعي بأنّها أسعد سنوات العمر. إذ يهدّد كلُّ شيء كلَّ شابّ بدماره الخاصّ: الحبّ، الأفكار، فقدان العائلة واختراق عالم الكبار...

بماذا يمكن أن نشبّه عالَمنا؟

إنّ له ملامح العدم الّذي كان الإغريق يعيدون إليه أصل الكون، عبارة عن غيوم مُعَدَّة للتّحويل. كنّا لا نأمل أكثر من رؤية بدء النّهاية، النّهاية الحقيقيّة، وليست [تلك النّهاية] الّتي هي بدء البدء .

بول نيزان

من كتاب «**عدن العربيّة**» – 1932

مقتطف من تقديم جون بول سارتر لكتاب «عدن، العربيّة» لبول نيزان

في يوم من الأيّام، عندما كان بول فاليري[1] يشعر بالملل، اقترب من النّافذة وبنظرة شاردة تخترق شفافيّة البلّور، أطلق السّؤال التّالي: «كيف السّبيل إلى إخفاء إنسان ما؟»، كان أندريه جيد[2] حاضرا وقتها ولكنّه خيّر الصّمت واقعا تحت نوع من الاندهاش لهذا التّكثيف المبهر والمدروس. مع أنّ الإجابات عن هذا السّؤال كانت متوفّرة، فكلّ الوسائل جيّدة لذلك، منذ البؤس والجوع إلى وجبات الغداء المسبوقة بالصّلاة في الدّار المركزيّة للأكاديميّة. لكنّ هذين البرجوازيّيْن الشّهيريْن كانا متسامحيْن مع نفسيْهما وكان يُقْدِمان كلّ يوم على تطهير روحيْهما التّوأميْن في العلن. إنّهما يعتقدان بأنّهما يكتشفان نفسيْهما في غمرة الحقيقة العارية. عندما تُوفّيا، وبعد وقت طويل من ذلك، أصبح أحدهما مزاجيًّا والثّاني راضيًا تمام الرّضى. هذا بعد أن تخبّطا في الجهل لأنّهما لم يكلّفا نفسيْهما بالإصغاء للأصوات الشّابّة وهي تصرخ من أجلنا جميعا، بعصبيّة صغيرة: «أين اختفى الإنسان؟ إنّنا نختنق، يُعمَل على تشويهنا منذ

---

(1). بول فاليري (1871. 1945)، فيلسوف وشاعر فرنسي، وهو من زعماء المدرسة الرّمزيّة.

(2). أندريه جيد 1869. 1951)، كاتب فرنسي من أصل برجوازيّ، كان ميّالا للشّيوعية إلا أنه تراجع عن ذلك بعد سفره للاتحاد السّوفيتي سنة 1936، واعتبر أنّ نظام ستالين لم يكن إنسانيًا.

طفولتنا. إنّنا في عالم من الوحوش!».

لن نبالغ بالقول إنّ الّذي يضطلع بكشف وضعيّتنا الحقيقيّة إنّما هو يعاني بينه وبين نفسه. كان حيًّا ولم يقض ساعة واحدة في حياته دون أن يكون على مشارف الضّياع. ميّتًا، مازال بعد يواجه خطرًا مُحدقا: فمن أجل أن يجعلوه يدفع ثمن رؤيته الواضحة، تتالت مؤامرات الضّعفاء لمحوه ولمحو أثره نهائيًّا.

لقد كان (بول نيزان) في الحزب منذ اثنتي عشر سنة، فجأة وفي سبتمبر 1939، أعلم الجميع بأنّه يغادر. لقد كان خطأ لا يُغتفر وبلا تفسير، وإنّه إثم اليأس الّذي يعتمده إله المسيحيّين في العقاب ويطلق عليه اسم «اللّعنة». لا يؤمن الاشتراكيّون بالجحيم لكنّهم يؤمنون بالعدم. لقد كان اغتيال الرّفيق نيزان مخطّطا له بدقّة. أصابته الرّصاصة المتفجّرة خلف الرّقبة. لكنّها تصفيه لن ترضيَ أحدا: لن يكفي مجرّد كفّه عن الحياة، إذ لم يكن عليه أن يوجد أصلا. لقد أقنع الشّهود بحياته، وبأنّه حتّى لم يعشها كما ينبغي.

كان نيزان مُفسِدَ ـــ حفلات. كان يدعو إلى حمل السّلاح ويحثّ على الكُره، طبقةً ضدّ أخرى وضدّ عدوّ هادئ وفان. لم يعد هناك مجال للتّرافق. إمّا أن تَقتُلَ أو تُقتَل. لا منطقة وسطى. لا مجال للنّوم. كان (نيزان) يكرّر على مدى حياته، بوقاحته الرّشيقة، بعينيْه المنكبّتيْن على أظافره: «لا تؤمن بالأب نويل، لقد مات منذ زمن بعيد. أمّا الحرب فقد انتهت لتوّها. وهناك في كلّ المداخن الفرنسيّة أحذية وأحذية طويلة من تلك الّتي ملأها الأب نويل بمُعلّبات أمريكيّة.

لو كان نيزان بعد على قيد الحياة لكان يقتسم معنا الآن كلّ هذه الصّرامة

الجديدة، هكذا نفكّر. ما الّذي أبقى على نقاوته العنيفة؟ لم تكن أكثر من رصاصة. ليس هناك مدعاة للتّفاخر بذلك الآن، فهذا القتيل على وجه الخطأ كان يعبث بكلّ هدوء: لقد كتب في كتبه بأنّ برجوازيًّا فرنسيًّا وقد تجاوز الأربعين سنة من عمره لم يعد أكثر من هيكل عظميّ.

لم يكن لنيزان ما يقوله لهم: لقد كان يتحدّث عن وضعيّة الإنسان، عن عدّة أشياء اجتماعيّة وعن جنوننا أيضا. لقد كان عارفا بالرّعب وبالغضب أكثر بمعرفته لنعومة اليأس. في البرجوازيّين الشبّان الّذين يلتقي بهم، كان يكره صورته الخاصّة، وسواء كانوا أم لم يكونوا متشائمين فقد وجدهم دافعين على التّشاؤم. ها قد احتفظنا بكتبه إلى زمن البقرات العجاف ولقد أحسنّا الفعل.

لقد ظننتُ ونحن في السّادسة عشر من العمر بأنّنا كنّا موحّدين بنفس الرّغبة في الكتابة، لقد كنتُ مخطئا. كنتُ صيّادًا أخرق، وكانت الكلمات تُبهرني لأنّني دائما ما أخطئ في الإمساك بها، أمّا نيزان فقد كان صيّادًا ناضجًا قبل الأوان، وكان يملك جرابًا [من تلك الكلمات]. إنّه يعثر عليها حيثما ولّى وجهه، في المعاجم وفي الكتب وحتّى في حرّيته المطلقة، على الشّفاه».

لقد انطلق نيزان من هذه الثّورة العارية: في أصل الأشياء، هناك الرّفض أوّلا وقبل كلّ شيء. في الحاضر، ليذهب العُجّز بعيدا، ليتركوا ذاك المراهق كي يُحدّث إخوته: «كنت في العشرين ولن أسمح لأحد بأن يدّعي بأنّها أسعد سنوات العمر».

1

مآل الأفكار

هل الشُبّان الّذين يفتتحون مشوارَهم الفلسفيَّ، الهُواةُ الّذين يلجؤون إلى الفلسفة، هؤلاء، هل سيصمدون طويلًا بينما يعملون طوال اللّيل دون أن يتمكّنوا من العثور على إجابة واحدة على أيّ من تلك الأسئلة المُتعلّقة بالمعنى وبمجال البحث الّذين هم مُلزمون به؟

وأكثر من ذلك: أيّ فعل سيقومون به من وراء المعجم الفلسفيّ؟ ما الّذي سيفهمونه جميعًا من مصطلح «الفلسفة»؟ هل سيضعون في القِرَبِ القديمة نفسَ نبيذ معلّميهم، أم [سيضعون] نبيذًا جديدًا؟ هل سيتخلّون عن القِرَبِ القديمة مع النّبيذ القديم من أجل قِرَبٍ جديدة ونبيذ جديد؟

لقد حان الوقتُ كيْ نهبَ هؤلاء الوافدين الجُدد وضعيّة أكثر وضوحا، كيْ نوفّر لهم أنوارا أكثر بساطة. فالكثير منهم حاملون للنّوايا الحسنة، الكثير منهم ملتزمون بالفلسفة، أو هم ببساطة قد وجّهوا إليها جزءًا كبيرًا من انشغالاتهم، هذا لأنّهم قد ضاقوا بلا جدوى تلك النّوايا الحسنة. إنّهم يُثبتون دون شكّ وبشكل غير واضح تماما، بأنّ الفلسفة في عمومها ما هي سوى تسخير [لتلك] النّوايا الحسنة لفائدة الانسان، وبأنّه يكفي الانخراط تحت راية الفلسفة حتّى نشهد بأمّ أعيننا ثمار [ذاك] التّوجّه العظيم وأن

[نرى] السّلام ينتشر بين الأشخاص الحاملين لإرادة طيّبة.

لكن، ينبغي في النّهاية أن نُدرك ونُدرّس الفلسفةَ على أنّها ما لا يمْكن أن يُعرّف مطلقا وإلى الأبد على أنّها التّنفيذ، على أنّها الممارسة، على أنّها الانتصار التّلقائيّ لجملة من الإرادات الجيّدة. ببساطة لأنّ سقراط كان سيموت من أجلها (الإرادات الطيّبة)، وكان فولتير سيدافع عن كالاس[3]، وكان كانط[4] سينسى تأثّرًا بانتصار حقوق الإنسان، طريقه القديم إلى كونيغسبرغ[5].

كان ينبغي في النّهاية أن نفهمَ ونُدرّسَ بعضَ الفلسفات على أنّها مفيدةٌ للإنسان، وأنّ بعضها الآخر مُميتٌ له وأنّ النّجاعة الانسانيّة في مثل هذه الحكمة الفريدة لا تمثّل سمة عامّة للفلسفة.

مع ذلك، نحن نلتقي بكلّ هؤلاء النّاس، بكلّ هؤلاء الشّباب الّذين يعتقدون بأنّ كلّ الأعمال الفلسفيّة الصّرفة تعود بالفائدة على الجنس البشريّ، هذا لأنّنا أقنعناهم بأنّ الأمور تجري على هذا النّحو كما هو شأن كلّ عمل روحيّ، فأن تكون لك نوايا حسنة معناه ولنكن صرحاء أن تطمح إلى [تحقيق] تلك المنفعة بالتّحديد.

لقد علّمنا كلّ هؤلاء النّاس ومنذ أن كانوا في الفصل السّابع، منذ

---

(3) . إيمانويل كانط أو كانت (1724. 1804)، فيلسوف ألماني، عاش حياته في بروسيا، كان الأكثر تأثيرا في الفلسفة والثّقافة الحديثتين، وأهمّ من أسّس لما يسمّى نظريّة المعرفة. وهو على ذلك كلّه أحد أهمّ الرّكائز المعرفيّة لفلسفة التّنوير في القرن الثّامن عشر. من أهمّ أعماله: نقد العقل المجرّد أو الخالص، نقد العقل العمليّ...

(4) . فولتير وقضيّة كالاس: تبنّى الفيلسوف التنويري الفرنسي فولتير (1694. 1778)، قضيّة جان كالاس، التّاجر الّذي كان ينتمي للكنيسة الإصلاحيّة البروتستانتيّة في مدينة تولوز الفرنسيّة، وقد حُكم عليه بالتّعذيب إلى حدّ الموت سنة 1763، بعد أن تمّ اتّهامه بقتل ابنه الّذي تحوّل إلى الكاثوليكيّة، افتكت ممتلكاته كلّها ونزعوا منه أبناءه، تبنى فولتير هذه القضية، الذي رأى فيها بوضوح الاستغلال والاضطهاد الدّينيّ، وتمكّن من تبرئته سنة 1765

(5) . كونغيسبرغ: مسقط رأس إمانويل كانط.

[بعث] المدرسة اللائكيّة بأنّ القيمة الأكثر سُموّا هي «الرّوح» وأنّها قد أصبحت تتحكّم في العالم منذ إزاحة الله. من ليس لديه من تلك الاعتقادات اللاّهوتيّة في السّادسة عشر من عمره؟ لقد كنتُ أنا مثلا حاملًا لمثل هذه الأفكار، بتعلّة أنّي لم أبدًا قراءة الكُتب إلاّ متأخّرًا كي أفهم بأبسط ما يمكن أن ميكانيكيًّا لم يكن ليُنجز «**ترفيه باسكال**»[6] ولا سلطة الإرادات المنطقيّة[7]. لم أعتبر نفسي رجلًا مجهولًا يومًا، لقد كنت أعتقد بكلّ طواعيّة بأنّ العامل في الطّريق، والمُزارع في مزرعته مدينان لي بكلّ الاعتراف الممكن لأنّي كرّستُ نفسي، بشكل نبيل ونقيّ وغير نفعيّ، للمجال الرّوحيّ، ولفائدة الإنسان عموما الّذي يظمّ مع من يظمّ عمّالًا ومزارعين. لقد بذل أساتذتي كلّ ما في وسعهم حتّى يشدّوني إلى عمق وهْمٍ مُرفّه بالنّسبة إليهم. كيف لم أتمكّن من اعتبار الّذي يمارس فلسفة ما ـــ كان المحتوى أقلّ شأنًا كما هو دائمًا ـــ وبشكل من الأشكال، طبيبا أو كاهنًا يُقدِم في كلّ مرّة على إنقاذ العالم تأثّرا بأوجاع رأسه؟ هكذا يرى السّذّجُ بكلّ سلبيّة بأنّ السّيسيولوجيا وتاريخ الفلسفة النّقديّة أو اللوجستيّة تحتاج امتنانا من النّاس. وهو الاعتقاد الّذي يعلنُ عن خرافة رجال الدّين.

لكن، من المستحيل قطعا أن نظلّ مصدّقين لوقت طويل بأنّ أطروحة حول «**موديراتوس دو جاديس**»[8] أو حول كتاب عن الاكتشافات الرّياضيّة ينبغي أن تحصد لمؤلّفيها مداليّة إنقاذ واعترافًا من لدنّ الشّعوب:

---

(6) . كتاب لبليز باسكال (1623. 1662)، الفيزيائي والرّياضي والفيلسوف الفرنسيّ. ركز باسكال في هذا الكتاب على «الترفيه» من وجهة نظر فلسفيّة بوصفه قطاعا ينتمي للأنشطة الاقتصاديّة مثله مثل أيّ قطاع آخر فيما يُسمى المجتمع الاستهلاكي.

(7) . في إشارة إلى أيمانويل كانط.

(8) . موديراتوس دو جاديس Moderatus De Gades: فيلسوف إسباني عاش بين سنتي 50 و100 م.

يكفي أن تكافئ جوقةُ الشّرف أنصار الرّوحانيّات تماما كما يُصنع القباطنة العُجّز من مجرّد بدلات رسميّة، [كما يُصنع] الممثّلون القدامى والأبطال. لا يحبّ النّاس أن يُخدعوا بأيّ حال من الأحوال، وهم ليسوا جميعا بتلك السّذاجة العميقة حتّى يعتقدوا بأن يكون مبرّزٌ في الفلسفة «كلبَ حراسة» تأثّرًا بطبيعة عمله أو مجرّد شخص محترم.

***

لا وجود للفلسفةِ في حدّ ذاتها مثلما لا وجود للحصان في حدّ ذاته: توجد فلسفاتٌ كما توجد خيولٌ عربيّة وأخرى بارشوريّة وليونيّة وأنجلو ــ نورماندية. هذه الفلسفاتُ هي مُنتجات فلاسفة: هذه الفرضيّة ليستْ مُغرقة في اللاّجدوى إلى أن اعتدنا تصديقَ الأمر. فكما يوجدُ ستّة وثلاثون نوعًا من الفلاسفة يُوجدُ عددٌ مماثلٌ من الفلسفات.

الفلسفة هي ممارسة نوع من التّنسيق. هي جمعٌ وترتيبٌ لعناصر ما مهما كان أصلها: لا تُوجدُ مادّة فلسفيّة، لكن [يُوجَد] نوعٌ من إعادة جمع إثباتات بواسطة تقنيات مفرغة في أصلها، **فالتّوماويّة**[9] مثلها مثل الكانطيّة تنتمي إلى حقل الفلسفة.

للفلسفة أن تقول كلّ شيء، فليس لها توجّه نهائيّ، فلا هي أحاديّة ولم تكن كذلك يوما، إنّها ذروة النّشاط المُلتبس. هي عموما ما يتبقّى من كلّ الفلسفات المختلفة عندما نُفرغها من كلّ محتوى ولا يتبقّى غير نوع من الجوّ الأليف، تمامًا مثل وسط مراوغ من الاصطلاحات، من المؤامرات والأسرار. إنّها عمق الخطاب [في النّهاية].

(9) . **التّوماويّة**: مدرسة فلسفيّة تُنسبُ للفيلسوف واللاّهوتي الإيطالي توما الإكويني (1225. 1274)

بما أنّه لا يمكن مع ذلك لأيّ كينونة أن تتشكّل في تمامها دون دوافع، فإنّه يمكننا أن نعتبر بأنّ لأهداف الفلسفات وحدة شكليّة: فهي دائمة المطالبة، مثلها مثل أيّ عنوان، مثل أيّ ادّعاء دائم، السّلطةَ والوظيفةَ بأن تُصيغا قواعدَ وتوجّهاتٍ للحياة الإنسانيّة. دائمًا ما تنتهي الفلسفات إلى الخوض في الوضعيّة الإنسانيّة، فهي دائمة الرّضوخ لخُطّةٍ كان أفلاطون قد حدّدها منذ القِدَم: «موضوعُ الفلسفة هو الانسان وكلّ ما ينتمي لجوهره الرّاضخ والفاعل في آن». لكن وبما أنّه ليس للوضعيّة الإنسانيّة نظام وحيد أوحد، كما لا حلّ وحيد معتمد من أجل تخليد مصائر البشر، لا مفتاح وحيد لظرفهم فإنّ الفلسفة تبقى ملتبسة في كلّيتها. [لذلك] فإنّ المهمّة الأولى المقترحة على أيّ منظومة نقديّة وعلى أيّ من تلك المراجعات الضّروريّة هي محاولة التّعريف بالالتباس الّذي يرفق كلمة «فلسفة».

ليس في وسع أيّ كفاءة روحانيّة، ولا أيّ قدريّة لاهوتيّة أو فضيلة [مهما كانت] أن تفرض على الفلسفة العمل بواقعيّة لفائدة الإنسان: عندما يقيّم الشبّان وهواةُ الأفكار الجدّيون الفلسفة على أنّها تنفيذ حرفيّ للنيّة الحسنة، أو بوصفها تطبيقا لما وعدت به، فهم يعترفون ضمنيّا ودون موقف نقديّ مُسبق بفعاليّة تلك الكفاءة [الرّوحانيّة] وتلك القدريّة [اللاّهوتيّة] وتلك الفضيلة.

لكنّها وأقولها مرّة أخرى، هي [ظواهر] تبقى بلا وجود. إذ لن نعرف كيف نقيّم أيّ فلسفة باستدعاء تلك الموهبة العظيمة والقوّة الخارقة دائمتيْ الحضور في الفلسفة بوصفهما معيارين ثابتيْن للتّقييم.

يمكن أن نجد فلسفة السيّد **برغسون**[10] فلسفة مثيرة للقرف، كما كانت من قبله فلسفتا **بوتروكس**[11] **ولايبنيتس**[12]، مع توفّر بعض الأسباب المحدودة في خصوص هذه المواضيع، لكنّنا لا يمكن القول بأنّها [فلسفات] مقرفة لأنّها مثّلت منعرجات عابرة، أمراضا عرضيّة للفلسفة الخالدة الّتي بلا وجود. نحن لا نخون بأيّ شكل من الأشكال كائنَ منطق. يعتقد السيّد **ماريتان**[13] بوجود فلسفة خالدة. وهو الّذي لم تكن له محاورة أو مبادلة تجاريّة مع الله أو مع دكاترته، ولن يلمس أبدًا هذا الخلود. سيبدو الخلود نفسه إجبارًا لكلّ إنسان على [نمط] من الوجود، وإكراهًا له على فكرة محدّدة.

ينتمي السيّد برغسون والسيّد بروتوكس بكلّ بساطة لعائلة من الفلاسفة من الّتي تعتبرني عدوًّا لها: لكّنها عداوة لا تستند إلى الحبّ الخالد للفلسفة في حدّ ذاتها. فأنا لستُ من ثقات القدر.

وفي السّياق ذاته، يُعتبر الاستغلال الآنيّ للعمّال، وأناركيا الأرض، وفساد السّياسيّ والبؤس العاطفيّ حيث يغرق العالمُ اليومَ مجرّدَ منعرجات آنيّة لمصير إنسانيّ بهيج.

لكنّ بعض الفلسفات المتواجدة اليوم كمجرّد أشياء هائمة في الفضاء: إمّا هي مجمّعة في كتب ومجلاّت أو مُردَّدَة عبر أصوات صادحة، فلسفات متفرّدة مثل أشياء لن تعرف كيف تظهر على أنّها تنبعث من منبع واحد،

---

(10) . هنري برغسون: (1859. 1941)، فيلسوف فرنسيّ، من أهمّ فلاسفة العصر الحديث، وجّه نقدا شهيرا للقيم الّتي يفرزها المذهب المادّي، تحصّل على جائزة نوبل للآداب سنة 1927.

(11) . إيميل بوتروكس: (1845. 1921)، فيلسوف ومؤرّخ فرنسيّ، وهو من أساتذة برغسون ودوركهايم وآخرين.

(12) . غوتفريد لايبنيتس: (1646. 1716)، فيلسوف وعالم طبيعة ورياضيّات من جنسيّة ألمانيّة.

(13) .جاك ماريتان: (1882. 1973)، فيلسوف فرنسيّ كاثوليكيّ، له ما يزيد عن الستّين مؤلّفا فلسفيّا.

مثلها مثل مسارات نابعة من قدرة واحدة. فهي ليست مشاركات مُتبادلة، وليست أكثر من «جاكية»[14] أو «بوغروم»[15]، مع أنّ لهذه المظاهر المُتّصفة بالعنف الموجّه أن تُمثّل بعضَ التّشابه الشّكليّ.

المؤسفُ في الأمر، أنّه في الحالة الآنيّة للفكر، مازال الجميع يسمحون بانخداعهم بمثل هذا التّشابه: المظهر المنهجيّ، الهندسة والنّمط المعماريّيْن المشتركيْن في مختلف تركيبات الذّكاء المطبّق على الفلسفة والّتي تسمح بأخذ تأمّلات السيّد لالاند[16] على أنّها تجسيد للفلسفة بنفس الرّؤية «السبينوزيّة»[17]، هو تجسيد أكثر شحوبًا بكلّ بساطة، أكثر تواضعًا، أكثر «أنيميا» لكنّه يبقى قابلًا للمقارنة بكلّ صرامة، كما تُقارنُ [أعضاء] لها نفسُ اللّحم والدّم. ليست هذه المقارنة مشروعة إلاّ إذا لم يأبَهْ أحدٌ لعواقبها الملموسة ويقتصر تركيزه على ذاك التّطابق الظّاهر الّذي تتّصفُ به القواعد الشّكلية الّتي تميّز ذكاء بلا وجهة. ينبغي الاتّفاق بدءا على أنّ الاستخدام المنهجيّ لمختلف الآليّات المنطقيّة يكفي لنحدّد معالم الفلسفة الضّروريّة.

***

لنحاول تصنيف الفلاسفة بطريقة مختلفة عن تصنيفهم وفق أنوار الذّكاء، إذ الذّكاء [معطى] في مرمى كلّ يد، وصالح لكلّ شيء، وممثل لكلّ شيء. فهذا الذّكاء السّلبيّ هو عبارة عن أنثى قادرة على التّزاوج مع أيّ شيء. ذكاء صالح للحقّ، للخطأ، للسّلم، للحرب، للكره وللحبّ.

---

(14) . جاكية: اسم يُطلق على ثورة قام بها الفلاّحون ضدّ طبقة النّبلاء سنة 1358

(15) بوغروم: كلمة من أصل روسيّ وتعني شكلا من أشكال الشّغب الموجّه ضدّ جماعة معيّنة (عرقيّة، دينيّة...)

(16) . أندريه لالاند: فيلسوف فرنسيّ عاش ما بين (1876 و1963)، عمل أستاذا بالجامعة المصريّة، من مؤلّفاته «المعجم التّقنيّ والنّقديّ للفلسفة»، نظريّات في الاستقراء والتّجريب الخ...

(17) . السبينوزيّة: نسبة لسبينوزا الفيلسوف الهولنديّ المعروف (1632. 1677)

إنّه يعزّز بلا مبالاة المستعبَدِ الأشياءَ الّتي تنتهي تدريجيّا إلى قبول استعبادها له، هندسة وعواطف الحبّ، الثّورة واستراتيجيا الأركان العسكريّة. إنّها مزيّة من المزايا التّقنيّة لا أكثر. فحتّى حُرّاس السّجن أكثر ذكاء من مساجينهم، والغالبون أكثر من المغلوبين. يمكن للذّكاء أن يكون مفيدا دون ثورة، دون حركة، ودون ممارسة لفلسفات التّحرّر ولِحِكَم السّحق، أن يكون مفيدا أيضا للفلسفات الرّجعيّة وللفلسفات الدّيمقراطيّة، ولكلّ ما يخصّ الوجود الملموس للإنسانيّة. ذكاء ضدّ الانسانيّة وآخر لمصلحتها. ما هو إذن سوى أداة ظلّت على تعقيدها رغم إثباتها الطّويل: أبدًا، لم تكن الأداة وحدها كافية لتعريف ضاف للمهنة الّتي تستخدمها، فالمسحاةُ لا تعرّف البتّة عملَ الفلاّح. لن يكون هذا الخادم (الذّكاء) ما سيخوّل بتقديم تعاريف واضحة للفلسفة.

يوجد من النّاحية الأخرى بَشَرٌ، الإنسان الّذي منه ينبعثُ المفهوم النّظريّ للفلسفة. الإنسان الّذي يفهم صنوفًا عديدة [من الفلسفة] أكثر ممّا نتصوّرُ.

لنتناول هنا أفكارًا بسيطة، أفكارًا مباشرة وضروريّة. [لنتناولها] كما نتناول أمرًا ابتدائيًّا من النّوع الّذي لا يفيد تكراره أكثر من اللّزوم، بالطّريقة الّتي وفقها يركّب معلّمو المدارس الابتدائيّة القواعد الأربع أو حركات المشتقّات الفعليّة. تنكر هذه الأفكار وجود «الهوموفيبر»[18]، «الهومو أرتيفكس»[19]، «الهوموسابينس»[20] وحتى «الهومو ــ اقتصادي»

(18) . الهومو فيبر: Homo Faber مصطلح لاتينيّ ويعني الانسان الخالق وقد تناوله الفلاسفة للإشارة إلى الانسان الّذي يسيطر على الطّبيعة من خلال أدواته.

(19) . الهومو آرتيفكس: Homo artifex مصطلح غير متبادل كثيرا وهو متكّون من مفردتين «الهومو»: الانسان «الآرتيفكس»: نسبة للفنّ Art.

(20) . الهومو سابينس: Homo sapiens الانسان العاقل.

و«الهومو سياسيّ» و«الهومو نوومنون»[21] و«الهومو فينومنون»[22]. لكنّ كلّ هؤلاء البشر المتفرّدين الّذين وُلِدوا، الّذين يُحظوْن بحيوات ما، الّذين ينجبون ويموتون، الأدهى من كلّ شيء أن يحصلَ كلّ هؤلاء على خمس وعشرين فرنكا في اليوم حتّى ينعم السّياسيّ بسكنى فيلاّ «سعيد»، أن تركب فتاةٌ الميترو من محطّة «فينيبه» بينما تستلقي أخرى بحيّ «جان دارك» في نفس الغرفة مع أبويْها وإخوتها، المناضل الثّوريّ ومفتّش الشّرطة القضائيّة. توجد من ناحية الفلسفة المثاليّة الّتي توضّح الحقائق المتعلّقة بالإنسان وتوجد من ناحية أخرى خارطة لانتشار مرض السّلّ في باريس والّتي توضّح كيف يموت البشر. نحن لا نحيد عن هذه المسارات الضيّقة الأكثر ضررا من الطّرق الوطنيّة الكبرى التّابعة للأنظمة بمفترقاتها المزيّنة برجال الشّرطة.مكتبة سُر مَن قرأ

أنا لم ألتق مطلقًا بـ«الهومو نوومنون»، لكنّي ألمح في الجرائد صورة السيّد تارديو[23] وهو يتنعّم في الحقول المغطّاة بالثّلج في «سانت موريتز»[24] ثمّ وبضربة حظّ أقرأ تقريرا حول الأعمال الشّاقّة، إنّ الدّلالة المثيرة للحنق من وجود السيّد تارديو، والدّلالة المثيرة لنفس الشّعور مع اختلاف طفيف من إحصائيّات العمل الشّاقّ لهي من الأمور الّتي تطرح عليّ أكثر من تساؤل فلسفيّ حقيقيّ، لكنّ الصّراع [الّذي يبدو] محيّرا جدّا وشاقّا جدّا ومتناهي الحساسيّة للسيّد لالاند، إذ تدعوني مقولته عن **العقل المكوَّن**

---

(21). الهومو نوومنون: Homo nooumenon العبارة لكانط وتعني الانسان المتخلّص من كلّ العراقيل الفيزيقيّة.

(22) . الهومو فينومنون: Homo phenomenon العبارة لكانط أيضا وتعني الانسان الظّاهرة.

(23) . جون تارديو: (1903 ـ 1995)، كاتب وشاعر ومسرحي فرنسيّ، يُعتبر من أهمّ المجدّدين في الشّعر.

(24) . سانت ـ موريتز: مدينة سويسريّة تابعة لمقاطعة كانتون غراوبوندن.

Raison Constituante والعقل المكوِّن Raison Constitué [25] إلى الذّهاب للضّحك عاليًا على مدى السّهول الفسيحة.

في حين لا يهتمّ الفلاسفةُ إلا بتمثّلات الفلسفة لا الإنسان في حدّ ذاته، يعتني هؤلاء السّمجون بالفلسفة ولا أكثر من ذلك. هناك نقص فاضح في خصوص هذه المواءمة. فلا أحد [من الشّريحتيْن] بقادر على النّظر إلى الفلسفة متّخذًا ما يكفي من مسافة لذلك يختلط بها، رغم أنّ الفلاسفة دائمًا ما يكتفون بالنّظر إلى هذه المسافة ذاتها. لِمَ [تظلّ] الرّؤوس البشريّة البسيطة على ما يُرام وهي في سماء الأفكار المتجمّدة؟ لَمْ تكن الأماكن المكشوفة مهيّأة حتّى يتنفّسوا فيها بكلّ حرّيّة. لكنّ لهم من الوقاحة ما يكفي حتّى يُسحَرُون بحجّة ما، بدقّة تقنية إحدى الحلول، بمهارة إحدى الخُدع: إنّهم يطلبون منّا أن نُفسّر لهم ما يمكن أن تعنيه هذه الفلسفة أو تلك، وهو ما يُتيحُ لهم فُرصةَ أن يكونوا فاعلين، وأن يكونوا متفوّقين نهائيّين فيما يخصّ إثبات فلسفيّ يتعلّقُ بمصير بني الانسان. يعمد البعض منهم إلى التّحدّث لمجرّد التّحدّث بتفويض ما وبصلاحيّة ما محاسبين الفلسفة عندما تنتصبُ ضدّهم، أو ببساطة عندما لا تهتمّ لأمرهم. أمّا عندما يعالج الفلاسفة الرّوحَ والأفكارَ، الأخلاقَ والحاكمَ الطيّبَ، المنطقَ والعدلَ فهذا ملائم بالنّسبة إليهم. لكن لا للمغامرات، لا للأحزان، لا للأحداث، لا للأيّام الّتي تكوّن حياة ملموسة، لا لهؤلاء الّذين يتحمّلون الأحزان، الّذين تُثقلهم الحياة، الّذين يلهثون خلف المغامرات والّذين يقضون أيّامهم حتّى يصلوا إلى ختام حياتهم. إنّهم لا يُفضّلون هذه

(25) . **العقل المكوَّن والعقل المكوِّن**: مبدأ خاصّ بلالاند، وفحواه أنّ كلّ المعقولات تستفيد من التّجربة، لكنّ موضوعها في تغيير مستمرّ وهو ما يشكّل العقل المكوَّن، حيث تكوّن المبادئ والمعقولات (العقل المكوِّن)، الأوّل يتّسم بالثّبات والثّاني قابل للتّغيّر.

الطّريقة الرّفيعة للتّفلسف. إنّهم يحكمون على الفلسفات انطلاقا من النّظر إلى ألمهم الخاصّ وراحتهم الخاصّة، وليس بالنّظر إلى الفلسفة في حدّ ذاتها. فإمّا يوافقون عليها من بعيد أو يعتنقونها ويثورون ضدّها: لم يكونوا مواضيع سلبيّة أبدًا، مواضيع غير عابئة بما نعرف عنهم وبحكمنا الّذي نحمله في خصوصهم، بالمصائر الّتي رُسمت من أجلهم أو لعلّهم موعودون بها، بالنّصائح الّتي أُسدِيَتْ لهم على وجه المجّان. إنّهم يجزعون فقط لمعرفة إذا ما كانت فلسفة ما حليفة لهم أو عدوّة، إذا ما انتصبت ضدّهم بكلّ بساطة لأنّها لا توليهم الاهتمام. إنّهم أكثر تطلّبا بشكل لن يقدر الفلاسفة على توقّعه، فهم يريدون بأن يكون كلّ ما يحدث في العالم في صالحهم، الآلات والكتب، الدّول والشّعر. هكذا هي شريحتهم: تعيد كلّ شيء إليها. ويمكن لنا أن نلمس هذا المعنى منذ الحكمة القديمة **لبروتاغوراس**[26].

هكذا هي إذن الكلمة النّهائيّة للسّوفة فيما يخصّ الفلسفة، الّذين حكموا عليها انطلاقًا من خواتمها. وهكذا تماما حَكَم **أنيتوس**[27] على سقراط، وحَكَم **لينين**[28] على التّجريبيّة. ينبغي في النّهاية الدّفاع على أفكار المجموعة هذه أمام غرور المفكّر المتخصّص.

نحن نطالبُ بوضعيّة أكثر وضوحا: طالما أنّ المنخرطين الجدد في حقل الفلسفة مازالوا بعدُ يعيشون بين الكائنات البشريّة، وطالما أنّ الرّابط الّذي

---

(26) . **بروتاغوراس**: (487 ق م ـ 420 ق م)، هو زعيم الفكر السّفسطائيّ في القرن الخامس قبل الميلاد. يعتقد أنّ الانسان هو مقياس كلّ شيء وأنّ تحديد القيم لا يمكن أن تكون إلا وفق حاجّيات الانسان.

(27) . **أنيتوس**: رجل سياسة إغريقي 409 ق. م وهو قائد الدّاعين إلى محاكمة سقراط.

(28) . **فلاديمير لينين**: (1870ـ 1924)، فيلسوف وثوري روسي ماركسي، قائد الحزب البلشفي والثّورة البلشفيّة، أكتوبر 1917، أسس تيّاره السّياسيّ المذهب اللينيني وشعاره «أرض، خبز، سلام». له مؤلّفات عديدة أهمّها: ما العمل؟، أمراض الطّفولة لدى اليسار المتشدّد، الامبرياليّة وأعلى الحالات الرّأسماليّة، المادّية والمذهب النّقدي التّجريبي...

يجمعهم بهم مازال بعدُ رابطًا لم ينقطع نهائيًّا بعجرفة، فإنّ قياس عواقب الفلسفة في زمنهم تبقى من مشمولاتهم وحدهم. يمكن للعمل الفلسفيّ أن يجذبهم إليه بعيدا عن هذا الغبار السّابح في سماء الحياة الإنسانيّة وعن هذا الضّجيج المتعاظم وهذه الانطباعات المكبّلة الّتي لا نكفّ عن سماعها: مازال في وسعهم أن يقطعوا مع ذلك كلّه في الوقت المناسب وبطرق مهذّبة ما أمكن، مازال في وسعهم أن يرفضوا التّواجد في الشّوارع الباردة لفلسفة السّماء وأن يلفظوا «الأحسية الانتقائيّة الّتي يقدّمونها لهم في الجامعات تحت مُسمّى الفلسفة»[29] ولن يتمّ تشخيص كلّ هذه العواقب إلاّ بالبحث في دواعي هذه الفلسفة.

ليس ثمّة من أسئلة أكثر بذاءة من هذه [الأسئلة] الّتي نطرحها هنا، والّتي طفت على السّطح. إذ تدّعي الفلسفة الحاليّة وتعتقد بأنّها تسير في صالح الانسان، هل هي موجّهة كحقيقة وليست مجرّد خطابات رنّانة ومعتقدات في صالح أناس حقيقيّين؟ ماذا يمكن أن تقدّم لهؤلاء النّاس؟ كيف يمكن أن تكون العلاقات الّتي تجمعها بهم؟ فباسم الانسان وحده ومن جوانبه يمكن أن ينجلي الغموض المحيط بكلمة فلسفة. لا ينبغي الوثوق المطلق بوعود خطاب فضفاض ومجرّد ببذخه المتكاسل الّذي يتدفّق من مفرداته.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(29) . في إشارة إلى فريدريك إنجلز (من هوامش نيزان)

2

الفلسفة في مواجهة التّاريخ

يؤكّدُ مؤرّخو الفلسفة الّذين يمثّلون الغالبيّة السّاحقة من فلاسفة هذا العصر على أنّ الأفكار دائمة الخضوع لقوانين استثنائيّة خاصّة بحقبة ما من الوجود الانسانيّ ويزعمون بأنّهم مقتنعون بهذا التّأكيد الّذي يتبنّونه. فالفكر يبدو لهم نشاطا متناهيَ النّقاء، تمارسه كائناتٌ بلا مكان ولا زمان تمّمن هم ليسوا موحّدين في جسم واحد، فهم كائنات بلا عناوين نهاية. ويقول هؤلاء المفكّرون في معظمهم إنّ الفلسفة تتمثّل وعبر كلّ مسارها التّاريخيّ في تقديم وسحب قطع متحرّكة فوق رقعة من الأفكار. يا لهذه التّراكيب المستباحة! يا للأجزاء الجميلة المُقتَرحة على الحكماء، فقط، لو يطبّقون قواعد هذه اللّعبة المعقّدة الّتي تعتمد المهارة والّتي هي من استنباط هؤلاء المؤرّخين!

تبدو شريحة الفلاسفة وكأنّها مغلّفة بصفات متفرّدة، إلاّ أنّ هذا التّفرّد لا يمكن أن يكون شيئًا آخر غير غياب الصّفات نهائيّا. هي شريحة تظمّ مجموعة ساكنة من البشر، متمازجة في الامتداد الفسيح، في مهبّ ذكرى التّاريخ الّتي لا تدخل مطلقا في علاقة مع المجموعات البشريّة الأخرى،

تماما مثل [شريحة] الأسياد، رجال الدّين، التّجّار، البورجوازيّين، الحرفيّين، الجنود... إليكم إذن هذا الدّيوان البشريّ الّذي يبدو معفى من الظّروف المحلّيّة والزّمنيّة الّتي تسمح في مجملها لكلّ الحالات المتنوّعة بأن تُحدّد مواقع التّجمّعات البشريّة ووظائفها.

هؤلاء المبجّلون، المتملّصون من متطلّبات الزّمن الّذي لا يكفّ عن المرور ومن سلاسل التّموقع أيضا ليتجاذبوا بكلّ تلذّذ خطابات دقيقة حول ثيمات أكثر لازمنيّة منهم أنفسهم. نحن نحسّ تماما، نعترف، صحيح أنّ صرامة هذه المقترحات لا تستثني البتّة طارئًا محيِّرًا لا يتماشى من قريب أو بعيد مع ضروريّات الحياة الأبديّة. لايبنيتس وولف[30]، هيوم[31]، نيوتن[32]، روسّو[33] وآخرون، لقد تمكّن كانط دون أدنى شكّ من أن يصيغ من أجلهم إجابة مختلفة ما أمكن وهي الّتي قدّمها على أرض الواقع، لكنّها تظلّ أقلّ صرامة في نظر مؤرّخين مكتفين دائما بحواراتهم كما هي. يفقد كلّ التّاريخ المثاليّ للفلسفة «لاتينيّته» بين متانة الصّرامة الشّكليّة والطّارئ الماديّ.

لكنّ هؤلاء المؤرّخين يمرّون مرور الكرام على الحقيقة الّتي فحواها أنّ الفلاسفة هم ما هم عليه يحدّدون ما يحدّدون من أجل قضايا لا صلة لها بقواعد لعبة الشّطرنج حيثُ تتوفّر إمكانيّة لعدّة أشواط جدّيّة. لم تَنتُج

(30) . وولف أو فولف أو فولفيوس (1679. 1754)، فيلسوف ألماني شهير معروف باعتماده الطّريقة الرّياضيّة والّتي تمثل ذروة التّنوير العقلاني في ألمانيا.

(31) . ديفيد هيوم (1711. 1776)، فيلسوف واقتصادي ومؤرّخ اسكتلندي من روّاد فلسفة التّنوير.

(32) . أسحاق نيوتن (1642. 1727)، عالم إنجليزي في الفيزياء والرّياضيّات، أحد أهمّ رموز الثّورة العلميّة، معروف بصياغته لقانون الحركة والجاذبيّة.

(33) . جون جاك روسّو (1712. 1778)، كاتب وفيلسوف وعالم نبات من أصل سويسري، يُعدّ من أهمّ روّاد التّنوير، وهو معروف بكتابه «العقد الاجتماعي» الّذي يُعتبر أساس الفكر السّياسي والاجتماعي الحديث.

فلسفاتهم عن المعطى القائل إنّ إجابة ما تظلّ مجهولة بالنّسبة إلى بعض الأسئلة، لكنّها [تنتج] عن معطى كونهم يعيشون مثل كلّ البشر حياة خاصّة، في بلد وفي زمن خاصّيْن، وكانوا قد كوّنوا شيئا فشيئا موقفا تجاه حياتهم وحياة الآخرين ممّن يقاسمونهم نفس ذاك الزّمن.

لا ينبغي أن نُلبس الجسد بنفس أثواب الفلسفة. عندما استبعدنا عن تلك الظّروف الوجوديّة الوحدةَ والتّجارةَ الانسانيّةَ والاحترامَ والثّورةَ والغضبَ وقبولَ الآخر وأيضا التّبعيّةَ والنّقمةَ، الحيلةَ والصّراحةَ، ها هنا يمكن فقط أن نعتقد بأنّ الفيلسوف رأس بلا جسم، كائنًا في منتهى النّقاء، أكثرَ بُعدا عن الضّجيج الأرضيّ من قالب أبيض بقناعه الميّت. إنّه الفهم الّذي دائما ما يتسوّل شهادة من الدّنس الفلسفيّ.

لقد حان الوقتُ أخيرا أن نتخلّى عن الاعتقاد القديم بتحصّن واغتراب الفلاسفة بنومهم في مكان هادئ ومسطّح، مهيّأ لتأمّلاتهم.

تمتلك كلّ فلسفة متناهية في بعدها - بكلّ ما في وسعها لا- عن الظّرف المُشترك معنًى زمنيًّا وانسانيًّا. انسانيّ، كثير من الانسانيّة، لتكن هذه الكلمات شعارا لتعاليق الفلاسفة.

عمد مؤرّخو اليوم إلى نشر اعتقاد مفاده أنّ الحقيقة الفلسفيّة متأثّرة بالبون الشّاسع الّذي يفصلها عن دنس الانسان المتعجرف، وبتقدّمها الرّائق في الدّوافع الّتي تعترضها. كم يبدو الفلاسفة أكبر ممّا هم عليه في ظاهرهم، كم يبدون شبيهين بآلات مثاليّة ومجهولة. إنّنا نلمّح إلى شكوك حول نوعيّة المفكّرين الّذين لا ينخرطون مطلقا في الإطار: يتحدّث السيّد

برنشفيك[34] عن «الغطرسة السّاذجة» لماركس، لأنّ ماركس كان قد نبّه من موقعه الأرضيّ ودعا إلى تغيير العالم لا الاكتفاء بتفسيره. لكن قرار الاكتفاء بمشاهدة العالم هو أيضا قرار أكثر تقاربا مع الأرض من طرف الفلسفة الّتي لها إرادة في تغييره. سيكون المؤرّخون حازمين في طرد فلاسفة كبار من قبيل ديدرو[35] وماركس من المنظومة، هذا لأنّه لا سبيل واحد ملموس يدّلنا على خَتْمِ السّكينة في فلسفتهم.

هذا النّقاء التّقليديّ، هذا العجز عن النّزول إلى حيث الضّجَة الكبيرة الّتي تدور رحاها على الأرض ما يحجبُ كلّ الأعين وبما في ذلك أعين المؤرّخين دون أدنى شكّ عن رؤية الوضعيّة الحقيقيّة للفكر والمحرّكات الفعّالة الّتي تدير رحاها. لكنّها [فلسفات] خياليّة صِرفة. وكلّ فيلسوف يولدُ سيشارك دون أن يدري في هذه الفعاليّة النّجسة لزمنه.

هناك مشكلة وجب حلّها فيما يتعلّق بالموقف العلمانيّ والاجتماعيّ للفلسفة: سيكون علينا تفسير كيف يكون فيلسوفٌ ما معاصرا وكيف يتمكّن عبر الأقوال والفكرة من أن يتجاهل حاضره. سيكون علينا الانتباه إلى الوهم الّذي يجعل الفلاسفة يعتقدون بأنّ الابتعاد عن وادي دموعنا ما هي إلاّ علامة أصالة وبمثابة الحالة الدّالّة على الفلسفة. سيعود هذا التّحليل الدّقيق لهذه الاشكاليّات إلى تأسيس تاريخ الفلسفة.

لو كان لمؤرّخي اليوم أدنى فكرة عمّا هو الانسان، لكانوا سيعتبرون الإعلان أسفله مجرّد خدعة ساذجة:

---

(34) . ليون برونشفيك: (1869. 1944)، فيلسوف فرنسيّ متخصّص في فلسفة العلم وتاريخ الفلسفة وله ميول كانطيّة وسبينوزيّة.

(35) . دينيس ديدرو (1713. 1784)، فيلسوف وكاتب موسوعيّ فرنسيّ، عُرف بإشرافه على إصدار «موسوعة الفنون والعلوم والحرف»، ويعتبر من أهمّ الفاعلين في حركة التّنوير.

ولنحاول فهم إذا ما كان ديكارت مكمّلا لمونتاني[36]، فهو تماما كما كمّل كانط هيوم بالردّ عليه. حياة داخليّة وأخرى روحانيّة تنبعثان من الكوجيتو[37]. لكن، يوجد في عمق هذا الكوجيتو «الايجو» (الأنا) والكوجيتاتيو (الفكر). الأنا والفكر. ستبقى الاشكاليّة رهن معرفة على ماذا سيقوم هذا الفكر. قد يقوم على أساس «الأنا» باعتباره فردا والّذي ستكون فكرتُه ملكيّة في مستوى الهضم والتّنفّس. هكذا تعتبرها البسيكولوجيا التّجريبيّة، بكل تشخيصاتها منذ لوك[38] إلى كوندّياك[39]، من الواضح أيضا، بأنّ السّيسيولوجيا مع واحد مثل دو بونالد[40] أو أغوست كونط[41] وقد اكتفيا بمهمّة مواجهة الفردانيّة البسيكولوجيّة. لكنّ الدّيكارتيّة الحقيقيّة تخلّصت من هذا البديل الموغل في السّطحيّة. فإنّ الكوجيتو لدى مؤسّس التّحليل الرّياضي ما هو إلا الكوجيتاتيو في حدّ ذاته.

كان بوتروكس قد لخّص تاريخ الفلسفة على النّحو التّالي:

«فيم يتمثّل تطوّر العقل حسب التّاريخ؟ بادئ ذي بدء، بدت له بعض الأشياء بسماتها غير قابلة للتّمثّل، حال «اللاكائن» لدى بارمينيدس[42]

---

(36) . ميشيل دي مونتاني: (1533. 1592)، من أهمّ كُتّاب عصر النّهضة الفرنسيّة، كما يُعتبر رائد المقالة الحديثة في كلّ أوروبّا. وقد كان من رجال حاشية الملك شارل التّاسع.

(37) . الكوجيتو الدّيكارتي: المبدأ الّذي انطلق منه رينيه ديكارت (1596. 1650) في فلسفته ويُترجم إلى العربيّة بـ«أنا أفكّر إذا أنا موجود».

(38) . جون لوك (1632. 1704)، فيلسوف تجربي ومفكّر سياسي من أصل انجليزي وقد شغل خطّة مستشار للملك وليام الثّالث.

(39) . إيتين بونوت دي كوندياك: (1715. 1780)، من أشهر فلاسفة التّنوير الفرنسيّ ومن أهمّ مؤلّفاته «رسالة في المذاهب».

(40) . لويس غابرييال دو بونالد (1745.1840)، فيلسوف وسياسي فرنسيّ، معروف لانتمائه لما يُسمّى بالثّورة المضادّة، وبتطويره لعدّة نظريّات اجتماعيّة.

(41) . أوغست كونت: (1798. 1857)، عالم اجتماع وفيلسوف فرنسي، يعتبر المؤسّس الفعلي للفلسفة الوضعيّة.

(42) . بارمينيدس: (549 ق.م . 480 ق.م)، فيلسوف يونانيّ من فلاسفة عصر ما قبل سقراط.

والأنانكي[43] لدى أفلاطون، والحسّيّ[44] لدى ديكارت. لكنّ العقل يصبح مرنا، ويتوسّع وينجح في إدراك عناصر الكائن الّذي يتصادم مع [العقل] كأوّل شيء يحدثُ. فيدرك «اللاّ كائن» مع أفلاطون، والرّابط الكليّ مع ديكارت... والتّطوّر مع هيجل».

هكذا فقط ترتسم الخطوط الرّئيسيّة لعالم واضح متكوّن من حوارات العقل، وهو [عالم] معزول عن آخر محسوس ومدنّس، بعد بعض القطع مع علاقات عجائبيّة، لكن حيثُ يكون من المتاح الأخذ بكلّ شيء والافتخار بذلك. هي [علاقات] تعبّر عن المسلّمات الّتي من المهمّ أن نجابهها إذا ما كنّا بعد حاملين لسذاجة توقّع بعض المزايا الّتي قد نظفر بها من وراء تمارين التّفكير.

إنّ أوجه التّخاطب هذه، المعبّرة عن جملة من المنعرجات الكبرى وعن جملة الانتظارات والإشكاليات وعن الصّرامة المزيّفة لتطوّر نقيّ للعقل، لم تكن البتّة الشّكل الوحيد الّذي يوفّره التّكتيك المثاليّ: من الممكن معارضته بمخطط برغسونيّ[45] فيما يخصّ تطوّر الفلسفة في عمومها:

«كلّما صعدنا تجاه ذاك الحدس الأصليّ كلّما كان فهمنا أفضل. لو كان سبينوزا قد عاش قبل ديكارت لكان دون أدنى شكّ قد كتب شيئا آخر مختلفا عمّا كتبه، لكن وبما أنّه عاش وكتب، فقد كُنّا متأكّدين من الحصول على «السبينوزيّة» رغم كلّ شيء».

ثمّة ضرورة داخليّة ملحّة للفرد «سبينوزا»، [ضرورة] تُقتطع من حياة

(43) . الأنانكي: كلمة إغريقيّة تعني الحتميّة، تجسيد للقدر في الميثولوجيا الاغريقيّة.
(44) . ما يمكن إدراكه بالحواسّ أو هو مجموعة الانطباعات والتّمثّلات.
(45) . نسبة للفيلسوف الفرنسي برغسون (1859. 1941)

الانسان، وهي ما يعوّض الضّرورة المجرّدة لـ«سبينوزيّة» مستقلّة عن سبينوزا، كإجابة حتميّة على الدّيكارتيّة في خطابه حول العقل. لكنّ هذه الضّرورة الحميمة والعبقريّة ليست أقلّ تجريدا من [ضرورة] العقل المطوّر لأحكامه، دون العودة بالنّظر للتّاريخ. لا يسمح المجال هنا، دون أدنى شكّ، لأبيّن أنّ هذه النّزعة أو تلك يعبّران عن مطلبيْن مختلفيْن للفكر البرجوازيّ. هما يعبّران مرّة على ميل [هذا الفكر] لأن يكون منساقا ومبرهنا عليه ضمن حركة العقل وأخرى عن ميله للاستسلام لمغامرته الخاصّة بكلّ كبرياء، متأرجحا بين روحانيّة العقل الموضوعيّ وروحانيّة باطنيّة للفرد. يكفي هنا أن يرضخ مؤرّخو التيّاريْن إلى التّقييم المتواضع للفلسفة كما هي. إنّهم في الحقيقة مدركون لكون الفلاسفة غير قابلين بالمرّة للاستبدال [الواحد بالآخر]، لكون ديكارت ليس أفلاطون ولا زينون[46] كانط، لكنّ إدراك هذه الوجهة المشتركة لن يكفيَ للتّوصّل إلى خلاصة مفادها أنّ الفلسفات هي ثمار كفاءات متفرّدة أو هي تمفصلات ضروريّة لتسلسل خياليّ نابع من العقل. إنّ هذه الحلول هي تحديدا ما يخوّل لنا تجاوز التّفسير. وهي تعوّض أيضًا مقولة الوحي أو الأحكام الخفيّة لبُنى ملموسة. وفي نفس السّياق، تتيح نظريّة حياتيّة روحانيّة للبيولوجيا بأن تستغني عن كلّ التّفسيرات نهائيًّا.

كان الفلاسفة اليونانيّون يحتفظون بحميميّة خلاّبة تجاه القوى الحقيقيّة لفلسفتهم: كانوا منخرطين بعمق في الظّاهر والمادّة الانسانيّين. إذ تستهدف حكمتهم حلولا مباشرة وقابلة للتّطبيق. ثمّة نوع من التّبادل التّجاريّ الدّائم ما بين الفيلسوف وكلّ ما هو عابر. مازالت فلسفة

(46) . **زينون الإيلي**: (490 ق.م . 430 ق.م)، أحد الفلاسفة اليونانيّين، في عصر ما قبل سقراط.

أبيقور[47] تحافظ على طابعها اليوميّ من النّوع الّذي أضعنا سرّه، حتّى الأفلاطونيّة برغم نداءاتها السّماوية فهي الأخرى مازالت مرتبطة بطين الحياة البشريّة. وقد ظلّ هذا السرّ منفلتا لزمن طويل.

إنّ تطوّر العلوم الرّياضيّة، بفسح حيّز ضروريّ للأفكار المتبوعة بصرامة وبموضوعيّة محيّرة، قد تمكّن من جعل ميتافيزيقيّي العصر الحديث الأوائل يخصّصون تأمّلاتهم كاملة إلى هذا النّموذج، اعتقادا منهم بأنّ القرارات المتعلّقة بالقيم اللاّعلميّة عليها أن تنسج هي الأخرى على منوال الاكتشافات العلميّة الأكثر دقّة. هو تعميم متهوّر ولا شكّ في ذلك وهو ما يقودنا إلى توهّم العقاب الأبديّ وإلى حبّ النّقاء الأرضيّ. يتفجّر هذا الوهم لدى أكثرهم عظمة: تظهر كلّ الصرامة الاستدلاليّة **للإيطيقيا**[48] مظهرا غير نقيّ بالنّسبة إلى النّور المنبعث من الاعترافات ذات البعد الإصلاحيّ للمفاهيم.

ليس بإمكان صرامة أوّل درس نقديّ أن يصمد أمام اختبار فلسفتي الحقّ والدّين في حدود العقل البسيط. إنّه من قبيل النّقد الثّوريّ أن نقول لماذا صمد هذا الوهم الكبير أمام ظهور العلوم التّاريخيّة.

وباسم التّاريخ في حدّ ذاته، فإنّ كلّ فيلسوف راضخ لمساءلة طرق تسمح بمقاربة حلّ للإشكاليّة في عمومها وهي كالتّالي: كيف ندرك نوعيّةً مّا للإنسان؟ انتهى السيّد برغسون كما السيّد برنشفيك إلى خلاصة مفادها أنّ السّؤال لا يمكن أن يُطرح. لا وجود لسبب واحد يدفعنا للانضمام إلى

---

(47) . أبيقور: (341 ق.م . 270 ق.م)، فيلسوف يونانيّ، أسّس مدرسة فلسفيّة وهي المدرسة «الأبيقوريّة». تكمن غاية فلسفته في الوصول إلى الحياة السّعيدة.

(48) . الايطيقيا: فلسفة الأخلاق، وهي جملة الآداب والقيم والقواعد الّتي تضبط تعاملات أصحاب حقل معرفيّ أو مهنيّ معيّن.

رغبة هؤلاء «**الدّليجروجيّين**»[49] الفلسفيّين.

إنّ تأكيداتهم هذه، بلا شكّ والّتي تخصّ التّاريخ والّتي تعلّق سير هذا التّاريخ، هل لها أن تضعهم في مأمن من هجومات لا يحبّذونها، هل لها أن تعفيهم من الخوض في أسئلة مبتذلة تنتهي بهم إلى استنتاجات في غاية الخطورة مهدّدة للنّظام القائم والّتي يقبلونها ويفضّلونها؟

إنّ الصّيغة المثيرة للجدل **لمحاكمة زولا**[50] لواحدة من الكلمات المفاتيح للفكر البرجوازيّ، فما هي إلا تأكيدات تجعلهم يعتقدون بأنّ وضعيّتهم كفلاسفة هي وضعيّة مريحة قياسا مع مجموع الوضعيّات الرّاضخة لأحكام النّقد الانسانيّ، هي نفس شاكلة وضعيّة ديكارت الّتي تظلّ الأفضل في أعينهم. وهم يتمنّون لو تتمّ معاملتهم كما هم يعاملون ديكارت. أمّا نحن، فلن نصنع الاستثناء في حقّ الفلاسفة.

إنّ هذه الفرضيّات الّتي يستميتُ المؤرّخون في الدّفاع عنها لهي في الواقع نتائج هامّة لما يسمّيه السّيّد لالاند، باعتقاد ساذج صادر عن جرأته الخاصّة «**الطّريقة الجدليّة للفلسفة**»: فهم يتوقّعون منّا ألاّ نعارض الفيلسوف إلا بحجج نابعة من داخل فلسفته في حد ذاتها، [مجرّد] اعتراضات تقنيّة لجملة من الشّكليّات المهذّبة الّتي تكوّن وفق آخر تحليل المادّةَ الخاصّة بفلسفة السّماء. لذلك ليس من حقّ أيّ فرد قادم من خارج [حقل الفلسفة] أن يطالب ببعض التّفسيرات والتّقارير في خصوص هذه الوصاية. لكنّنا لن نقبل مجدّدا أن يتمتّع ممارسو الفلسفة بالمسؤوليّة المطلقة،

---

(49) . نسبة لأدولف ديلجورج: وهو صيّاد فرنسيّ شهير ومحبّ للطّبيعة عاش ما بين (1814.1850)

(50) . محاكمة إميل زولا الكاتب والرّوائي الفرنسيّ الشّهير عاش ما بين (1840. 1902)، وقد تمّت هذه المحاكمة على خلفيّة مقالة نشرها في جريدة «لورور»، عنوانها «أنا أتّهم: j'accuse»، وتدور حول ما عُرف حينها بقضيّة دريفوس الّتي كشفت الصّراع الاجتماعي والسياسي القائم في نهاية القرن التّاسع عشر.

ما يعني أنّ عليهم الإجابة أمام زملائهم الآنيّين والقادمين. إنّنا نطالبُ بديمقراطيّة فلسفيّة حقيقيّة لا بواحدة من تلك الدّيمقراطيّات حيثُ لا يكون الوزراء مسؤولين إلاّ في البرلمان حيث السّاسة. الأمر شبيه كما لو أنّ كانط ليس مسؤولا إلاّ أمام بروتوكس، أستاذا. وليس أمام لينين المُنظّر والممارس للثّورة البروليتاريّة. إنّ الفضيحة الفلسفيّة المتمثّلة في إدانة سقراط كانت تقوم أساسا على السّخط الّذي خلّفه موتُ العدل أكثر من كونها [إدانة] قائمة على غضب مهنيّ في بَهْو مسرح حيثُ القضاة الّذين لم يكونوا مختصّين في منطق المفهوم ولا التّحليل الفكريّ. لقد كانوا مجرّد أناس يعيشون ويتوهّمون حول الفلسفة السّقراطيّة، كانوا بشرّريهم وطيّبيهم مرتكزين على التّأثير الحقيقيّ للأفكار الّتي تنشرها [تلك الفلسفة].

ثمّة مطالبة أخرى مشابهة ستحدثُ. سيواجه أناسٌ منسلخين عن مجموعة من الأناس الآخرين، مفكّرين الهنا والآن باعتراضات لا تقنيّة، الّتي ستنشغل كما ينشغل الفلاسفة بتفّاحة الأساليب المهذّبة، لن يحدث أيّ استثناء أمام أيٍّ كان باسم أسطورة الموهبة، وباسم أسطورة الرّوح.

لم يكن الفلاسفة يوما أرواحا نقيّة ولا أبناء طبيعيّين للسّماء. لكنّهم أجسادٌ ورؤوسٌ أرضيّة فوق أرض حيثُ لم تشكّل ولادتُهم ولا حتّى نموّهم هبات لا يمكن تعويضها، أو طبائع واضحة، أو تطوّرا للرّوح الخالصة الّتي هي بلا وجود. لقد كانوا المفكّرين الّذين كانوا، ليس لأنّ إجابة ما على سؤال قديم مازالت لم يتمّ التّوصّل إليها، لكن وبكلّ الدّقّة الممكنة لأنّ لهم شيئا يقولونه ولذلك فقط اهتمّوا بما قاله سابقيهم: وكانوا مثلهم مثل أيّ فرد يحتاجون إلى اللّغة. عندها فقط، فصّلوا أثوابا من أجل

أجسامهم بتقليد لا مهرب منه لأثواب سابقيهم وأقنعتهم. لقد وُلدوا ذات سنة، وسيموتون ذات سنة وما بين هذين التّاريخين تكمن إنسانيّتُهم وتفسيرُهم والأسبابُ الّتي جعلتهم يستعيدون الاشكاليّات القديمة على طريقتهم.

فيمَ ستكمن مزيّة الفلسفة إذن؟

إنّ الشّرط الأساسيّ الّذي يفرض ذلك هو ديمومة الظّروف الملائمة للفكر. فدائما ما نظنّ بأنّ عالم المضاربة غير راضخ لقانون التّغيير. الفلاسفة بدورهم يعتقدون ذلك. كم يبدُو لهم هذا العالم الهادئ ملائما للتّوغّل! إذ لا تُعرف بأيّة ردود فعل سوف يجابهون لقاءات ممكنة ستصادفهم في عالم مُتغيّر. ثمّة وسط متجانس، ساكن، بلا لون مثل الفضاء، حيثُ يمكن ومنذ البدء أن يخوضوا محاورات فلسفيّة باردة، إنّه [عالم] ملائم تماما. مازال ذاك العالم يتهيّأ لأعين كلّ المفكّرين، في ذاك الحيّز بدرجة حرارته المستقرّة، في ذاك الطّقس الخالي من العواصف والرّعود، حيث كان العقل قد نما مثل نبتة معزولة ومتناسقة وسط تنوّع ظاهر من الّذي لم يخدع منخرطيه يوما. تماما، مثلما تظلّ فكرة من أفكار أفلاطون متناسقة في ذاتها في خضمّ بزوغ أشياء جديدة بجوهرها النّاشئ.

إنّ العالم الماديّ هو ما هو. لا يخضع واقعه مهما كان للمقاييس العلميّة، بقدر ما هو [عالم] لا إنسانيّ، لذلك يبقى برّ كلّ المعادلات ويظلّ مستقلاّ عن تحوّلات الفكر. لم يؤثّر انتقال هذه الحركة الدّائريّة إلى حركة إهليليجيّة في واقع الكواكب: لكنّ فكرة متشبّثة بالدّائرة لن يمكنها امتلاك نفس العالم المادّيّ الّذي يمكن أن يحتويه الاهليلج. إنّ العالم الّذي هو موضوع الفلسفة الحيويّ هو عبارة عن بناء تقنيّ، علميّ وعمليّ. يكفي أن يطرأ

تعديل واحد مستمرّ على هذا الكون الذي يمكن تمثّله حتّى يُمنَعَ كانط من الإجابة على لايبنيتس حرفا فحرف. إذ تمنع الاختلافاتُ الأساسيّة الّتي تفصل بين العوالم الحديثة للفلسفة الفلاسفة من إضافة معان متجانسة على مختلف التّغييرات العلميّة: يمكن لعدد مختزل من العناصر الثّابتة وحدها أن تمنع توهّم سكنى نفس الكون المستقرّ. ستتمكّن معادلة فلسفيّة من الّتي لم تتمّ بعد أن تتيح المرور من منظومة إلى أخرى ضمن نفس الرّؤية النّقديّة. ربّما لن نعرف حتّى كيف سنُجيبُ على الصّرامة إلاّ عبر من عاصرها وليس أكثر من ذلك.

تكمن مهمّة التّاريخ في أن يعيد العدل للزّمن الّذي ولّى بمعاملته على أنّه مجموعة من التّغيّرات الواقعيّة الطارئة على ظروف الفكر. وليس بوصفه عنصرا مجرّدا من الّذي سيسمح مثلا بأن نُمَوْقِعَ كانط وسبينوزا في مستوى أفلاطون، وأن نتحدّث عن أفلاطونيّة سبينوزا أو كانطيّة أفلاطون. فمبدأ التّفسير الّذي يتوخّاه الفلاسفة يرتكز أساسا على تغيّرات العالم الانسانيّ وأوساط الذّكاء. تتحكّم أعمال الإنسان في علاقات الفكر مع مواضيعه، كما يوجّه تطوّر المجموعات البشريّة تطوّر الأرض والسّماء على حدّ سواء، فما تطوّر كلّ الممارسات التّقنيّة والسّياسيّة والاجتماعيّة إلاّ محرّك [يحرّك] كلّ ما يطلق عليه المفكّرون اسم «حركة الفكر»، ينبغي إذن البحث خارج الفلسفة عن الأسباب الّتي سوف تبيّن التّأثيرات الّتي تعقبها، و[ينبغي أيضا] البحث عن سبب اعتبار فلاسفة اليوم لكلّ مشروع من هذا النّوع بأنّه لا يمكن أن يكون فلسفيًّا بأيّ شكل من الأشكال.

3

استقالة الفلاسفة

إنّنا نعيشُ في زمن امتناع الفلاسفة [عن العمل]. فهم في حالة غياب مخز. كما [تنتصب] فجوة مخزية هي الأخرى، مسافة أكثر خزيًا بين ما تنصُّ عليه الفلسفة وما يحدثُ للإنسان بالرّغم عن وعدها، في الوقت الّذي لا تكفّ فيه عن اجترار هذا الوعد. إنّ الفلسفة لفي وضعيّة فرار. إنّها ليست هنا بتاتا حيثُ نحتاجُ خدماتها، إنّها أو بالأحرى هي تبدو مستقيلة تماما. يمكن حتّى الحديث على وضعيّة تَخَلٍّ نهائيّ عن وظيفتها، بل قل عن خيانة.

عندما نعلم بأنّ الفلسفة مازالت بعد عالقة في مسائل مثل العلاقات والرّوابط، الظّواهر والحقائق، الدّوافع الحياتيّة **والنّومينون**[51]، **المحايثة**[52] والمفارقة، فيما هو عرضيّ والحرّيّة، الأرواح والأجساد... وعندما نعلم بأنّ السيّد برنشفيك بوصفه من أعظم مؤسّسي هذا الفكر بصدد تقديم

(51) . **النّومينون**: مصطلح فلسفي ويعني الشّيء في ذاته ويرتبط خصوصا بالفلسفة الكانطيّة.
(52) . **المحايثة**: مفهوم فلسفي رئيسيّ من مفاهيم الفلسفة التّقليديّة والمدارس المثاليّة ومعناه [يمكث في]

دروس حول تقنيات العبور إلى المطلق، فإنّنا نحتار أمام عُصيّات[53] هذا الفكر، أمام هذه المُنتجات المسوخة الّتي تكوّن تأمّلهم والّتي تضطلع بمهمّة تقديم تفسير متكرّر لجمهور سوقيّ من الّذين تتمّ دعوتهم بكلّ كرم، [فنقدّم لهم] تفسيرا في خصوص إصابة بناتهم بالسّلّ، في خصوص غضب زوجاتهم، خدمتهم العسكريّة وما يتبعها من أحداث مُذلّة، في خصوص عملهم وبطالتهم وعُطَلهم والحروب والاضرابات وتعفّن برلماناتهم ووقاحة سُلطِهم. إنّنا لا نرى هُنا ماذا يمكن أن تعنيه فلسفة بلا موادّ، فلسفة بلا وجهة ولا عقل.

يبدو أنّ الفلاسفة جاهلين لكيفيّة تكوّن بني الانسان، يبدون غير عارفين بتاتا بما يأكلون، بمنازلهم حيث يسكنون، بملابسهم الّتي يرتدون، بالطّريقة الّتي وفقها يموتون، بالنّساء اللّائي يحبّون، بالعمل الّذي يؤدّون. كما يبدون غير عارفين بكيفيّة قضائهم أيّام الأحد، بالطّريقة الّتي يجابهون بها أمراضهم، وغير عارفين بجداول توزيع أوقاتهم، بمرابيحهم، بالجرائد والكتب الّتي يطالعون، بخطط التّرفيه الّتي يُفضّلون، بالأفلام الّتي يشاهدون، بالأغاني، بأمثالهم الشّعبيّة. إنّ هذا الجهل المذهل بعيد على أن يعكّر السّير المتخاذل للفلسفة. فالفلاسفة لا يحسّون بانجذاب حقيقيّ إلى الأرض. إنّهم خفافٌ، أكثر خفّة من الملائكة، ليس لهم ذاك الثّقل الّذي يميّز الأحياء الّذين نحبّ. إنّهم ليسوا في حاجة حتّى للتّمشي بين النّاس. وإنّي أمقتُ هذا الّتقليد الّذي نراه هنا والّذي يعود إلى زمن ديكارت:

«عوض أن أكون في هذه المدينة الكبيرة، حيث لا وجود لإنسان عداي، أنا الّذي لا أنتمي للمبادلات التّجاريّة هنا، [هذه المدينة] حيثُ ينتبه كلّ

(53) . **العصيّات**: باكتيريا عصويّة، أو على شكل عصا ومنها اسمها.

شخص لفائدته الخاصّة، حيث سأتمكّن من الإقامة على مدى حياتي دون الحاجة للالتقاء بأحدهم. سأقترف كلّ يوم تجوالي بين وهم شعب كبير، بكلّ حرّية وراحة من النّوع الّذي ستتمكّنون من لمسه في أزقّتكم الضّيّقة. إنّي لا أرى بأنّ من يعترضني من أناس مختلفين كثيرًا عن أشجار قد تلتقون بها في غاباتكم أو بالحيوانات الّتي ترعى هناك. لم يعد صخبهم قادرا حتّى على قطع أحلام يقظتي الّتي سأحسبها ضجّة منبعثة من إحدى جداول الماء».

بينما تكون الفلسفة بصدد تأمّل فكرة الإنسان وتطرح أسئلة لتجيب عليها في خصوصه، لكنّها ليست فكرة خاصّة بإنسان خاصّ موجود واقعا من الّذي عليه أن يأكل. فعلى سبيل المثال، تكون الحرّية بالنّسبة إلى هذه الفلسفة عبارة عن تسلسل من المفاهيم، أو هي مباركة للمدّة الزّمنيّة الأكثر سرّيّة. لكن، ما الّذي ستقوله فيما يتعلّق بهذه الألعاب، فيما يتعلّق بأناس منهمكين في عمل متسلسل، هؤلاء الّذين ليست الحرّية بالنّسبة إليهم سوى بحث دراميّ عن كلّ ما ليس في حوزتهم؟

هل ستظلّ الفلسفة لمدّة طويلة مجرّد عمل عجائزيّ، مجرّد تطريز عزباء متقدّمة في السّنّ وعاقر؟ هل ستنافس مجلّة «الميتافيزيقا والأخلاق»[54] مجلّة «المرأة في بيتها»[55]، في «منزل ألكان» الّتي تصدر عن مطبعة «تيدسكو»؟

***

يمكن المجازفة بالقول إنّه يوجد صنفان من الفلسفات، أو الأفضل من

(54) مجلّة فلسفيّة فرنسيّة تأسّست سنة 1893

(55) مجلّة نسويّة تأسّست في جانفي 1902

ذلك توجد حالتان من التّأمّل وهما متكاتفتان تحت ميثاق منضو ضمن مصطلح موحّد للفلسفة. ينبغي التّعامل مع هذه الوحدة اللّغويّة على أنّها فعل وقتيّ، دون التّركيز على شرعيّة ذلك ولا على سؤال الحقّ. يوجد هذان الشّكلان الخاصّان بالتّأمّل ذلك لأنّه توجد سلسلتان من الأسئلة المتمركزة حول الإنسان الّذي تكمن وظيفته في الإجابة عن الأسئلة الأكثر عموميّة: تخصّ السّلسلة الأولى معرفة العالم وتخصّ الثّانية وجود الإنسان. هناك إذن فلسفة تمتدّ وتعقب العلم وفلسفة تعالج الإشكاليّات الّتي تهمّ وضعيّة البشر في علاقتها بالعالم وفي علاقتهم بأنفسهم.

للصّنف الأوّل من الفلسفة مهمّة واضحة مبدئيًّا، أو يمكن النّظر إليها على أنّها كذلك، على الرّغم من أنّ سير عملها يأتي أعقاب ما لا نهاية له من الإشكاليّات الخاصّة الّتي تؤثّر في دورها وفي منهجيّتها، في صلوحيّتها وفي نتائجها وحتّى في وجودها. هي [فلسفة] تسعى جاهدة لإرساء بعض النّظام على التّناقضات العلميّة الّتي كانت تُسايرُ حركاتهم، كما تحاول أن تبلور تقريرا إجماليًّا وأن تبثّ بعض الوضوح في جملة من الأفكار والطّرق الّتي قد تطرأ على المنظومة العلميّة من قِبَل العلماء أنفسهم، لتسلّط الضّوء أخيرا على تطبيقاتهم وتجاربهم واكتشافاتهم الإيجابيّة وعلى هفواتهم وإخفاقاتهم وانتصاراتهم وانسحابهم من الأنظار للتفرّغ نهائيّا لمواكبة سير الذّكاء [الإنسانيّ] وطبيعتهِ عموما. من الممكن أن نقبل بالشرعيّة التّاريخيّة لهذه العمليّات الّتي يخضع لها العلم: فهذه المهمّة كانت على سبيل المثال موكلة لأفلاطون عندما سعى جاهدا إلى التغلّب على المصاعب الّتي اعترضته منذ مدخل اللاّتناسب. إنّ قيمة فلسفة هذا الصّنف الأوّل ــ ومن الحكمة أن نكتفيَ بتسمية منطقها العامّ ــ تكمُنُ فيما بين العلماء

والفلاسفة. فهذا السّؤال هو سؤال كَنَسيّ بامتياز وهو لا يعير أيّ اهتمام مباشر بكلّ ما هو لائكيّ. كما لا يخصّ الفلسفة أو الحكمة الإنسانيّة عموما. لا يمكننا القول للسّيّد «راي»[56] بأن يكفّ عن القيام بمهنته لأنّه منشغل بالنّظريّة الفيزيائيّة ولأنّه يناقش في طريق مسدود من **الثّرموديناميك**[57]، كان سيُجيب دون أدنى شكّ وبكلّ منطقيّة بأنّ له مهنة وألاّ أحد مخوّل، عندما يكون بصدد العمل، بأن يوجّه له تهمة خيانة ما لا يعرف من مهمّة إنسانيّة للفلسفة. لماذا أذكر السّيّد راي كمثال، ليس عليكم أن تتّهموا قريبي وهو دكتور، بأنّه قد خان مهمّة الطّب بتعلّة أنّه لم يعترض مطلقًا على جملة الاعتقالات الوقائيّة. لماذا لا تتّهمون شخصا آخر، مثل جاري الإسكافيّ بأنّه خان مهنته لأنّه لم يعترض على المجزرة الّتي وقعت بين بدو الهند الصّينيّة؟ وستكون كلّ تلك الأجوبة عادلة، ستكون لها عناوين متماسكة. وسيجيب السيّد **مايرسون**[58] بنفس الشّاكلة. هل بمقدورنا إذن اتّهام السّيّد راي والسيّد مايرسون بأنّهما قد خانا خدمة الفلسفة لأنّهما سعيدان بخدمة أرضيْهما. فالأفكار الّتي يبلورانها ونوعيّة أنشطتهما تتّسم كلّها وحصريًّا [بروح] التّقنية ولا يمكننا تقييمها إلاّ من داخل التّقنية، حتّى نقرّر إن كانا يقومان بعملهما بشكل جيّد أو سيّء. هو نفس ما يمكن قوله لمهندس إن كان يقوم بعمله بشكل سيّء أو جيّد. من الممكن أو من المتوقّع أن يكون السّيّد «راي» من أولئك الّذين يمارسون بشكل سيّء عملهم كفلاسفة علوم: كان لينين قد لاحظ بأنّ السيّد «راي» لم يكن مهندسا جيّدا، لكنّ ليس هذا السّؤال عينه ما

---

(56) . جون جوزيف راي (1884-1943)، فيلسوف ورجل قانون ومختصّ اجتماعي وديبلوماسيّ فرنسي.

(57) . الثرموديناميك: أحد فروع الميكانيكا الحرارّية وتدرس انتقال الشّكل الحراري للطّاقة ومختلف تحوّلاته إلى أشكال أخرى.

(58) . إميل أزريال مايرسون: (1859-1933)، فيلسوف يوناني، ينتمي للتيّار الوضعي في الفلسفة.

ينبغي معالجته في البداية، إذ أنّ الإجابة عنه، كما الوضعيّة الّتي هو عليها، تبقى من اختصاص العلماء وحدهم: للسّيّد **بارّان**[59]، للسيّد **لانجفان**[60]، للسيّد **أوربّان**[61] وللسيّد **بانلوفيه**[62] كلمتهم في هذا الخصوص. لهم حتّى أن يقهقهوا وهم يفكّرون في الشّكل الّذي تصبح عليه العلوم وهي في مهبّ يديْ برنشفيك. لا أحسّ بأدنى التزام وأنا أقاسمكم هذه المُزحة.

إنّه لمن المستحيل إذن مساءلة السيّد مايرسون باسم الفلسفة الإنسانيّة: فما قيمة كتابته ومجال هذه الكتابة إلاّ من الشّؤون الّتي ينبغي معالجتها فيما بين المختصّين وهُوَ [شخصيًّا]. لم يدّعِ السيّد **مايرسون** في مفتتح كتابه «**حسم النسبويّة**» ولا كتابه «**الهويّة والواقع**» بأنّ موضوعه النّهائيّ سيكون المصير الإنسانيّ. لذلك فقط، لا يمكننا مهاجمته بسبب ازدواجيّة [خطاب] واعتبارها خيانة، هذا لأنّ ازدواجيّته تلك، إذا ما وُجدت، ليست متناقضة في عمقها. كما إنّها ليست أكثر ازدواجيّة من كيميائيّ إلى آخر ووفق رؤية مسيحيّة وهو ليس في تعارض مع جوهر الكيمياء. كلّ ما يحقّ لنا من حسابات تجاه هذا الكيميائيّ وتجاه السيّد مايرسون ليس من تلك الأمور الّتي في متناولهم. فهما يعيشان خلطا مع الحسابات العامّة الّتي نحسّ وإنّه من حقّنا أن نطالب بها برجوازيًّا في العموم أو إنسانا في العموم أو مسيحيًّا

---

(59) . جون بارّان: (1870. 1942) فيزيائي فرنسيّ حاصل على جائزة نوبل سنة 1926 حول اكتشافه فيما يخصّ «الاتّزان الرّسوبي».

(60) . انجفان (1872. 1946) فيزيائي ومختصّ في فلسفة العلم من أصل فرنسيّ معروف بنظريّته هو «المغناطيسيّة» وبما يُسمّى «معادلة لانجفان» وكان أيضا من مؤسّسي «لجنة اليقظة للمفكّرين المناهضين للفاشيّة» وقد اضطلع بمهمّة رئيس لرابطة حقوق الإنسان من 1944 إلى 1946

(61) . ورج أوربّان (1872. 1938)، كيميائي ورسّام وموسيقي وهو مكتشف ما يُسمّى «اللوتيشيوم» كعنصر كيميائيّ.

(62) . بول بانلوفيه (1863. 1933)، رياضيّ وسياسيّ فرنسيّ، تولّى رئاسة الوزراء أثناء الحرب العالميّة الأولى.

في العموم مهما تكن مساراتهم المهنيّة.

إذا ما كان أحدهم عدوّا للإنسان بصفته برجوازيًّا أو مسيحيًّا فهذا لا يعني إنّه كذلك [في الحقيقة]، بمعنى أنّه ليس حاملا لفكر عدوانيّ خاصّ، فمواقف المتخصّصين هي مواقف ثابتة ومستندة إلى يقين نهائيّ. إذا ما اخترع كيميائيّ متفجّرا ما، فإنّه كيمائيّ لا أكثر وربّما هو كيميائيّ جيّد: إذا ما أوصى مباشرة باستخدامه ضدّ المدن المفتوحة، ضدّ العمّال وهم في إضرابهم، فإنّه هنا يخون البشر لكنّه يظلّ كيميائيًّا دائما، إذ هو لم يخن الكيمياء. لا مجال لأن نضعه في خانة خاصّة وأن نسجّله في دفتر خاصّ بخيانة الكيمياء.

لكنّ الوضعيّة الحاليّة للصّنف الثّاني من الفلسفة متناقضة حتّى مع طبيعتها: فهي نوع من التّأمّل الّذي يضع على عاتقه أن يخوض مسألة الحياة الإنسانيّة، ها هنا يكمُن هدفُها الصّريح، وهي تعلم بأنّها تستهدفه، لذلك فإنّ نظام هذه الحياة هو كلّ دوافعها لأن تُوجدَ، هي [فلسفة] تبحثُ عن هذا النّظام، كما كانت دائما تبحث عنه. وهي لا تكتفي بصياغة أحكام وجوديّة بل تريد التّعبير عن جملة الإرادات. كما أنّها تحاول الكشف عمّا ينبغي للإنسان أن يريده حتّى يتحمّل مصيره أو على الأقلّ ما تريده هي من الإنسان أن يتحمّل ـــ توفّر له العلومُ مقياس الأفعال الممكنة وتحدّد له مجالات الإرادات ومختلف النّقاط الّتي من المحتمل تطبيقها. لكن ليس هناك من تتمّة حقيقيّة [لكلّ ذلك]، عبر ممرّ صارم للعلم الّذي تريد أن تطالبه بشيء آخر غير حركته الخاصّة وتطوّره الخاصّ، ضمن هذه الفلسفة الّتي يُفترضُ دائما أن تكون مريدة لتحقيق شيء ما، أن تتوقّع، أن تقدّم النّصح. فهذه الفلسفة الطّموحة الّتي دائما ما تعترف في صيَغ كلاميّة

بمهمّتها المتمثّلة في خدمة الانسان. لكن لا السّيّد رابود[63] ولا السّيّد بارّان ولا السيّد دوكاني[64] ولا السّيّد مايرسون قد أعلنوا بأن ها هنا تماما تكمن مهمّتهم وعملهم عندما اتّخذ السيّد لانجفان موقفا صارما من مسألة الحرب وعندما تحدّث صراحة على ضرورة النّضال ضدّها، سيكون من الخطأ اعتبار ردّ فعله ذاك بصفتهِ فيزيائيًّا أو بصفة عامّة باعتبارهِ رجل دين. إنّه لا يتكلّم إلاّ بوصفه شخصا عاديًّا. أمّا عندما قال البروفيسور أينشتاين بأنّه سيرفض أيّ تعامل مع الحرب مهما كانت، دون أن يضع في الحسبان الحقّ الطيّب أو الشّرّانيّ لبلده، لقد كان يتكلّم كإنسان وليس كصاحب النّظريّة النّسبيّة. إنّه لمن السّذاجة ومن قبيل «البرجزة» حقيقة اعتبار احتجاج السيّد لانجفان والسيّد أينشتاين هو احتجاج أكثر قيمة من احتجاج أيّ شخص آخر دون اسم كبير، ربّما هو أكثر صعوبة لا أكثر. ببساطة هي احتجاجات مسيئة أكثر للبرجوازيّة الّتي لا تُحبّذ أن يتخلّى عنها عظماؤها ولا عن القيم الّتي تتبنّاها. لكن يوجد لدى فلاسفة الصّنف الثّاني نوع من الفكر الواضح في شأن مهمّتهم الخاصّة، المهمّة المرتبطة بتحقيق تخصّصهم. لهذا الفكر تاريخ وميل طبيعيّ إلى الحداثة، هما أمران ينبغي أن يُوصَفا وأن يُقيّما. لقد أدرك السيّد برنشفيك بوصفه فيلسوفا لا شخصا مستقلاّ بأنّ لديه واجبا للقيام به وبعض النّماذج المعيّنة الّتي ينبغي أن يتبعها، فقال:

«إنّ أبطال الحياة الرّوحيّة هم أولئك، ودون العودة إلى نماذج فاسدة بالمقارنة مع سابقيهم، الّذين قد أصبحوا لا زمنيّين والّذين دفعوا إلى الأمام

(63). إتيان رابود، (1868. 1956) عالم حيوان فرنسي، كرّس كلّ حياته لدراسة سلوك الحيوانات.
(64). موريس دوكاني (1862. 1939)، مهندس ورياضي فرنسيّ.

بخطوط الذّكاء وحقيقة المصائر ليضعوا بذلك كونًا معنويًّا بنفس الطّريقة الّتي وفقها صُنع الكونُ الماديّ المتركّب من الجاذبيّة والكهرباء».

إذا ما كنتُ أحسنتُ الإصغاء إلى هذه الكلمات، فهذه جملة تعبّر عن الكبرياء وعن الوعي بالمهمّة، جملةٌ تؤكّد على أنّ الفلسفة تنحو بالعالم في الاتّجاه الأكثر نبلا في كلّ مصيره وأنّ السّوقة مطالبون بأن يكون لهم نوع من الامتنان لشريحة الفلاسفة الّذين يبدعون أكوانا من أجلهم.

ينبغي إذن تقييم النّشاط الحاليّ للفلاسفة في علاقته بهذه الفكرة الّتي يسلّمون بها والّتي يعلنونها صراحة. الّتي هي مهمّة إنسانيّة مستقلّة عن كلّ ظرف محلّيّ وتاريخيّ وعن كلّ مصلحة خاصّة. سنفهم من هنا ماذا يعني رجل دين، وسندرك أيضا طبيعته المثيرة وكيف حان الوقت أخيرا إلى الاستغناء عنه نهائيًّا.

***

لقد حان أيضا وقتُ القول إنّ الفلسفة البرجوازيّة لا تستطيع إنتاج سوى تصريحات شفويّة، لكنّها تعمل اليوم ضدّ الأهداف العظيمة الّتي تدّعي اتّباعها. فهذا التّناقض ما بين هدفها وحقيقة نشاطها إنّما هو أصل التباسها ومنبع كلّ التّناقض حيثُ نشأت وترعرعت. تكمن كلّ مأساة الفلسفة اليوم في هذا البون الشّاسع الّذي يوجد بين ما تعد به وما هو بحوزتها فعليًّا. فما بحوزتها إلا النّزر القليل. حتّى أنّ الأمور تسير كما لو أنّ لا شيء في حوزتها. أستطيع أن أتأكّد هنا بأنّ ما يحدث للفلاسفة أنفسهم بأن يتخلّوا عن مشاريعهم أحيانا لفائدة ما لا نعرفُ من طهارة، يا للجدّية! يقول السيّد برنشفيك أيضا:

«سنكتفي خلال ثلاثة أرباع [ما نعيش] من ظروف بأن نتّبع، دون أن نزعج كثيرًا، حوافزَ التّطابق الاجتماعيّ. لكن لتلك الحالات الاستثنائيّة الّتي لا تلائم الابتكارات الخصبة».

إنّها جملة أخرى مشابهة ومغرقة في برجوازيّتها. فهي تلتزم ولا تلتزم بشيء، وهي تَعِدُ ولا تَعِدُ بشيء. كما تتخلّى على ما لا نعرف لفائدة تحايل في خصوص تمييز الاستثنائيّ عن السّاذج، البطوليّ عن اليوميّ. [هي جملة] تنتمي لذاك الصّنف من الاعترافات حيثُ يظهر بالكاشف التّوافق ما بين فكر المفكّرين وفكر السّياسيّين. ليس من قبيل الصّدفة أن يكتب السيّد دومير[65] ما يلي:

«إنّ الحالات الاستثنائيّة الّتي تفرض فحصا دقيقا للعقل ومحاكمةً للوعي تبقى كافية حتّى نرضخ خلال ظروفنا العاديّة للقواعد العامّة الـمُعترَف بها بما يكفي والسّارية دون انقطاع».

ليس من الصّدفة في شيء أيضا أن تلتقيَ الحماقة القصوى لــ «كتاب لأبنائي»[66] مع البراعة القصوى لكتابات السيّد برنشفيك. تحتوي هاتان الشّهادتان على نوع من الاعتراف في سمته الظّاهريّة ومليء بإرادة طيّبة من الوعود. إنّه وعد لم يتمّ الإيفاء به، بل والّذي لا يمكن الإيفاء به، وحده هذا الاعتراف ما سيبقى مرئيًّا. فطاقة الاستنباط هذه، وهذه التّجديدات الخصبة، قد صار من الواجب أن ننتهي بقبول حقيقة أنّ مآلها هو أن تذوب في شاعريّة التّاريخ وأنّها لن تكون أكثر من نماذج مرصوفة في خزانة من الصّنف العتيق داخل معرض حزين ومهجور. هذا لأنّنا سنبحث عبثا

(65) . ول دومير (1857. 1936): رئيس فرنسا من 1931 إلى حدود اغتياله يوم 7 مايو 1932 في باريس.
(66) . كتاب من أجل أبنائي: هو كتاب لبول دومير المذكور آنفا.

عن الجزء الرّابع للظّروف (الّتي تحدّث عنها السيّد برنشفيك)، عن باقة من الحالات الاستثنائيّة، والّذي سيكون قد أُهدِيَ لفلسفة اليوم المطالبة بالإنجاز وبالتّأكيد على مهمّتها. لقد عرفت طفولتنا حربا مازال النّاس مرتعبين خوفا منها وحاملين لآثار جروحها: هل علينا أن نفكّر بأنّ هذه المأساة العظيمة لا تُمثّل في نظر الفلسفة إلاّ مجرّد ظروف مشتركة حيث كانت الحوافز الملائمة اجتماعيًّا ما يقود؟ لأنّ الفلاسفة لم يتزعزعوا البتّة، لم يسعوا مطلقا إلى القياس والتّفكير في حدث كان قد انهال على الانسانيّة بثقله. فهم لم يتأثّروا به كفاية. راح هؤلاء القساوسة يقلّدون العامّة ويتبعون وصفات العساكر والسّاسة. هؤلاء النّاس الّذين هم غير قابلين للزّحزحة من أماكنهم وهم يتابعون في رضوخ تامّ أعمال الجهل ويستمتعون برؤية موت من يمكن زحزحتهم: كان كلّ فرد من تلامذتهم من الّذين كانوا يتساقطون قتلى يحملون معهم شهادة عن فلسفتهم. هم مدّدوا هؤلاء القتلى كدليل عليهم. فما هؤلاء سوى قتلاهم وما هذه الانتصارات سوى انتصاراتهم. لقد رأى السيّد برغسون انتصاره في الانتصار الفرنسيّ. كان أيضا انتصار بوتروكس، وانتصار إميل دوركهايم . ولقد بدت «**لامارن**»[67] للسيّد برنشفيك بمثابة تحقّق واضح لفلسفته.

***

ليس هذا الامتناع بصلفيّ في عمقه. ولا يعلن الفلاسفة بأنّ عموم النّاس غريبون عنهم. يبقى هناك نوع من الحزي الّذي وجب الاعتراف به جماهيريًّا: بأنّنا لا نحبّهم. الكلّ قادر على القول إنّهم إنسانيّون وألاّ شيء

(67). لامارن: معركة مهمّة دارت بين القوات الألمانية والقوّات الفرنسيّة خلال الحرب العالميّة الأولى في الفترة ما بين 6 و12 سبتمبر . أيلول . 1914 وذلك على ضفاف نهر «المارن» وانتهت بانتصار القوّات الفرنسيّة المتحالفة مع القوات البريطانيّة.

إنسانيّ بغريب عنهم. لن تكون هناك ولا أدنى صعوبة في تكرار اعترافات «**الثّيتتس**»[68] على مسامع الغالبيّة العظمى من الفلاسفة.

سيكون من الصّعب الالتقاء بفيلسوف واحد وهو يعلن: إنّي أدرس بسيكولوجيا القردة هذا لأنّي لا أحبّ النّاس. لا أحد منهم سيعرف كيف سيتمكّن بعد كلّ شيء من العبور خلال ظلّ قدّاس إنسانيّ. لابدّ من العيش كما ينبغي. قليلون هم، من يكتفون بقبول تحقير ما أو حتّى غضب أشباههم: تتّسع الفلسفة نادرا لواحد مثل «**بسمارك**»[69] أو مثل «**فوشي**»[70]، لهذا فقط هم يؤكّدون في كلّ مرّة على تلك المهمّة العامّة للفلسفة. تلك المهمّة الّتي تتحمّل عبء العقل الّذي يقود العالم. وعليه، هم يعتقدون بأنّهم قد أنجزوا الكثير من أجل النّوع الأرضيّ الّذي ينتمون إليه ولهذا النّوع الّذي منه يكوّنون العقل.

لقد حان الوقت عموما لوضعهم عرض الحائط، وأن تتمّ مساءلتهم فيما يتعلّق بأفكارهم حول الحرب، حول الاستعمار، حول ترشيد المصانع، حول الحبّ، حول اختلافات طرق الموت، حول البطالة، حول السّياسة، حول الانتحار، حول الشّرطة والإجهاض، حول كلّ العناصر الّتي تشغل الأرض واقعا. لقد حان الوقت عموما بأن نطالبهم بموقفهم. لقد حان الوقتُ عموما بأن يكفّوا عن الغدر بأيّ شخص، بأن يكفّوا عن لعب أيّ

---

(68). الثّيتتس: من محاورات أفلاطون ودارت بين سقراط وثيودوروس وثيتتس للإجابة على سؤال «ما المعرفة؟».

(69) . سمارك (1815 . 1889)، رجل دولة وسياسيّ بروسي . ألمانيّ، أصبح رئيسا للوزراء في مملكة بروسيا سنة 1862 وأشرف على توحيد الولايات الألمانية ليكوّن ما يُسمّى «الرّايخ الألماني الثّاني».

(70). فوشي (1759.1820)، سياسيّ فرنسيّ معروف خاصّة بإخماده للثورة الفرنسيّة سنة 1793 ليصبح وزيرا للدّاخليّة فيما بعد.

دور. عندما حاصر ديميتريوس[71] أثينا، كان أبيقور يتمشّى بين الأثينيّين. فأبيقور اتّخذ هنا موقفا واضحا. حتّى لو كانوا قد رفضوه جماهيريًّا(يمكنني رؤية ذلك من هنا، وأن يخفق قلبي من هنا، أن أقيس من هنا ذاك الرّكام المتكّون من أسبابهم الجميلة، من دوافعهم النّبيلة الّتي جعلتهم يرفضون ذاك التّمشي). سيفهم أقلّ المراهقين شأنا بأنّهم قد اختاروا واقعيًا، وليس بعمى قابل للشّفاء ـــ رفاهيّتهم الرّوحيّة والضّمانات الزّمنيّة لرفاهيّتهم تلك، لصالح أسئلة إنسانيّة [رغم] حقارتها.

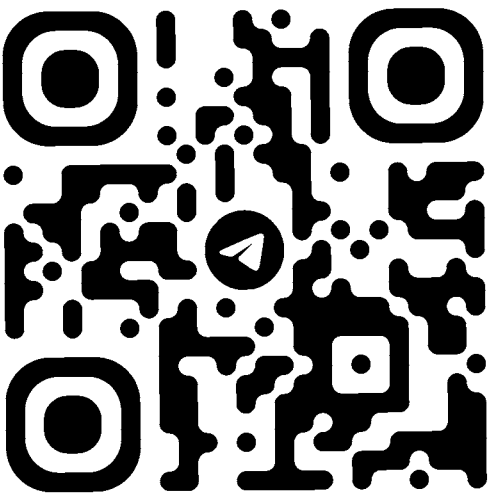

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

(71) . يميتريوس(337 ق.م . 283 ق.م)، اشتُهر باسم بوليوركيتس الّذي يعني «المحاصر» وهو قائد عسكري مقدوني.

4

وضعيّة الفلاسفة

إنّها لا تتركُ قراءة ستيوارت ميل[72] إلاّ من أجل [قراءة] لاشولي[73] وبما أنّها كانت لا تؤمن إلاّ قليلا بحقيقة العالم الخارجيّ، فإنّها لم تعد متحمّسة للخوض فيها قبل مماتها أو أن تحصل فيها على موقع ما.

مارسيل بروست[74]

(سدوم والعامورة ج2، ص 104)

ليس من المعتاد أن يُضيّع المتميّزون أوقاتهم في كلّ ما هو مضاربة اجتماعيّة، هي أضغاث أحلام [تراودهم] من أجل مواساة الّذين حُرموا من خيرات الأرض.

ألكسندر دوماس[75]

(الكونت دي مونت كريستو، ج3، ص 10)

(72). جون سيتوارت ميل: (1806. 1873)، فيلسوف واقتصادي بريطاني من مؤلّفاته: مبادئ الاقتصاد السّياسي، نظام المنطق، استعباد النّساء...

(73) . جون لاشولي: (1832. 1873)، فيلسوف فرنسي مختصّ في المنطق والميتافيزيقا.

(74) . ارسيل بروست: (1871. 1922)، كاتب وروائي فرنسي، معروف بسلسلته الرّوائيّة «البحث عن الزّمن المفقود».

(75) . ألكسندر دوماس: (1802. 1870)، كاتب فرنسيّ شهير من أهمّ أعماله «الكونت دي مونت كريستو، الفرسان الثّلاثة...».

يُوجد مضطهِدون من ناحية ومضطهَدون من النّاحية الأخرى، كما يُوجدُ أناسٌ مستغلّون لهذا الاضطهاد وآخرون ممّن لا يمكنهم الالتزام بالهدوء عندما يعلمون بوجود هذا الاضطهاد.

في زمن مّا وفي عالم حيثُ يمكن تعداد موظّفي البنك والصّناعيّين والمستأجرين والعمّال والعاطلين عن العمل والجنود، في هذا العالم لا يمكن للفلسفة أن تتّسم بالوضوح. لا يمكن للفلسفة الّتي تتبنّاها الشّريحة الأولى (المُضطهِدون)أن يُعترفَ بها وأن يتمّ تبنّيها من قِبل الشّريحة الثّانية (المضطهَدين) . بينما لن يتبنّى السيّد «**هامبورغ**» والسيّد «**موط**»[76] الفلسفة الّتي تستوعب حركة العمّال.

عندما تسير الأمور في هذا العالم على هذه الشّاكلة فإنّ الفلسفة ستكون مقسّمة، بل ستكون قابلة للانقسام بكلّ فظاظة. لا بدّ إذن أن أستعيد بفظاظة أنا الآخر ذاك الانقسام الأصليّ على الرّغم من أنّ البرجوازيّين المنصّبين على رأس القيادة الرّوحانيّة لا يكفّون عن تكرار بأنّ فظاظة هذا الانقسام إنّما هي من الخطايا المضادّة للمنظومة الرّوحيّة، ليدينوا في النّهاية عدم صلاحيّة الأفكار الّتي نبلورها ونستخلصها انطلاقا من هذه الانقسامات الفظّة. لكنّ البرجوازيّين وحدهم من يحتاجون حقيقة إلى بعض الحنكة في انقساماتهم وإلى بعض العمق الواضح في فكرهم، هذا لأنّهم وحدهم من لديهم ما يخفونه ولأنّ الفظاظة ما هي في النّهاية إلاّ قناع أقلّ طيبة من روح النّعومة ومن قدرتهم على التلوّن. إذ ينبغي عليهم الاختباء خلف غمامة جميلة مثل «الخالدين» عند هوميروس: يتنقّل السيّد

(76) . يودور هامبورغ وموط: على الأغلب هما قاضيان معاصران للكاتب.

«واهل»[77] والسيّد برنشفيك والسيّد مارسيل على متن غيمة تماما مثل الآلهة أو مثل الحبار البحريّ الهلاميّ. يشهد سُمكَ الغمامة وشكلها على عمق الفلسفة: ليس في إمكان أحد أن يقرّر أن السيّد «ري»[78] ليس عميقا وبأنّ غيمته ليست أكثر من ضباب صباحيّ عابر، يمكن لنا تبيّن هذا المكر من الوهلة الأولى. وليست غمامة السيّد فوكوني[79] إلاّ ظلاّ. أمّا السيّد مارسيل فعميق لا نرى من خلف غمامته شبكة مكره.

هكذا يشعر الفلاسفة بأنّهم في مأمن من كلّ حرج، منها حرج تصنيفات تلك الفظاظة على سبيل المثال، هكذا يعقد هؤلاء الأولمبيّون صفقاتهم وهم في كنف ظِلالهم النّديّة الملائمة للأعاجيب والتحوّلات السّحريّة. وإذا لم نفهم، فَهُم يهمسون: أيّتها الغمامة، يا غمامتي الجميلة...

لكنّ الوقتَ لم يعد مناسبا لأيّ شخص بأن يخفيَ اللّعبة الحقيقيّة بل حان الوقت للقول وبكلّ بساطة إنّ هناك فلسفة للمُضطهِدين وأخرى للمضطهَدين دون أن يكون بينهما تشابه ملموس على الرّغم من أنّه يمكننا إطلاق تسمية «فلسفة» على كلتيْهما. ها هنا يكمن التباس الفلسفة عموما، أو التباس فلسفة [الشّريحة الأولى] على الأقلّ، وهو التباس أكثر إلحاحا من كلّ الالتباسات الّتي ينبغي تعدادها وكشف الغطاء عنها.

لقد أصبحت هذه الوضعيّة أكثر وضوحا كما لم تكن من قبل. لكنّ النّاس مازالوا ينزعجون منها. لم توجد فلسفة محايدة مطلقا، فلسفة عاجزة

---

(77). جون واهل: (1888. 1974)، فيلسوف فرنسيّ، درّس في السّوربون، تمّ إيقافه عن التعليم وسجنه إلى حدود 1941، ليفرّ من تفشي الأوبئة إلى الولايات المتحدة ولا يعود منها إلاّ بعد نهاية الحرب العالمية الثّانية له العديد من المؤلّفات منها: تعاسة الوعي في فلسفة هيجل، الإشكاليّات الأفلاطونيّة الخ...

(78) . بيل ري: (1873. 1940)، فيلسوف ومؤرّخ علوم فرنسي، له مؤلّفات عديدة منها: النّظريّة الفلسفيّة لدى الفيزيائيّين المعاصرين، عناصر الفلسفة العلمية والأخلاقية...

(79) .بول فوكوني: (1874. 1938)، عالم اجتماع فرنسي.

تماما عن اتّخاذ قرار بوضوح كان أو بغموض، بوعي أو بلا وعي، قرار الانتماء لإحدى الفلسفتيْن. لنلقِ على كانط أوّل وداع، إذ قال:

«ليس على الملوك ولا على الشّعوب المملوكة... أن يجبروا الفلاسفةَ على الصّمت أو على الاختفاء، بل عليهم أن يسمحوا لهم بالتكلّم على الملأ، هذا كلّ ما هو ضروريّ لتتنوّر حكومتهم، فأناس هذه الطّبقة عاجزون بطبعهم القَبَليّ ونسقهم المتأثّر بالنّوادي، هي [طبقة] بعيدة على أن تكون مستهدفة من قِبَل الحركات التّبشيريّة».

إنّ فلاسفة اليوم يتوخّون دون أدنى شكّ حذرا كبيرا أو هي جهالة ساذجة بالنّفس. منذ السيّد «**بيندا**»[80] إلى حدود السيّد برغسون، هذين الأخوين العدوّيْن... لكنّ الفلاسفة هم أيضا أناسٌ يمارسون التّبشير. لا حاجة لهم بأن ينتموا لإحدى النّوادي من أجل القيام بدعاية. ولا شكّ أنّ جلسات الجمعيّة الفرنسيّة للفلسفة حيثُ تُساور السيّد **كزافييه**[81] اليوم حيرة نابعة من الشّبابيك المُشْرعة وحيثُ يقدّم الأب **لابيرثونير**[82] والسّيّد **فاليري**[83] توجّهات «المجلّة الجديدة»[84] الفرنسيّة ومحاضرات حوليّة لا تتذكّر شيئا من الأجواء المشتعلة بنادي «اليعاقبة»[85]. لكنّ هذا التّجمّع البريء في ظاهره كان من الأماكن الّتي فيها نمتْ جحافل من التّبشيريّين.

---

(80) . وليان بيندا: (1867. 1956)، فيلسوف وروائي فرنسيّ عُرفَ خصوصا بمقالته الشّهيرة «خيانة المثقّفين».

(81) . زافييه ليون: (1868. 1935)، فيلسوف فرنسيّ ومؤسّس الجمعيّة الفرنسيّة للفلسفة سنة 1901.

(82) . لوسيان لابيرثونير: (1860. 1932)، قسّيس فرنسيّ وفيلسوف متخصّص في الثيولوجيا، له أيضا مؤلّفات عديدة في تاريخ الفلسفة.

(83) . بول فاليري: (1871. 1945)، كاتب وشاعر وفيلسوف فرنسيّ له اهتمامات شاملة.

(84) . المجلّة الجديدة: مجلّة فرنسيّة نصف شهريّة تمّ تأسيسها سنة 1879.

(85) . ادي اليعاقبة، يُسمّى أيضا «أصدقاء الحرّيّة والمساواة». كان ناديا ذا نفوذ خلال الثّورة الفرنسيّة 1789.

إنّ الفلاسفة بدورهم أناسٌ أكثر انحيازًا من اللاّدينيّين الّذين يؤوّلون الفكر وفق منهجيّة ما. ولم يكن هناك أكثر من موقفيْن منحازيْن، موقف للمضطهِدين وآخر للمُضطهَدين. كانت الفلسفة البرجوازيّة في فترة مراهقتها قد اتّخذت بدورها نفس موقف المضطهَدين، البرجوازيّة الّتي كانت مُضطهَدة. تنبع كلّ تعاسة اليوم من لهو ممثّليها الخاصّين: لا ينتبهُ أحدٌ للتحوّل الحاصل في فلسفة المضطهِدين إلى ما كانت عليه فلسفة المضطهَدين. لم ير أحد فولتير. ولم ير أحد كانط وهو يمرّ من الجانب الآخر للمتاريس. وحدها البروليتاريا من أصبحت خلال مائة عام الممثّلة الوحيدة والكتلة الوحيدة الّتي تظمّ المضطهَدين. لكنّ الفلاسفة مازالوا يواصلون التّأكيد على أنّ على الفلسفة في عمومها هي أن تتجاهل التّجمّع والمواقف. فهذه العذراء تحبّ الحقيقة لنفسها لا أكثر، تماما مثلما تحبّ القدّيسة تيريزا[86] الله. وهم حتّى يصدّقون ذلك. ولا يهتمّون مطلقا بأنّنا دائما ما نغمّس الحقيقة في الصّلصة الّتي نفضّل وأنّ هناك ألف وصفة ووصفة من أجل ترتيبها.

تهدف كلّ فلسفة إلى تأسيس وتبرير الحقائق الرّوحيّة المتطابقة مع بعض أنساق الوجود العابر، فهم يخرجونها منهجيًّا عبر جملة من الأفكار والمفاهيم. وبما أنّ نفس فهرس المفاهيم والأفكار قد ينضوي ضمن مؤسّسة الحقائق الشّديدة التّنوّع فإنّه من السّهل عليهم أن يعتقدوا بأنّ الحقائق ليست سوى أجزاء صغيرة من حقيقة واحدة مرتكزين في ذلك

(86) . القدّيسة تيريزا: (1873. 1897)، راهبة فرنسيّة تُلقّب بـ «وردة المسيح الصّغيرة»، لها كتاب وحيد يحمل عنوان «قصّة نفس» وفيه تسرد سيرة حياتها.

وبعمق على فلسفة الملابس[87].

إنّ طبيعة الفلسفة مثلها مثل أيّ نشاط بشريّ آخر هي في خدمة ومصلحة أشخاص معيّنين. يمكن للفلاسفة في ظاهرهم أن يكونوا في صورة أنقياء من كلّ اهتمام مادّيّ، كما لهم أن يظهروا مظهر قضاة مرتكزين في ذلك على حِكَم مطلقة وليس على مناصرين: لكنّ الأقنعة الأكثر سكونا لا يمكنها أن تقلّد طويلا إهمالا لا إنسانيًّا، فدائما ما ينتهي الفلاسفة بأن يسمحوا للإنسان الّذي يسكنهم بالبروز.

إنّ اللّامبالاة وحتّى الاستقالة الفعليّة هما من قرارات المناصرين دون غيرهم، فإرادة أن يُصبح المرء رجل دين، ورجل دين واحد لا أكثر إنّما هي من أقرب خيارات الإنسان المطلق منه إلى انتخاب من قبل مناصر ما. فالامتناع خيار وأفضليّة. إذ يتضمّن حكما عامّا نادرا ما يكون واضحا دون شكّ، أضف إلى ذلك الانتقاء ذا الصّبغة المحدّدة. يمكن لِلْفَظّ أن يشعر بذلك: لهذا فقط سيكون من الصّعب الاعتقاد في نقاء الفلسفة ولهذا أيضا ستكون عرضة للسّخرية. إليكم هذا الطّلب المُقدَّمُ: هل يريد الفلاسفة أن يكونوا متحزّبين وفي نفس الوقت بشرا أم غير متحزّبين دون أن يكونوا من البشر؟ من الواضح إذن أنّ الخيار هو مجرّد إنتاج وهميّ وبحث للنّقد: يبقى القبول بشروطه بمثابة السّقوط في كلّ الفخاخ الّتي تنصبها لنا البرجوازيّة. وبأكثر بساطة: يمكن للفلاسفة أن يحتضنوا أكثر من حزب لأنّ الفلسفة لا تملك مصيرا واحدا. ولأنّه لا وجود لحقيقة ذات بعد واحد، حقيقة أبديّة معترف بها كما تفعل الفلسفة الأحاديّة المُعترف بها

(87) . د يكون بول نيزان هنا قاصدا لكتاب «فلسفة الملابس» للكاتب الإيرلندي الشّهير أوسكار وايلد (1854-1900)

والّتي دائما ما تُنتَخَبُ بوصفها موضوعًا أوحد.

***

[هناك] من بين الفلاسفة من هم راضون وآخرون غير راضين.

لم يكن أبيقور راضيًا. لم يكن سبينوزا راضيًا هو الآخر. ولم يكن روسّو سهل الرّضى. لكنّ لايبنيتس يعتقد بأنّ العالم على ما يُرام. كما لم يكن السيّد برنشفيك مستاء طيلة حياته.

مرّة أخرى، [أقول] إنّ للفلاسفة قفا من بشر: لذلك يملك بعضهم أسبابا كي يشعروا بأنّ العالم مرفّه. بينما لم يتعوّد البعض الآخر منهم على ذلك. يتطابق فلاسفة الشّريحة الأولى مع العالم فلا يرون أيّ سبب لتغييره مهما كان [السّبب]، بينما لا يحبّ البعض الآخر ولا يقبلون بالعالم كما هو فيُريدون تغييره، ولهذا السّبب [بالذّات] لا يحبّ السيّد برنشفيك ماركس.

لن نغصب أحدا على الشّعور بالرّضى متى نشاء، ليتكيّف مع العالم وحتّى يراه ويؤوّلَه كما يلزمُ. وهو ما يتطلّبُ إلاها قديرا، سيّدا على الحكمة بلا شوائب وبلا عدد من الطّاولات المخصّصة [لتقبّل] المكافآت والتّعويضات الأبديّة: ما كان ينبغي الاستغناء عن الله إذا ما كنّا نريدُ نشر فكرة أنّ الرّأي ينبع من حرّية المصير أو أنّ الحرّيّة تنبع من الرّأي المستقيم. لا أحبّ فلسفة المضطهِدين لأنّي دائما ما أحسّ بأنّي مُضطهَدٌ ولأنّ التّكيّفَ مع منظومة [الاضطهاد] يبدو لي أقلّ من أيّ نجاعة لما لا أعرفُ من سلطة داخليّة تحكم بكلّ حرّيّة تماما مثلها مثل أيّ تشوّه حياتيّ. لطالما بدا أمرا سهلا للمضطهِدِ أكثر من المضطهَد بأن يتكيّف مع [منظومة] الاضطهاد.

يقيّم الفلاسفةُ المرفّهون التّقدّم البشريَّ على أنّه قد وصل إلى تمامه أو هو

في طريقه إلى الوصول. لذلك يكتّفون الأياديَ لينعموا بسلام يوم الأحد. فلا عمل بعدُ على المكتب يمكن القيام به. لهم أن يغرقوا في تأمّل اليوم السّابع. أ لم يتمّ القيام بكلّ ما يجب فعله؟ أ لَمْ يُعِدّ الأجداد العالم لصالح الأحفاد؟ لم يَعُدْ هناك مجالٌ للمُكمّلات، لا أكثر من بعض التّحسينات [البسيطة] لا أكثر، لا غير وضع اللّمسة الأخيرة.

لكن وبالنّسبة إلى الآخرين وهم [يعيشون] بين البشر، لم يحلَّ بعدُ يومُ الأحد، وهم لا يعرفون ذاك الهدوء الّذي يعقب الأبدًاعات العظيمة بل هم يلقون عينا على ذاك العمل الّذي لم يُنجزْ بعدُ. أرى بأنّ العمل لم يتمّ بينما يرى السيّد لالاند العكس. ويقعد السيّد «**بوغلي**»[88] والسيّد «**ثامين**»[89] ملء سلام الرّبّ. كيف إذن لا تكون الفلسفة قد انتهت منذ الزّمن الّذي ظهر فيه الانسان وشرع في التّفكير؟ إنّ آلة العقل لَتَعْمَلُ، لكن هل ستعمل بمفردها إلى نهاية الأزمان؟ أ لم يستنبطوا الحركة الدّؤوبة للعقل؟ والآن، أيّها الرّبّ، لتذكّر عبادك بك!

على كلّ ذلك، لم تعد الفلسفة شغّالة. لم تعد تخطو ولو خطوة إلى الأمام. بل هناك من العلامات ما توحي بأنّها سوف ترتكب خطوات إلى الوراء. لا أحد يطمح لفتح مسارات جديدة من أجلها. لقد تمّ تصنيف كلّ موضوعاتها ووضع برامجها النّهائيّة إلى نهاية التّاريخ. ولقد ضبط السيّد **بارودي**[90] الأمر وتبيّن كلّ الطّريق: بعد غد، بعد مائة عام. اشترى أولئك المضطهَدُون المنزل.

---

(88). سيليستين بوغلي: (1870. 1940)، فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، درس في السّوربون منذ 1901، وهو معروف خصوصا بدفاعه على النّظريّة الّتي تعتبر السيسيولوجيا علم قائم الذّات.

(89) . ايمون ثامين: (1857. 1933)، فيلسوف وواعظ فرنسيّ.

(90) . ألكسندر موريس بارودي: (1901. 1979)، سياسيّ ومناضل فرنسيّ عُرف كمقاوم أثناء الحرب العالميّة الثّانية.

***

لهذه الاستقالة معنى خاصّ. لقد وضع لينين من داخل المجتمع الفظّ واللاّديني يده على البرهان. رغم أنّه لم يكن وقتها يفكّر في الفلسفة على الاطلاق. لقد كانت فكرته متطابقة معه تمام التّطابق:

«أن تكون محايدا في السّياسة يعني أن تكون راضيًا... ليست بطاقة «غير متحزّب» في المجتمع البرجوازي سوى العبارة المحجّبة، المنافقة، السّلبيّة للمنخرطين في حزب الرّاضين، حزب الحكومات، حزب المستغلّين».

كان ينبغي القول: إنّ المحايد في الفلسفة يعني الرّاضي. ويعني «الغير المتحزّب» المستغلّ. أمّا الامتناع عن التّصويت، هذا الحزب الّذي يدّعي عدم امتلاك شيء، يوجد في السّياق معناه. بما أنّ قضايا الإنسان الكبرى تسبّب برود الفلسفة وعجزها، فإنّها تظلّ مطمورة في قضاياها الفكريّة الصّغيرة. وهو ما يسرّع ضرورة مهاجمتها.

مع أنّه يبدو [لي]، مرّة أخرى، أنّه من الفاضح أن نعامل الحياة الرّوحيّة كما [نعامل] أيّ نشاط آخر أو أيّ أمر سلبيّ آخر سياسيّ وأن ننتظر منها شهادات كموظّفين باحثين عن عمل. من الفاضح أن نشنّ على السيّد برنشفيك أو على السيّد لالاند نوعا من الهجوم الّذي من شأنه أن يخرجهما عن عاداتهما، [هجوما] هو في الأصل ليس موجّها لشخصهما. لكنّ هذه الفضيحة تُعدّ اليوم أكثر إلحاحا من حدس المدّة الزّمنيّة، ومن نظريّة الانحلال، وجدليّة العالم المرهف وكلّ ذاك التّلمود من التّاريخ المغلوط. إنّه لمن غير الإنسانيّ اليوم أن نتمنّع أمام الفضائح الفلسفيّة: نحن نحبّ البشر أكثر من الفلسفة، إذا ما ابتعدنا عن حزبهم. لطالما بدت الفلسفة فضائحيّة لبعضهم عندما تزامنت بكلّ الوضوح الممكن مع مؤسّسات

ملموسة. سيكون من الصّعب على [جامعة] السّوربون أن تنظر إلى ماركس بوصفه فيلسوفا، على عكس لاشوليي وبوتروكس المتقاربين مع الكهنة.

***

ما جدوى فلسفة اليوم في النّهاية، هذه الّتي يدرّسونها في الجامعات والمدارس والّتي يضعونها في الكتب. سيقول مؤلّفوها إنّها لا تصلح لشيء ولا تخدم أحدا، ليس لها من فائدة آنيّة لكنّها تُعنى بكلّ ما هو حقيقيّ، بالإنسانية وبالرّوح. كما سيفكّرون بأنّها شأنها شأن الشّعر، لن تكون صالحة بالمعنى الضيّق للسّاسة وعموم النّاس، النّاس الّذين عليهم بعد كلّ شيء أن يبجّلوا حيواتهم على كلّ ما هو فكر نقيّ. لقد ظلّ هذا الوهم غير منفصل عن تمارين العقل حتّى يتجنّبوا تطعيمها ببعض الجدّيّة. لكن، ليس هناك سبب واحد لأن نعتقد بأنّ الفلسفة تنفلتُ اليوم من الخصائص الّتي كانت دائما من مشمولاتها، وبأنّها كفّت في الحقيقة ومنذ ظهور الثّالوث الدّيمقراطي على أن تتّخذ مواقف واضحة.

نلتقي بأناس كثر ممّن يمقتونها، لكنّهم لا يكفّون عن القول إنّها ماتت وإنّه يمكننا نسيانها دون دوافع خفيّة وإنّها لا يمكنها أن تُسعف أحدا، لكنها لم تكن لتسبّب الأذى ولو لذبابة، وإنّها التزمت نقاوتها بكلّ جلال، وإنّها لم تجابه شيئا وإنّه بإمكان البشر أن يناموا الآن بكلّ هدوء دون أن يخشوْا شيئا. صحيح أنّ الحرّاس **المتنقّلين**[91] و**لجنة الحدّادين**[92] ومزارعو المطّاط هم أكثر تهديدا للمصير الإنسانيّ مقارنة مع المناقشة [الدّائرة]

(91) . لحرّاس المتنقّلين: حرس وطنيّ فرنسيّ، يعود تأسيسه إلى سنة 1868 وهو مكلف بحراسة النّقاط الحيويّة والمدن والحدود.

(92) . جنة فرنسيّة ذات طابع نقابيّ تأسست في بداية القرن الثّامن عشر.

بالمؤتمرات الفلسفيّة وأنّ «**عشريّات بونتوني**»[93]: لهذه المؤتمرات وهذه العشريّات بعض الملامح الهزليّة وهي تميل إلى ناحية **الأندولجنتيا**[94]، فيها يكبحون إطلاق حكمهم في خصوص وجوب القضاء على السيّد **ديجاردين**[95]. الفلسفة للفلسفة. الفنّ للفنّ. هكذا يصبح السيّد **برغسون تيوفيل غوتييه**[96] الفلسفة.

لم يعد هناك مجال للاستمتاع بالحقائق، بالأمنيات من أجل نيل رضاهم. لا ينبغي التّفريط في أسلحتنا لصالح هذه الأندولجنتيا، عبر الاستسلام لذاك الهزل المغلوط.

لم تمت هذه الفلسفة [بعد]، لكن ينبغي قتلها. وليس لها من الموت سوى بعض الملامح المسالمة، ليس لها بعد جثّة في طور التّحلّل. دائما ما حدثت عمليّات القتل هذه على مدى تاريخ الفلسفة، مثلها مثل قتل السّياسة والاقتصاد إلخ... لا يمكن لفلسفة أن تنتهي تأثّرا بحركتها الخاصّة كنظام لا يموت دون أعداء. ولا يمكن للفلسفة أن تنتصر دون تدمير الفلسفة السّابقة لها، ينبغي إذن العمل على تحلّلها. هكذا كان إيمانويل كانط قد أعلن بكلّ تحمّس الثّورة البرجوازيّة:

«من أجل أن تولد الفلسفة الجديدة، على القديمة أن تنتهي... إنّ التّعفّن هو الحلّ الأكثر كمالا والّذي دائما ما يسبق بدايات منتوج جديد».

لن يحصل هذا التعفّن من تلقاء نفسه. مازالت فلسفة عصرنا على قيد

---

(93) . شربّات بونتوني: تجمّعات ثقافيّة تمّ بعثها سنة 1910 تهدف إلى فصل الكنيسة عن الدّولة.

(94) . لاندولجنتيا: الإعفاء الكامل أو الغفران الجزئي عن الخطايا وفق المعتقد الكاثوليكي.

(95) . بول ديجاردين: (1859. 1940)، مؤسّس ما يُسمى «عشربّات بونتوني».

(96) . يوفيل غوتييه: (1811. 1872)، شاعر وروائي ومسرحي فرنسيّ، معروف بشموليّة معارفة وتخصّصاته.

الحياة، لكنّها أيّ حياة؟ ما هي الوظائف الّتي تؤدّيها للحياة؟ يوجد ما يكفي من أنواع الحيوات على سطح الأرض: حياة خاصّة بالأحياء وأخرى خاصّة بالطّفيليّات. حياة للإنسان وأخرى لديدانه. إنّي لأتساءل إذا ما كان فيلسوف اليوم يعيش مثله مثل أيّ إنسان على قيد الحياة أو مثل دودة. ليس هناك سبب واحد يمنعنا من إيجاد أجوبة لمثل هذه الأسئلة.

***

دون أدنى شكّ، لم يتشكّل مذهبٌ واحد في فرنسا يتّخذ له مبادئا عامّة تعترف بمقتضيات البحث الانسانيّ، مذهبٌ يهتمّ بصيغ الاضطهاد في حدّ ذاته. كما لا وجود ولو لفلسفة واحدة تقوم بكلّ إخلاص على أساس الاعتراف بالاحتياجات الآنيّة للبرجوازيّة، فما وجود السيّد فرنسوا **بونيست**[97] والسّيّد **دو وندال**[98] إلاّ وجود مناور لا إنسانيّ. ليست البرجوازيّة بعد في مستوى يمكّنها من تجاوز التّبريرات ذات البعد الرّوحانيّ. ولا وجود ولو لأطروحة دكتوراه واحدة من الّتي تعبّر عن نضال الطّبقات ضدّ البرجوازيّة الّتي راحت تُنتج العبوديّة الصّناعيّة الاضطراريّة والكره والخوف والغضب الّذي تخلّفه البروليتاريا في صفوف البرجوازيّة.

فلاسفتُنا ليسوا بالجرأة الكافية. إذ هم لم يعلنوا بعد بأنّ رجال الدّين كانوا أعداء للمستقبل الإنسانيّ، وهم بعد لا يشكّون مجرّد الشكّ في ذلك. إنّهم حتّى لا يعبّرون عن رغبتهم الفضائحيّة ولو بينهم وبين أنفسهم بأن

(97) . أندريه فرنسوا بونسيت: (1887.1987) سياسيّ وديبلوماسيّ فرنسيّ، عضو الأكاديميا الفرنسيّة أنهى حياته كمستشار حكوميّ.

(98) . فرنسوا دو وندال: (1874.1949)، صناعي ورجل سياسة فرنسيّ، شغل خطّة رئيس لجنة الحدّادين منذ 1918.

يروْا تكاثفا في مصلحتهم على حساب إذلال الإنسانيّة وسحقها. ينبغي عليهم أن يروا أنفسهم أمام الجميع ورسميًّا بأنّهم أنصار حزب البشر. ينبغي عليهم وقد وقعوا كأوّل من يقع في الشّرك الّذي نصبته طبقتهم أن يتشبّثوا ما أمكن في معطى الاحترام.

أ لا يتحدّثون عن الحريّة والعدل والعقل وعن الحياة المشتركة؟ أ لا يضعون أبدًا في أفواههم كلمات حول الإنسانويّة والإنسانيّة؟ أ لا يعرفون بأنّ مهمّتهم تكمن في تنوير البشر ومساعدتهم؟ هكذا يبلورون ميتافيزيقا الكون حيثُ ينتصب البرجوازيّ واقفا. لقد كان هذا البرجوازيّ إنسانا لا يكفّ عن تبرير لعبته المادّية عبر استدعاء مهمّته الرّوحيّة. فالبرجوازيّ عارف تماما. فوظائفه تقتضي في بُعديْها المادّي والسّياسيّ بأن يتمّ استكمالها وضمانها عبر وظائف أخرى ذات بعد روحيّ. مدراء شركات ومدراء وعي. أدلّة في طرق مستقيمة. يعرف البرجوازيّ كلّ الأسرار، مثل ساحر. يعرف كلّ الوصفات على أنّها نور ومأوى في ذات الوقت كوسيط إلهيّ وطبيب. ليس عبثا أن ترسم البرجوازيّة النّاشئة ملامح المستبدّ المستنير: مثل **جوزيف الثّاني**[99]، **كاترين الكبيرة**[100] اللّذين يمدّانها في زمنها بالوجه الّذي تتمنّاه لكلّ ممثّليها. دائما ما كان هذا البرجوازيّ ينحني إجلالا لهذا الطّاغي الطيّب.

كان يقدّم نصائح لأناس دون إقرار، ما يعني دون تلبية ملموسة، للنّاس الّذين لا يملكون رصيدا بنكيًّا على سبيل المثال. فقد وُلد (البرجوازيّ) من أجل قيادة الّذين ولدوا في الجانب الآخر من السّياج، تهيّؤه لهذه المهمّة كلُّ

(99) . جوزيف الثّاني: (1741ـ1790)، حكم الامبراطوريّة الرّومانيّة من 1765 إلى سنة 1790.
(100) . اترين الكبيرة، أو كاترين الكبيرة: من أعظم الشّخصيّات الّتي حكمت روسيا من سنة 1762 إلى وفاتها سنة 1796.

التّربية الّتي يتلقّاها [في طفولته].

إنّه واثق من نفسه. ولا يشكّ في سلطته أو مهمّته أو ديمومته. هو يعوّل على تاريخ طبقته. فالبرجوازيّ الحقّ شخص له تاريخ، يعرفه ويحبّه. وهو كثير الاستمتاع بانعطافاته حيث يدرك المكانة الّتي كان آباؤه قد حصلوا عليها على مدى التّاريخ الكلّيّ للمجتمع. بحيويّة لا بوهن. كسادة لا كخدم. يحسّ بأنّ آباءه كما يؤكّد على ذلك المثل، عارفون من أين تُؤكل الكتفُ. عادة ما يجد البرجوازيّ الحامل للسّمة الحقيقيّة للبرجوازيّة في ذاكرته العائليّة على أثر جدّ من أجداده القدامى ممّن شغل خطّة مستشار عامّ، ضابط، مدير مكتب، رجل قانون، محام، كاتب عدل، أستاذ. فهو يدرك تماما بأنّ أسلافه كانوا على مدى أجيال كثيرة متعوّدين على الطّقوس الاجتماعيّة، حاصلين على مناصب ملموسة تدرّبه على القيادة وتضمن له طاعة التّابعين. يعرف البرجوازيّ كيف يقود وكيف يوجّه بالوراثة. يعرف كيف يخاطب الخدم والحشم. كلّ كلمات القيادة، كلّ الحكمة، كلّ النّصائح الفعّالة هي من تلك الأمور اليسيرة لديه، من الأمور الّتي تكوّن ميراثه الرّوحيّ. إنّه يسوس ويقنع ويحذّر. إنّه ينتمي فعليًّا «للطبقات الحاكمة».

كما يشعر أيضا بأنّه يحمل وزر الأرواح، فيحتاج أفراد الشّعب إليه حتّى يحسنوا التّصرّف في العالم، حتّى يتجنّبوا الآلام الّتي قد تصيبهم والّتي يشتبه البرجوازيّ بها بكلّ ضبابيّة. هو مستشار إذن هو حام للحمى، هو ميّال للفيلنثروبيا[101]. فهو ينشئ مراكز للصّحّة أو محاضنا [للرّضّع]. الشّهامة تقتضي ذلك. [صفة] البرجوازيّة أيضا. إنّه ملزم بفعل كلّ ما

(101). الفيلنثروبيا: كلمة من أصل يوناني وتعني العمل الخيري الّذي يهدف إلى مساعدة النّاس.

ينبغي فعله لفائدة النّاس الّذين هم أقلّ شأنا منه: هذه المهمّة، هذه المسؤوليّة الّتي يلتزم بها ما هي إلّا قفا سلطته وقيادته.

يعرف البرجوازيّ بأنّه الوحيد المخوّل لقيادة البشر: أ ليْسوا بعد أقليّة بالنّسبة إليه؟ فهو يتظاهر بمعاملة عامّة الشّعب كما يعامل أبناءه، فهو يلقّنهم ويحذّرهم ويسعفهم، هذا لأنّه من الواضح أنّ هذا الشّعب ليس قادرا على الأخذ بزمام حياته ومصيره بنفسه. عندما يعاقب الشّعب فهو يعاقبه كما يعاقب ابنه الخاصّ، لمصلحته. وهو يقول: الّذي يحبّ كثيرًا يعاقب كثيرًا. أمّا قتلى المنطقة فقد قُتلوا لفائدة الشّعب. لذلك ينتظر منهم شهادات امتنان أو ببساطة كلّ الطّاعة. وهكذا يحكم على ثورة الشّعب على أنّها تعبير عن الجحود.

صحيح بأنّه جاء وقتٌ تلاءمت فيه مؤسّسات البرجوازيّة مع مؤسّسات الطّبقات الّتي كان عليه استغلالها هي الأخرى، فقد تمكّنت الثّورة الفرنسيّة من نشر اعتقاد منطقيّ في ظاهره مفاده أنّها تعمل لفائدة الشّعب. مازالت البرجوازيّة تحمل نفس هذا الاعتقاد. هذا لأنّ تاريخها كان دائما حافلا بمحفّزات وبحماسة متناهية فرضتها الضّرورة الواقعيّة من أجل كسب حلفاء لها، وقد علِقَ لديها هذا الوهم الّذي مفاده أنّها الوحيدة الّتي تعمل من أجل المصلحة العامّة.

تعلنُ هذه الوضعيّة الفكريّة البرجوازيّة عن نفسها بقوّة وحساسيّة جديدتيْن، تعتملان داخل عقل المفكّر المختصّ. تتجسّد هذه البرجوازيّة الحامية من خلال مفكّريها. وتؤكّد كبرياء رجال الدّين لتغذّي الكبرياء المشتركة للبرجوازيّين.

إنّ النّاسَ المتعوّدين على نوعيّة ما من الأنشطة المرتبطة بأفكار منفصلة

عن سياقهم لا يروْن من التّاريخ سوى [ما يشبه] اللّعب ذا القدرات الرّوحيّة والّذي سنّه أشباههم. فتلتبس المهمّة العامّة للبرجوازيّة بلبوس المظاهر الكبرى للفكر الخالص. ففي الوهم حيثُ يقيمون، يبدو الفكر ما يقود العالم فيتداخل مع الفكرة الّتي مفادها أنّ حاملي الأفكار وحدهم آليّاتٌ للتّقدّم. هذا ما يجعلنا ننغمس في التّاريخ. وهذا ما يجعل من الصّوت الّذي سمعناه بوضوح قبْلَ السّيّد برنشفيك صوتا طالما تردّد في ماضي الفلسفة البرجوازيّة. ففي زمن لويس الرّابع عشر كان فولتير رسولا باسم التّحرّر البرجوازيّ، فقد كان يقول:

«نحن مدينون بهذا التّقدّم لبعض الحُكَماء، لبعض العباقرة المنتشرين على شكل مجموعات قليلة... كانوا تقريبا في غمار الظّلام طوال الوقت وكانوا مضطهَدين: لقد أناروا وواسوا الأرض عندما كانت الحروب تهدّدها». ليقول سان سيمون[102] لاحقا:

«ينصّب الفيلسوفُ نفسَه في قمّة الفكر: من هناك فقط يمكنه أن يدرك ماذا كان العالمُ وماذا عليه أن يصبح. إنّه ليس مجرّد ملاحظ بل هو فاعل من الدّرجة الأولى في العالم المعنويّ، هذا لأنّ على مواقفه من العالم أن تعدّل من شؤون المجتمع الإنسانيّ».

هكذا يعتقد فيلسوف البرجوازيّة بأنّه في وضعيّة تسمح له بصنع سعادة الإنسانيّة. هكذا يتحقّق لديه بذلك الجزء الكبير ممّا هو [في الأصل] موكول لرجال الدّين. ستسير هذه التّأكيدات وفق رسالتهم، فينزل الفلاسفة على سطح الأرض ويلتقون بالبشر لينسوا الإنسان، لن يهنؤوا

(102). هنري دو سان سيمون (1760. 1825): فيلسوف فرنسيّ يدعو إلى تدخّل الدّولة في الحياة الاقتصادية كما دعا للاهتمام بالصّناعة وإلى أهمية الحياة البرلمانيّة في الاقتصاد. يُعتبر من أهمّ روّاد الثّورة الصّناعية. من أعماله: «رسائل أحد سكّان جنيف لمعاصريه من النّظام الصّناعي...».

أكثر بالتّفكير في كنف السّلام وهم [جالسون] أمام مكاتبهم، في الصّمت البرّاق لمكتبة فيكتور ــ كوزان[103]، مركّزين على أفكار مرصوفة في هامش الحيوات الّتي يعيشها البشر عاطفيًّا. بل هم عاجزون بكلّ ما تعنيه الكلمة عن وضع البرنامج الّذي توكله كبريائهم لهم بصفة مجرّدة، كبرياؤهم ووضعيّتهم الموروثتان. دائما ما يتخلّون عن تدخّلاتهم لحساب رفضهم للهبوط في العالم الفظّ حيث نعيشُ ــ حيث نعيش عيشة ضنكة. هذا الغياب [أضف إليه] الشّعور بأنّ وجهة القضايا الإنسانيّة الاضطراريّة هما ما يمثّلان المعطى حيث تُسجَنُ الفلسفة البرجوازيّة.

إنّ الفلاسفة لفي تمام الرّضى. فهؤلاء النّاس هم إفراز الدّيمقراطيّة البرجوازيّة، وهم يؤلّفون بكلّ اعتراف بالجميل كلّ الأساطير الّتي تحتاجُها [طبقتهم]: فهم يعملون على دفع هذه الفلسفة الدّيمقراطيّة. فهذا النّظام يبدو لهم الأفضل على الاطلاق وفي كلّ العوالم المُمكنة. من الصّعب عليهم أن يتوقّعوا نظاما آخر مُمكنا في عوالم أخرى ممكنة - وهو رضى بعيد على أن يكون متأتّيًا من مقارنة وخيار واعييْن. ها هنا تتربّص بنا نهاية التّاريخ البشريّ: فالتّأمّلات المعدودة الّتي وصلت حدّها، ديكارت، روسّو وكانط الّذين عايشوا الاكتشافات الكبرى التّامّة، القارّات الّتي تمّ اكتشافها، الثّورات الّتي وصلت نهايتها، كلّ التّكالب على بلوغ كمال الدّيمقراطيّة، هم إذن متأكّدون بأنّهم يعيشون تمام التّفكير وثرائه، تمام التّعليم وأطيب العيش فيما قد يسمّونه بكلّ طواعيّة «المجتمع الاجتماعيّ بامتياز». كما أثبت السيّد «بوغلي» وبرّر من أعلى اكتمال سيسيولوجيا

(103). مكتبة فيكتور ـ كوزان: الاسم القديم للمكتبة التّابعة لجامعة السّوربون وقد كانت تحمل هذا الاسم نسبة للفيلسوف «فيكتور ـ كوزان» (1792. 1867) وهو باعث الفلسفة الانتقائيّة وصاحب القولة الشّهيرة «المذاهب صادقة فيما تُثبتُه وكاذبة فيما تنتقيه».

معلّمه دوركهايم تطوّرَ الأفكار الدّاعية للمساواة وهو ينصّبها فوق العلم فيذبل تمام الذّبول نظامُ الطّوائف حيث لم يكن لآبائه ولا له شخصيًّا أن يحصلوا على مكانة بتلك الرّفاهيّة. إنّهم يرسمون جميعا ذاك القوس الشّهير والسّعيد الّذي ينطلق من الحكيم القديم ليصل إلى قلب المواطن. مع ذلك، وإذا ما كان الفلاسفة الّذين أحدّثكم عنهم مقتنعين بنجاح نهائيّ للعقل الّذي يقودهم، إذا كانوا متأكّدين من شروط التّطوّر الانسانيّ الّتي قد تحقّقت بصفة نهائيّة، فهم يُثبتون بذلك الحقيقة المتمثّلة في أنّ هذا النّجاح وهذا التطّور ليسا مضمونيْن بالمرّة. إنّ الرّضى الّذي يكتنف وضعيّتهم وطمأنينة عطلهم الطّويلة الّتي حصلوا عليها [هو رضى] يتورّط في القتامة الصّادرة عن مهمّتهم الشّبه الكنسيّة، وهي الوحيدة الّتي لن تبلغ تمامها. فالرّفاهية وغياب الحيرة حيث يعيشون بأنفسهم وحالة التّوازن الّتي يلمحونها مباشرة حيثما توجّهوا والمصير الّذي يقتضي امتلاك كلّ شيء من أجل نجاعة طبقتهم وهو ما لن يمكّنهم من النّجاة تماما من أن يُصابوا ببعض الضّجيج السّاخط، ببعض التّعاسة والقلق، مهما كانوا في معزل من أحداث فظّة ومهينة تلك الّتي تشكّل التّاريخ الخاصّ بالبشر اللاّبرجوازيّين، لا يمكن أن يكونوا لا يقرؤون الجرائد. هم يعرفون ولو قليلا وبشكل غامض وعامّ بأنّه توجد كائنات فقيرة ومتعبة، وفي صدورهم تعتمل ثورة بسبب هذا الفقر وهذا التّعب. هم يصغون إلى أحاديث عن إضرابات ما. عن أعمالِ شغب، عن انتحارات. وهم أيضا يتوقّعون بأنّه يمكن لحيرة العالم أن تنقلب في يوم من الأيام ضدّ الأريحيّة الّتي يحبّون، يمكن أن توضع مقدرتها في الميزان. وهم يتوقّعون بأنّه يمكن لشعب ثائر أن يهدّد كلّ ما بين أيديهم من مهمّات متمثّلة في إثبات وحماية

حرّية تأمّلهم، جماليّة أفكارهم الّتي يبلورونها ولوحاتهم الفنّية الّتي يتعجّبون أمام جمالها. تماسك مداخيلهم. ديمومة ميراثهم الّذي يريدون نقله لأبنائهم. لهذا فقط هم دائما ما يعودون على وعودهم ونصائحهم الجيّدة. ولهذا أيضا يعاودون في كلّ مرّة تبرير وجودهم ومهنتهم الّتي تتمثّل في التّعليق على الكلمات المفاتيح الخاصّة بفلسفة طبقتهم. ويثيرون نفس النّقاش حول تطوّرات وقدرات وارتقاء العقل. كما لا يكفّون كأنبياء عن إعلان التّطوّر السّلميّ للوعي والثّراء الرّوحيّ للفرد الانسانيّ وعن تحقيق العدالة في داخل الإنسان وبالتّالي في عمق المجتمع الإنسانيّ. إنّهم رعاة أمل لكن في منابعه الّتي تبدو لهم أكثر قربا وسهولة. هكذا استنتج السيّد برنشفيك في خربشته الخاصّة، تطوّرَ الوعي في الفلسفة الغربيّة، هذا الكتاب المقدّس الفلسفيّ ذي البعد الكونيّ حيثُ يبدو كلّ شيء على ما يرام وسينتهي على ما يرام:

«لمواجهة المخاطر الّتي هي اليوم أكثر تهديدا للمستقبل الأرضيّ، وحتّى لا نُعيد صياغة تاريخها من أوّله، ينبغي تأمّل الدّرس بكلّ جديّة هذه المرّة، وأن نعرف كيف ننقل الحساسيّة إلى مجال الحياة المعنويّة الدّينيّة، أن نجعل منها تحدّيًا حقيقيًّا ومتناهي الدّقّة، هذه الحساسيّة الّتي نمّت في الانسان تأثّرا بتطوّر الوعي بوصفه نتيجة أعلى قيمة وأكثر ندرة على مرّ الحضارة الغربيّة. إنّ الحقيقة تحرّرُنا لكن بشرط وحيد متمثّل في أن تكون هذه الحقيقة متلائمة مع الواقع».

لكنّ هذه الكلمات لا تنطوي على أيّ حقيقة ملموسة، ولا تترجم ولو التزاما واقعيًّا واحدا، ولا تقدّم ولو وسيلة واحدة للخلاص، هذا لأنّهم يستهدفون شيئا آخر عدا الأفكار، وببساطة أكثر هم يستهدفون فكرة

السّعادة، فكرة الحرّية بوصفها متّصلة بفكرة الإنسان. لكنّهم لا يستهدفون السّعادة والحرّية الأرضيّتين المتعلّقتين برجل معيّن وبامرأة معيّنة. يعلن هؤلاء الحكماء عن تجسيد الأفكار الّتي أورثها إيّاهم آباؤهم: لا ينبغي مجرّد الشّك فيها: فهذه أكيدة، متأتّية من طبيعة العقل ومن سير التّاريخ. من فكرة العقل. من فكرة التّاريخ. كما لا يطرح أنبياء التّطوّر الرّوحيّ والاجتماعيّ هؤلاء أسئلةً إلاّ في علاقة بالأفكار المطلقة.

لا ينبغي تعرية حقيقة العالم. فهم يحيكون هجماتهم في حماية الأبديّة بصفتهم حلفاء أوفياء في الاضطهاد. إذ لديهم جميعا هذه الأوهام الّتي يتمنّون اقتسامها مع أولئك الّذين لا يملكونها البتّة بطبعهم أو منذ ولادتهم.

تتصلب بدواخلهم ثقة صلبة لا تهتزّ لأعتى الكوارث في كلّ ما يتعلّق بقيمة ومستقبل فكرهم: فالكوارثُ تحوك حيَلها من أجل مزيد مجد هذا الفكر. يعرِفُ «**بانغلوس**»[104] هذه الحيَل تمام المعرفة. وهو غير سعيد بذلك ويعلن هذا الأمر بكلّ صراحة، لذلك [يتّهمُونه] بالخيانة. إنّ شكل فكرهم وحتّى شكل مجتمعهم غير قادر للخضوع للسّؤال: تكمن كلّ جرأة فلسفتهم في تحديد [مفهوم] المجتمع البشريّ وكلّ المجتمعات البشريّة الأخرى الممكنة بما في ذلك المجتمع البرجوازيّ وفي تحديد الفكر الانسانيّ وكلّ الفكر الانسانيّ الممكن بما في ذلك الفكر البرجوازيّ. الأخلاق الانسانيّة في مقابل الأخلاق البرجوازيّة. لذلك سيُؤخذ كلّ

(104) . **بانغلوس**: كلمة من أصل إغريقي وتعني «القادر على التّحدّث بكلّ اللّغات». وهو شخصيّة الفيلسوف في رواية فولتير الفلسفيّة «كانديد» (1759)، وتقوم هذه الفلسفة على مبدأ التّفاؤل. لا يكفّ «بانغلوس» عن تكرار هذه الجملة: «كلّ شيء للحصول على الأفضل الممكن». وهي فلسفة مبلورة أساسا للسّخرية من لايبنيتز.

تهجّم على المجتمع والأخلاق البرجوازيّيْن على أنّه تهجّم ضدّ المجتمع في عمومه، وضدّ الفكر والأخلاق الانسانيّة. عندما يقاوم الفكر البرجوازيّ الثّورةَ، فهو يتظاهر ويعتقد بأنّه يدافع عن المجتمع الانسانيّ ضد هذه العنف والانحرافات البربريّة. لم يعلن السّيّد برنشفيك عن كرهه للعمّال الّذين يعرّضون النّظام الاجتماعيّ العامّ للخطر لكنّه قال فقط إنّ ماركس قد دمّر العقل [الانسانيّ] الّذي يتوجّب علينا التّمسّك به. بما أنّ هذه الفلسفة في كلّيتها بكلّ ما لها من احتجاجات روحيّة هي ترجمة بسيطة لقبول عامّ للعالم الّذي هو عالمها، فالفلاسفة يقولون إنّ كلّ الّذين لا يوافقون عليها إنّما هم أعداء للتّطوّر وللرّوح وللعقل. فوحوش الفكر البرجوازيّ هؤلاء موسومون بأكثر من عنوان، ويتجسّدون عبر أكثر من رمز.

***

أمّا من ناحية أخرى، لم يتمّ الإيفاء بكلّ هذه الوعود الفلسفيّة مطلقا. أبدًا، لم يهتمّ الفلاسفة فعليًّا بالبشر. وهذا السّؤال ليس بالسّهل على الإطلاق. إذ تتطلّب الاستقالة العمليّة للفلسفة تدقيقا أكثر تعقيدا من الفحص الّذي ليس له من نهاية سوى التّأسيس [لمنطق] الشّتيمة: يتوفّر أكثر من سبب لعدم الخوض في كلّ الشّيمات الإنسانيّة.

يمكن ألاّ نخوض فيها لأنّنا نجهلها، لكنّهم [لا يخوضون فيها] إلاّ لأنّهم هنا حرفيّا كما لو أنّهم ليسوا كذلك، إذا لم يكن السّيّد لالاند يتعامل مع الآثار النّفسيّة والأخلاقيّة للعمل المتسلسل على أنّه عبارة عن صور مركّبة (مونتاج)، فمن الممكن أن نتخيّل ــ وهذا لمصلحته ــ بأنّه لا يعرفُ ذلك، بأنّه لا يملك أدنى فكرة عن ذلك.

لن تتمكّن تأمّلاته من التّوالد داخله انطلاقا من أشياء غريبة عن يوميّاته. فلا يمكن للقاطرات أن تُزعج سحرة الاسكيمو. كيف لأناس مشابهين أن يخرجوا [سالمين] من فلسفتهم هذه؟ أن يتراجعوا عن رفضهم، أن يعكسوا فجأة المعنى الّذي تعوّدوا على تقليب فكرهم داخله؟ إنّه من الصّعب علينا تبيّن أسباب كافية وراء تحوّلهم هذا، ولن تتمكّن نبوءة واحدة من تخمينها.

هم برجوازيّون وهم مفكّرون. وكانوا قد باعدوا بكلّ قسوة ما بين أفكارهم البرجوازيّة وأفكارهم الخاصّة وبين الآخرين ممّن هم لم يعودوا مستعدّين لطرح مزيد من الإشكاليّات البرجوازيّة. هذا التّباعد وهذه الفجوة هما في غاية السّذاجة: لهم حياتهم البرجوازيّة ولم يكن بحوزتهم سبب للخروج. لذلك ظلّوا هناك حيث وضعتهم الأقدار. لا أرى لماذا سيعتنق السيّد برنشفيك حزب عامّة النّاس متخلّيا عن مثيله البرجوازيّ. إنّه يتمتّع بحدّة بصيرة وهو يعترف بالثّمن الّذي يدفعه مقابل رفاهيّته. بحوزتنا هذه الثّروة الهائلة الّتي راح هذا «**الديوجانس اللاّيرتي**»[105] الجديد يعتني بها من أجل تجميل حياته الخاصّة.

لقد تلقّى تعليمه في «كوندرسيت»[106]، سمع ذات يوم عن سبينوزا فرسم خطّة محكمة للتّعرّف عليه أكثر، وهو بعد في عمر العبث. كان من بين أصدقائه «إيلي هاليفي»[107] و«كزافييه ليون»[108]. يوم الأحد صباحا

---

(105) . يوجانس اللاّيرتي: كاتب إغريقي عاش بالقرن الثّالث ميلادي، يُعتبر من أشهر فلاسفة تلك الحقبة، له كتاب مترجم إلى العربيّة تحت عنوان «مختصر تراجم مشاهير الفلاسفة».

(106) . وندرسيت: محافظة فرنسيّة تابعة لإقليم الدّروم بجنوب شرق فرنسا.

(107) . يلي هاليفي: (1870 . 1937)، فيلسوف ومؤرّخ ليبيرالي فرنسي مختصّ في المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى.

(108) . زافييه ليون: (1868. 1935)، فيلسوف فرنسيّ، مؤسّس مجلّة الميتافيزيقا والأخلاق.

وفي غابة بولونيا الّتي كان يزورها في طفولته ليجلس إلى جانب حوذيّ عجوز من أقاربه، هناك قرّر مع [الأصدقاء] تأسيس «مجلّة الميتافيزيقا والأخلاق [109] وهو ما تمّ فعلا. كان لودوفيك هاليفي»[110] يعامل هذا المراهق الموهوب كابْنٍ له. وبفضله تمكّن ليون برنشفيك من الوصول إلى «جريارد»[111] و«بريفوست بارادول»[112]. اتّجه منذ يوم الأربعاء لحضور حفلات السيّدة «دو كالفيت»[113] حيثُ التقى برونان[114] ولومتر[115] ولوكونت دي ليسلي[116] وفرانس[117]. حوالي سنة 1884، تعرّف على مارسيل بروست وهو يتمشّى في شوارع الشّانزليزيه. ثمّ أصبح أستاذا، وألّفَ كتبا، وفكّر في «ظروف تُعتبَر اليوم استثنائيّة تقريبا مثل الصّحة والتّرفيه والاستقلال». وانصياعا للنّصائح الّتي زوّد بها السيّد لوبّيك[118] السيّد برنشفيك ذا النّمش والّذي لم يؤلّف من الكتب إلاّ تلك الّتي يريد

---

(109) .مجلّة الميتافيزيقا والأخلاق: مجلّة فلسفيّة تأسست سنة 1893 من طرف مجموع من الفلاسفة وعلى رأسهم أستاذ الفلسفة «ألفونس دارلو» (1849. 1921)، من بين هؤلاء الفلاسفة الّذين درسوا في معهد كوندرسيت: كزافييه ليون، ليون برنشوفيتش، إيلي هاليفي، لويس كوتورات، ماكسمليان وينتر... مازالت هذه المجلّة تصدر إلى يومنا هذا وبشرف عليها برنارد بورجوا وتقوم على طباعتها مؤسّسة الصّحافة الجامعيّة الفرنسيّة.

(110). لودوفيك هاليفي: والد الفيلسوف إيلي هاليفي.

(111) . أوكتاف جريارد: (1828. 1904)، بيداغوجي فرنسيّ كبير وجامعي ذائع الصّيت، تمّ تكريمه بإطلاق اسمه على إحدى أبواب جامعة السّوربون.

(112). لوسيان بريفوست بارادول (1829. 1870)، صحفيّ وكاتب وديبلوماسيّ فرنسيّ، تولّى منصب سفير فرنسا بالولايات المتّحدة الأمريكيّة. مات منتحرا بعيار ناريّ وهو في الأربعين من عمره متأثّرا بأجواء الحرب الفرنسيّة البروسيّة الّتي اشتعلت سنة 1879.

(113). السيّدة دو كالفيت (1844. 1910)، سيّدة فرنسيّة من أصل يهوديّ، صاحبة صالون كانت تجمع فيه الأعيان والمثقّفين والفنّانين، وهو موديل لشخصيّة «مدام فاردورين» في رواية مارسيل بروست «البحث عن الزّمن الضّائع».

(114) . رنست رونان (1823. 1892)، كاتب وفيلسوف ومؤرّخ فرنسيّ، من أنصار نظرية التطوّر الدروينيّة.

(115) . ورج لومتر (1894. 1966)، عالم فلك وكاهن كاثوليكي فرنسيّ وهو أوّل من أطلق نظريّة «الانفجار العظيم» وقد أسماه حينها «افتراض الذرّة الأوليّة».

(116) . وكونت دي ليسلي (1818. 1894)، شاعر ومترجم وكاتب وناقد، كان عضوا في أكاديميّة اللغة الفرنسيّة.

(117) . أناتول فرانس (1844. 1924)، روائيّ وناقد فرنسيّ، معروف بقوّة خياله الّذي استغلّه في قصصه ورواياته الكثيرة منها «جوكاست والهرم الهزيل، صدفة للّؤلؤ، الزّنبقة الحمراء، صورة الملائكة الخ...».

(118) . ويس لوبّيك (1765. 1828)، جنيرال فرنسيّ للثّورة الفرنسيّة وقبلها للإمبراطورية.

قراءتها. ثمّ اتّبع أخدودا طويلا، أثبت نفسه، ليشعر بأنّه شيّد صرحا فلسفيّا. إنّه محارب [حقيقيّ]. فهو من أكاديميّة العلوم الأخلاقيّة، يتحدّث في هولندا عن سبينوزا. وإنّه مذكور في الدّليل الخاصّ بالبارزين اجتماعيّا. يقيمُ في نُزل خاصّ، ترافقه أعمال فنّيّة. يا للمهنة السّعيدة. رغم الحرب. من دونها، سيميل للاعتقاد بأنّ جيله يمثّل «إحدى أكثر الأجيال الانسانيّة تميّزا»، لقد أحسن التصرّف ليحظى بحياة رائقة اجتماعيّا: حاضر في الجامعة الشّعبيّة بِرُوَانْ[119] ـــ إذ ينبغي تنوير الشّعب. قال يوما:

«إذا ما كان الفلاسفة يميلون للجامعة الشّعبيّة فلأنّهم يجدون في حرمها مثاليّة الحياة الرّوحيّة واقعا ملموسا».

ما رأي عمّال الميناء في ذات المدينة «رُوان»، ما قول عمّال مدينة ماروم[120]؟

بعد ذلك، درس جنبا إلى جنب مع السّادة: بولوت، بارودي، دروان، بيكوت، القسّ روبارتي، الحاخام ليفي، الأب دومونت ودرّس الأخلاق الطّيبة للسيّدات الرفيعات من اللّواتي لهنّ وزنهنّ في شارع آميوت. وقد تلقّى مقابل هذه **الفيلتروبّيا** الّتي ندرك جيّدا قيمتها من منظور الحرّية الانسانيّة هدايا كثيرة، سكّريّة من ساكسونيا، تمثالا من البرونز لمريم العذراء...

لذلك، لا نرى ما يكفي، الأسبابَ الّتي كان على السيّد برنشفيك أن يمتلك حتّى ينكبّ على أفكار بتلك الخطورة.

ليست هذه الحياة [الّتي يعيشها] مأساويّة ولا صعبة، ولا يمكن لها أن

---

(119) . **روان**: مدينة فرنسيّة تقع في شمال غرب البلاد وهي العاصمة التّاريخيّة للنّورماندي.
(120) . **ماروم**: محافظة فرنسيّة تابعة للسّين البحريّة.

تطرح الاشكاليّات الأكثر جدّيّة. لن نتمكّن من إلقاء اللّوم على الرّجل الّذي يعيش مثل هذه الحياة، والّذي قاده نمطها إلى حيث هو الآن، حيث لا يمكن له أن يفكّر في الدّفاع عن البشر الّذين لا يمكنهم ولو اللّعب في الشّانزيليزيه.

***

إنّه لمن المستحيل على هذه الحياة البرجوازيّة أن تتّجه مباشرة للمشكل الفظّ. فهي بالكاد قادرة على طرحه. وهي لا تنتج سوى معرفة مرتكزة على الإشاعة السّمعيّة «سمعتهم يقولون»، معرفة فقيرة فقرا من الدّرجة الأولى. إنّها حياة لا تضع الفيلسوف بأيّ حال من الأحوال قبالة الضّرورة وقبالة حيرته وثقلها. إنّها [معرفة] لا تبحث على مجرّد امتلاكه، فهي تتّسع بكلّ سلبيّة لحضوره بالغياب.

***

لكن، يمكن أن تكون متجنّبة لكلّ ذلك عمدا وليس لعدم معرفة ولنقص في المعلومات، قد تكون تعمّدت عدم جلب تلك الأسئلة الجادّة لحلبة لعبتها. وربّما هي تخشى أن تنجرف بمياه خطرة لذلك خيّرت الهدوء في ممارستها للفكر. وهي على ذلك كلّها تعاني من بعض الخجل. فلا تتجرّأ على الذّهاب بعيدا للبحث هناك حيث تتجمّع اشكاليّات قادرة على هزّ مضجعها. على تعريض فعّاليتها للفشل. هذا لأنّها تشعر بأنّ هذه الاشكاليّات مطروحة على طاولة الحوار في مكان ما... في الأحياء [الشّعبيّة] حيث لا يقيم الفلاسفة. في البلدان التّي لا يدرّسون فيها الحكمة. فالسيّد باندا يقيّم زملاءه انطلاقا من عمق المطلق الّذي هو ربّما أقلّ ريبة من ريبة هؤلاء الفلاسفة الّذين يخشون الارتطام بالأفكار

الخطيرة. يعرف إيمانويل بارل[121] ذلك بدوره. إنّ زماننا لمِن تلك الحِقَب الّتي بلا وزن حيث يتطلّب الفكريّ الإنسانيّ أكثر من الفكر في حدّ ذاته. إذ كلّ من يجرؤ اليوم على التّفكير في الإنسان سيفكرّ بشكل خطر بالضّرورة: هذا لأنّ كلّ فكرة إنسانيّة ستمرّ حتما على النّظام بأكمله الّذي يرزح بثقله فوق حيواتنا.

إنّ الفكر البرجوازيّ والفلسفة البرجوازيّة أيضا لهما إذن متّهمان بالابتعاد عن الإشكاليّات الملموسة، هذا لأنّها [إشكاليّات] محيّرة، مع أنّهما دائما ما يدّعيان أنّهما قادران على حلّها استعانة من استلهامهما من الإيمان. بالطّبع، يمكن للفلسفة أن تمتنع عن الخوض في المواضيع الخطرة مدّعية أنّها مواضيع غير قابلة للتّبسيط أو هي بعيدة عن مرمى الفكر وأنّ الإنسانيّة مجبرة في بعض الأحيان على القبول بالكوارث الّتي قد تعيشها وقد تطرح إشكاليّات ما. فالعدل [مطلوب] إلاّ في الأعمال الشّاقة، الحرّية، إلاّ في العهر أو في العمل المتسلسل. لكن كيف لهم الاكتفاء بمثل بقايا الأسئلة هذه المحضورة عن الذّكاء الانسانيّ؟ إنّ هذا العجز لَكَفِيلٌ بأن يقضيَ على فكرهم وعلى قدراتهم الرّوحيّة، مع أنّه من الصّعب عليهم الاعتراف بمثل هذه النّقاط وبأنّهم على وشك الإخفاق. سيكون عليهم إذن أن يلزموا الصّمت وليدّعوا أنّهم ليسوا كذلك. لهم أن يتركوا الأشياء تتداعى ليقولوا إنّ المهمّ هو امتلاكهم لطريقة عامة ملائمة للإنسان، إذا ما اكتسبها فسيتمكّن من حلّ كلّ الإشكاليّات ومن فهم كلّ القضايا، لاحقا، في يوم من الأيام. سيتمكّن من تأمّل كلّ العلوم ومن امتلاك كلّ القصص. حتّى وإن كان ذلك في لحظات الموت. هذا لأنّ الأمر يتطلّب

(121) . أيمانوال بارل (1892. 1976)، صحفيّ ومؤرّخ وكاتب مقالات فرنسيّ، له مؤلّفات عديدة حول نقد الفكر البرجوازيّ منها كتابه الشّهير «موت الفكر البرجوازي»1929 و«موت الأخلاق البرجوازيّة»1930.

سنوات من العمل من أجل بلورة هذا الشّكل، ومن أجل السّيطرة عليه تماما ومن أجل اكتساب ما يكفي من دراسات نقديّة ومن قراءات وتقديمات مطوّلة ومن تدريبات روحيّة ومن كم وصيّة تمهيديّة مفادها أنّ لحظة التّطبيق لن تأتي أبدًا، وأنّ لحظة طرح الموضوع تبقى دائما ملفوظة خارج تلك الاستعدادات، وأنّه لن يبقى سوى مباركة أفلاطونيّة لقدرات المنهج، ولأسرار العقل. هم يحلمون جميعا بما لا أعرف من العلوم، وبما لا أعرف من خصيصة كونيّة: يا للخفّة الّتي كان عليها ديكارت عندما تجرّأ على تطبيق منهجه.

هم تقريبا أكثر نقاء من السيّد «**تاست**» حيث تكمن كلّ القوّة في عدم اقتراف ولو خطوة واحدة فعليّة في اتّجاه التّفكير، خطوة واحدة في اتّجاه الفعل. أبدًا، لم يكونوا قادرين على بلوغ المناطق الخطرة، ولا قادرين على مواجهة ولو سؤالا إنسانيّا واحدًا مباشرة ولا وضعيّة خاصّة واحدة. إنّه السّؤال الّذي وجب الحسم فيه، وهي الوضعيّة الّتي تستوجبُ الحلّ، هنا وعلى الفور. لكنّهم يحبّون الحرّية مجرّدةً وكانوا قد شيّدوا «**سكولاستيكا**»[122] [لتدريس] الحرّيّة، لكنّهم يشيحون بأعينهم عن [معابد] عذراوات العالم حيثُ يتمّ اجترار خراب الحرّيّة فعليّا. وهم يحوّلون كلّ النّقاشات إلى عالم شديد النّقاوة وإلى سماء متناهية الطّهارة، حيث لا أحد يمكن أن يتعرّض لمجرّد تلويث يديه، وإنّهم يطلقون على هذا التّطهّر اسم «فلسفة».

مكتبة
t.me/soramnqraa

***

(122) . **سكولاستيكا**: نوع من المدارس الّتي انتشرت في أوروبّا خلال القرون الوسطى ومهمّتها تدريس الفلسفة وفق نموذج مسيحيّ لاهوتيّ.

لا شكّ وأنّ الفيلسوف يقول إنّ الأمور الاستثنائيّة والقاسية الّتي شهدها كالحرب والدّعارة والعمل في المصانع الكيميائيّة وفي عمق المناجم ليست موادّ للفلسفة، وإنّ القوانين الّتي تحكم هذه الأمور تمنع للأسف الخوض فيها. لكن وجب الاستمرار [رغم ذلك]. هذا لأنّ الموضوع الفلسفيّ هو موضوع خطر بطبعه، وأقصد الموضوع ذاته الّذي لا يريد الفلاسفة الحسم فيه ولا تحديد ماهيّته ولا إدانته، هذا لأنّ أيّ قرار من هذه القرارات ستجرّهم بعيدا. لتجعل تراجعهم شبه مستحيل! سيكون من السّهل عليهم عدم المساس بهذه المواضيع الخطرة، والعمل بكلّ بساطة على القيام بتلميع أخير للأداة الجميلة والكونيّة الّتي هي العقل! ومن ثمّ يحين موعد الاستراحة في كنف الهدوء، في نصف غفوة سعيدة وملائمة حيث سيتمكّن العقل من إعادة ترتيب كلّ شيء، لكن أين ستتوقّف مملكة المادّة الفلسفيّة فعليّا؟ ها هنا نصطدم بالإشكاليّة القديمة لبارمينيدس: أ ليْس الزّغبُ والقذارة والوحل بأشياء فيها ما يكفي من النّبل؟ تدور الأمور وكأنّه توجدُ موادّ مميّزة فلسفيّا وأخرى فظّة فلسفيّا، كما لو أنّه من الفحش والسّخف أن نتحدّث حول المستعمرات [مثلا].

بما أنّ دراما الرّوح ستكون أكثر وضوحا إذا ما قبِلَ البرجوازيّون ومن تبِعهم من رجال الدّين الخلّص في العلن ودون حيَلٍ تُذكر المصائبَ الّتي لم يعيشوها مطلقا والإفراط الّذي يعيشون في لجّه. إذا ما أعلنوا عن أهدافهم بتلك الصّراحة الّتي هي من ضمن أهداف الثّورة نفسها والّتي لا تكفّ عن تهديدهم.

ليس الوعي الطّبقيّ لدى البرجوازيّة وعيًا حادّ بإجماع: إذ مازال بعد مجرّد وعي محدود وغامض. ولن يتمكّن من تجاوز بعض الأقنعة. كما هو

بعدُ ساعٍ لأن يكون مبرَّرا من ناحية العقل والأخلاق، في أعين العالم وفي أعينهم هم أنفسهم. ينبغي رؤية البرجوازيّة نهاية بأنّها لا تمتثل في كلّيتها لنظام وهي عارفة بلا إنسانيّته وبأنّه ضروريّ من أجل إحكام سيطرتها لكنّها [تمتثل] لنظام تعتقد بأنّه عادل. يحدث وأن نجد بعض البرجوازيّين ممّن هم منزعجون من قسوة الواقع الاستعماريّ، فيشعرون بأنّ الّذين راحوا ضحايا للعمل الشّاقّ ولقصف القرى في تونكين[123] لم يكن من الممكن الدّفاع عنهم. وقد يحدثُ أيضا أن يخفّفوا عن ضمائرهم بمقابل زهيد وذلك عبر عرائض متوسّلة لرحمة السّلط. لكن كيف يمكن الوصول إلى أقصى مثل هذه الأفكار؟ إلى مثل هذه التّخطيطات الانتقاميّة، إلى الثّورة؟ لن يتمكّنوا من الوصول إلى غاية الرّفض الرّاديكاليّ الّذي من شأنه أن يدفعهم شيئا فشيئا إلى عدم القبول بما يصنع رفاهيّتهم وأمانهم ونظامهم وكلّ ما عليه ترتكز حياتهم ذاتها. أن يرفضوا أنفسهم. أن يتمنّوا التّخلّص من طبيعتهم الخاصّة. إنّه لمن المستحيل أن تعترف البرجوازيّة بنهاياتها الحقيقيّة وبجوهرها الحقيقيّ. إذ يشعر مفكّروها بأنّ هذه الأمور غير قابلة للكشف وبأنّ اعترافهم هذا ليس أكيدا. إنّها حتّى غير قادرة على قبول إشاعة الأهداف الّتي تسعى إلى تحقيقها والمستقبلَ الّذي تَنْشُدُ. وإنّها غير قادرة أيضا على تجنّب التأثّر بشائعات من التّهم الّتي تتصاعد إلى حيث هي، بشائعات تُدين مواردها وهيمنتها وسلامتها.

يا لهشاشة مثل هذه السّلطة الّتي لا تقوم إلاّ على القوّة: إذ تكفي قوّة أخرى للإطاحة بها. مازال رجال ديننا يكرهون بِسْمارك وصراحته باعتبارهِ رجلًا قويًّا لا يلتجئ إلاّ قليلا إلى التّبريرات: إنّهم يرفضون جميعا

(123) . تونكين: الجزء الشّمالي للفيتنام.

قبول كلماته الصّادمة: «الّذي يملك القوّة بيده يتّجه منذ الأمام إلى حيث تقوده هي»، تفترض البرجوازيّة بأنّ سلطتها الماديّة تتطلّب دعما من قبل سلطة فكريّة غير مستمرّة في الواقع إلاّ بفضل القبول العامّ بها، عليها أن تقدّم بلا كلل أو ملل للّذين هم تحت سيطرتها أسبابا مقنعة كي يقبلوا بمؤسّستها وسلطانها ومدّة صلاحيّتها. كما عليها أن تُثبتَ بأنّ رفاهيّتها وهيمنتها ومنازلها وأرباحها ما هي إلاّ الأجر العادل الّذي على المجتمع الإنسانيّ أن يمنحه إيّاها مقابل خدماتها الّتي تقدّمها له. يستحقّ البرجوازيّ أن يكون كلّ ما هو عليه، أن يفعل كلّ ما يفعل، هذا لأنّه يقود الإنسانيّة في اتّجاه مجدها الأعلى، في اتّجاه مصيرها النّبيل. ولا يمكن للبرجوازيّة أن تتماسك إلاّ إذا تمسّكت بهذه الأطروحة، إلاّ إذا أثبتت للجميع بأنّها مفيدة وودّيّة. وهي تعمل من أجلها وحدها، تستثمر لأجلها وحدها، تمارس التّنكيل لأجلها وحدها. وهو من الضّروريّ لها بأن تُرى على أنّها تعمل وتستثمر أمّا التّنكيل فهو لفائدة الإنسانيّة في نهاية المطاف. كما عليها أن تتظاهر بأنّها عادلة. وهي نفسُها تعتقد أنّها كذلك. فعلى السيّد «ميشلان»[124] أن ينشر اعتقادا مفاده أنّه لا يصنع الإطارات المطّاطيّة إلاّ لأجل توفير عمل لأناس سيموتون من دونه. كما على السيّد برنشفيك أن يشيع ما مفاده أنّه يصنع أفكار من أجل الإعداد لمستقبل بسيط تأمّليّ ومشرق للإنسانيّة، وبهذه الطّريقة هم رجال دين، ضبّاط لا يعاقبون أتباعهم إلاّ لمصلحتهم وبسبب هذا الحبّ الأبويّ الّذي يكنّونه لهم وفقا لنظام قائم على [مبدأ] الانضباط العامّ. ووفق الفيلسوف الّذي يفكّر من أجل التّفكير. أمّا السّيّد باندا نفسه الّذي أعلن عن اليوم الّذي فيه تمّ تحذير

(124) . دوارد إتيان ميشلان (1859. 1940)، صناعيّ فرنسيّ، صاحب شركة الإطارات المطّاطيّة «ميشلان» الّتي أسسها مع أخيه أندريه وتُعد هذه الشّركة الثّانية عالميّا في قطاع الصّناعة.

العقل البرجوازيّ ما يكفي بعجزه والّذي سيضمن كبرياءه باستقالته وبالكفّ عن مهمّة تتجاوزه، وقد أعلن عن اليوم الّذي سينصرف فيه المفكّرون إلى استمناء الذّكاء المعكوس، [لكنّه] لم يتجرّأ رغم ذلك على الاعتراف نهائيّا بأنّ مصير النّاس ممّن هم غير برجوازيّين يظلّ غريبا عنه بعمق. ولم يتمكّن البتّة من التّخلّي عن الفكرة البرجوازيّة الّتي طال وقت نضوجها والمتعلّقة بالمهمّة البرجوازيّة المزعومة.

«إنّي أتمسّك بالتّأمّليّ من أجل أكبر رجال الدّين، ليس وفق الفكرة الّتي طالما أسعفوني بها، هذا لأنّه لن ينفع الإنسانيّة في شيء، بل على العكس تماما، ودون أن يكون الهدف هو استغلال [تلك الفكرة] وربّما وبأكثر دقّة بعدم قصد هذا الهدف [في ذاته] مطلقا، فالتّأمّلي الحقيقيّ هو الّذي يحسن استغلالها (الفكرة)».

وهكذا نتبيّن أن السيّد باندا لن يتمكّن من التّخلّص من بعض النّفاق بسهولة. وبوصفه أكثر مكرا من زملائه، فهو لا ينكر أنّه مثلهم وقد كفّ عن الاهتمام بعامّة النّاس لكنّه يقدّم دروسا مفادها أنّهُ بالتّخلي ذاك فقط يمكن تقديم خدمة أكبر لهم. هكذا إذن يوفّق بين المكانة البارزة الّتي لا يمكن ولو لرجل دين أن يستغنى عنها رغم كلّ شيء وبين الغياب النّهائيّ الّذي يبرّر من خلاله التّبعيّة الّتي سينتهي بالاستسلام لها سرّا.

إنّ الجميع مقتنعون بأنّه دون رجال دين سيكون النّاس في فقر مدقع، لذلك يسعى الفلاسفة إلى أن يتمسّكوا بفضل كرامتهم وحدها بتحقيق أهداف روحيّة يقتفون أثرها، فالاحترام والثّقة هما ما ينبغي على البرجوازيّ نقلهما للآخرين.

إنّ هذه الالتزامات الغامضة، المكرّرة بكثافة هائلة وبحماس مبالغ فيه ما

يكوّن عمق البروباغندا البرجوازيّة. لقد نجحت كفاية: من الّذي عليه إذن أن يجابه هيمنة البرجوازيّين إذا ما اقتنع العالم كلّه بأن فكرهم سيتمكّن من حلّ واحدة من تلك الإشكاليّات المستعصية، الممكنة دائما والمعلّقة على الدّوام، من سيتمكّن من ذلك في السّاعة والمكان المناسبيْن؟ لكنّ رجال الدّين لن يظلّوا على وهمهم إلى الأبد: ففي غمرة الضّوء القاسي للأرض، سيعلم النّاس جميعا بأنّ فكرهم إنّما هو فكر مُعْدَمٌ وبلا جدوى، ولا يمكن له أن يعطيَ ثمارا، هذا لأنّه فكر جبان بالضّرورة. لن نقبل إلى الأبد بأنّ الاحترام الّذي نمنحه لأقنعة الفلاسفة ليس في النّهاية إلاّ في خدمة موظّفي البنوك.

***

يتلخّص كلّ الفكر البرجوازيّ في قبوله بكلّ إيجاز ودون الارتباط بتفاصيل معيّنة، بكلّ ما هو أساسيّ من الأفعال الّتي يحتجّ عليها عامّة النّاس، فيبرّرونها ويمحونها إن اقتضت الحاجة لأسباب علويّة. ويتلخّص كلّ جهدها في الكشف عن المبادئ البعيدة القادرة على تغيير ملامح المستقبل. وذلك بتناسيها أو بتدميرها. فهي تبعث بغيوم من التّعلاّت على شاكلة طوّافة حربيّة تخلّف وراءها شاشة من الدّخان. إنّ هذه الفلسفة تملك دائما ما تخبّئه. وعليها أن تعمّم اعتقادا مفاده أنّ العالم ليس البتّة كما يبدو عليه في ظاهره، فالسّاذج من يعتقد بأنّه يري «سوزي»[125] لكنّ «سوزي» كانت [في الحقيقة] آلهة. اختطفتهم خطواتهم من كلّ الخطوات المتهوّرة حيث ألقوا بأسئلتِهم الشَّرَكِ. إنّ الحرب لا إنسانيّة دون أدنى

(125) **سوزي**: شخصيّة مستعبدة من شخصيّات مسرحيّة «أونفيترون» للكاتب الإغريقي بلاوتوس (القرن الثّالث قبل الميلاد)، وفي سير أحداث هذه المسرحيّة يحلّ الإله ماركوري في هيئة سوزي وهو تماما ما استعاره بول نيزان في هذا السّياق.

شكّ، وستبدو لأيّ عادل في حكمه ولأيّ معتمد على حواسّه ألاّ مبرّرات لها: لكن ينبغي تصويب هذا الحكم تماما مثلما ينبغي على العقل أن يصوّب العصا الّتي تبدو منكسرة وهي على صفحة مائيّة. كانت الحربُ تمتلك معنى أخلاقيًّا من شأنه أن يلطّف من هولها. فإذا ما أصبحت الحرب فكرةً فإنّ الحرب في بعدها الملموس ستختفي. ليست الحرب ما تُسبّب هذه السّلسلة اللاّنهائيّة من المعارك ولا هذه الحرائق ولا كومة الضّحايا المقرفة تلك ولا أيّام الملل والاغتيالات ولا تموّجات الغازات ولا سكاكين مزيلي الآثار ولا القمّل والقذارة البشريّة الّتي يعرفها المقاتلون دائما، لكنّها مناهضة للحقّ الرّافض لاستعمال القوّة، لكنّها معركة ديكارت ضدّ ميكيافيلّي والسيّد برغسون ضدّ الآلة الألمانيّة. ليس الأمر من قبيل لعبة دمويّة تجري في صالح صانعي الأسلحة لكنّها حملة فلسفيّة [قبل ذلك] ومعركة عقول أيضا.

ليس الاستعمار شرّا محضا في ذاته، فجوهرُه ليس مثيرا للغضب: إذ يهدفُ إلى خير كثير. أمّا الانحرافاتُ والتّجاوزاتُ والاغتيالاتُ والمُصادراتُ والإهانات فما تلك إلاّ أعمال لاستعمار سيّء لا صلة له بالكرامة الّتي يؤمّنها الاستعمار الحقيقيّ.

سرعان ما سيكون الاشتراكيّون وآخر صنّاع الرّأي من البرجوازيّين أفضلَ من سيشرف على هذه الفوارق الدّقيقة. ففي الحقيقة، إنّ النّظام العامّ للاستغلال المهيمن على الجزء الأكبر من الأرض مازال في حاجة لبعض الشّرور الإضافيّة ــ ليست الطّبيعة البشريّة بجميلة دائما ــ لكن، ونهايةً إنّه من الضّروريّ أن نعرف بأنّ مصالح السّكّان الأصليين قد تلتقي صدفة مع مصالح مستعمرين وإداريّين ومساعدين استعماريّين ومبشّرين.

أيُّ أوزان ستكون لبعض الهفوات الاستعماريّة مقارنة بأفكار عظيمة من قبيل «حماية» و«تحرير» أو في نظر هذه المهمّة ذات المنحى الأخلاقيّ الّتي تضطلع بها الأمم الأكثر تقدّما باسم الإنسانيّة قاطبة؟

على نفس النّحو يختفي البؤس أمام أفكار البؤس، والحياة أمام أفكار الحياة، ليس عبثا ألاّ تطرح لجنة التّبريز على مرشّحي الفلسفة سوى أسئلة تتعلّق بالأفكار، فكرة الحقيقة، فكرة الواقع، فكرة العدل، فكرة التطوّر، فكرة الدّولة. أ لاَ ينبغي التّأكّد بأنّ هؤلاء المعلّمين المستقبليّين المراهقين ملائمون تماما للقيام بواجبهم تجاه دولتهم بوصفهم مستعرضي ظلال؟

هكذا يتنقّل الفلاسفة بكلّ حيويّة وأريحيّة ما بين المظهر والحقيقة. هل نحن بصدد إدانة فعل ما؟ أ لمْ يكونوا أكثر من مظهر [بدوْرهم]، أو مجرّد حلم، أو ظلّ. وبصراحة أشدّ: إنّهم بلا وجود أصلا. بأيّ ضمانات مهينة يستولي هؤلاء الفلاسفة على أفكارنا المتوحّشة ليحوّلوا وجهة معناها. لم نكن عارفين أبدًا بكيفيّة تغيير قناعاتنا تحت شمس الحقيقة، وبكيفيّة تخليص أنفسنا من سلاسل الكهوف، لم نكن عارفين بتاتا بكيفيّة رؤية غرائب الواقع المستترة. ما كان ينبغي علينا أن نستسلم لنفاد الصّبر الّذي تتّصف به مرحلة شبابنا، كان ينبغي البحث بشكل أكثر دقّة ولوقت أطول، أطول حتّى ممّا ينبغي من أجل نسيان العالم الّذي تسرّعنا في الثّورة ضدّه. من أيّ علوّ يرون أبناءَ الأرض هؤلاء الّذين ما هم سوى نحن «وقد حاولنا بما في وسعنا جلب كلّ ما يتعلّق بالسّماء وبالمخفيّ إلى الأرض، ماسكين بحجر وسنديان بنفس القبضة من أيديهم».

لكنّ هذا الجدال لن يُحسم فيه بتلك السّهولة. لن يكتفي النّاس الّذين هم ضحايا المظاهر بالنّظر إليهم على هيئة انعكاسات باهتة. لكنّهم

[سينظرون إليهم] بوصفهم الحقيقة الوحيدة الصّلبة، هل يسمّونهم المفكّرون «حقيقةً»، على العكس تماما سينظرون إليهم على أنّهم مظهر ما وحلم يقظة أو مثل خديعة لن تُغتفر أبدًا.

هكذا هم الفلاسفة، في خضمّ بدائلهم وتحوّلاتهم، في أنسجة السّراب هذه الّتي يمدّدونها، في لجّ هذه اللّعبة المثاليّة الّتي سيلعبونها دائما، هكذا هم يتنبّؤون بصعود أفكار منقذة. [هكذا هم] يَنْشُدون العدل والكرم والحبّ. هكذا هم يرتكزون على الرّاتب الّذي تمنحه إيّاهم البرجوازيّة والأسلحة الرّوحيّة كي يوفّروا التّبريرات اللاّزمة من أجل صيانتها.

[هكذا هم] لا يجرؤون عن الاستعراف أو الاعتراف بالنّهايات الّتي تلاحقها، تلك البرجوازيّة المسكونة بالمخاوف الّتي تثبتها في كلّ مرّة والمسكونة أيضا بآخر وساوس الليبراليّة المطفأة، هكذا هم يسعون إلى ترتيب الفوضى والتّهديدات الّتي تعكّر صفوها، بإخفاء الأنشطة الّتي تمارسها خلف الوعود الّتي تطلقها. إنّها تعلم تماما بأنّ تدفّقاتها السّخيّة تُساهم في ثباتها المؤقّت. وهكذا كنّا نقرأ في إحدى أعداد صحيفة «**لوتون**»[126] الاستعماريّة:

«لا ينبغي أن تنسى سياسة السكّان الأصليّين بأنّ هدفها الأساسيّ هو الانسان، وإنّ السّياسة العظيمة بإمكانها أن تتشبّع بالإنسانيّة دون أن تستغني عن أهدافها النّفعيّة الّتي لا يجب أن تختفي عن أنظارها، هكذا فقط يصبح بلوغها أكثر سهولة وأكثر تأكّدا».

(126) وتون: جريدة يوميّة فرنسيّة بدأت الصّدور يوم 25 أبريل 1861 وكفّت عن ذلك يوم 29 نوفمبر 1942.

ونقرأ في إحدى مواعظ «ماسيلّون»[127]:

«إنّنا نشهد كلّ يوم ازدهار وضعيّة العائلات الخيّرة: وهي عناية إلهيّة حريصة على تسيير أعمالها في الوقت الّذي يُفْلسُ فيه الآخرون في حين يزداد [الخيّرون] ثراء».

[ها هنا] تكمنُ استمراريّة **الفلسفة البرجوازيّة**.

***

إنّها ليست مسألة ما نستنتج من خلال الوضعيّة، من خلال وظيفة الفلسفة تُجاه ما لا أعرف من مسؤوليّة، وما لا أعرفُ من نيّة أخلاقيّة للفيلسوف. فأنا أرى وبكلّ بساطة طرقا معيّنة للتّفلسف: طرقا لا تكتفي بفكرة وحيدة للفلسفة. بفكرة مطلقة للفلسفة. [طرقا] بعيدة على أن تكون خطايا تُرتكب في حقّ تلك الفكرة. إنّها نوايا الماكر لا أكثر. بإمكاننا أن نردّد أمامها ما ردّد هيجل أمام الجبال: «هكذا هو الأمر»، غير أنّه توجد أنواع كثيرة من الجبال الّتي لا أحبّذها وأنا أعلم تماما بأنّها لا ترتكب خطايا تُجاه أخلاق الجبال. إنّ نوبات الغضب الّتي تنتابُنا ومشاعر الكره الّتي تستبدّ بنا، فلا تحتاج بأيّ حال من الأحوال لتبريرات مطلقة.

وجب التّعامل مع الفلاسفة وكأنّهم أحداثٌ: لم نتعوّد مطالبة الأحداث برصيد ثيولوجيّ. كما هو من الغير المُجدي الثّناء على الفيلسوف كما نُثني على قدّيس أو ننبذه كما ننبذ آثما. فالفيلسوف فيلسوف وفق ما يتبنّى من حزب النّاس، أو له أن ينشقّ عنه. لنُلقِ خلف ظهورنا فكرة الخطيئة الّتي تعود إلى القرون الوسطى، ثمّ إلى الخطيئة الأولى الّتي قد تكون لم تُرتكبْ

(127) جون باتسيت ماسيلون (1663. 1743)، أسقف فرنسيّ.

أصلا. يعلم كلّ فرد بأنّ الفكر حرّ. وإنّي أرى السيّد برغسون بوصفه يمثّل خطرًا لا ملعونا، إنّي أرى فيه وجودا من واجبي أن أتبيّن حدوده. وإذا ما قلتُ إنّه والبرجوازيّة ضدّ الانسان فهذا لا يعني بأنّي أعامله على أنّه عدوّ أو أنّه من الطّفيليّات. حتّى «عصيّة كوخ»[128] لا تبدو لي ملعونة. إذا ما أردنا فهم الإنتاج البرجوازيّ لفلسفة لا إنسانيّة فستبدأ نظرتنا إليها بالتّوضّح شيئا فشيئا فقط عندما نكون قادرين على التّعامل مع هؤلاء المفكّرين كأشياء، دون أن نهتزّ لفكرة حرّيّة إراداتهم. إذا ما فكّرت في الوعي الأخلاقيّ للسّيد نرنشفيك فإنّي مثله وإنّي مقتنع به، أفكّر على نحو برجوازيّ في اللّحظة الّتي أريد أن أفكّر على نحو إنسانيّ. وقتها سيصبح من المستحيل الاهتمام بالشّخصيّة الأبديّة للسّيّد برغسون واختيار الشّخصيّة الواضحة الّتي تمكّن السّيّد فوكوني من تكوينها. لنتجاوز كانط بخطوات واسعة ولننس معه تعاليمنا الكنسيّة.

إنّي أرتطم بوجود السّيّد برغسون وبكتل فلسفته كما هي، وكأنّني أرتطم بزوايا طاولة في سواد اللّيل. فالسّيّد برغسون دائما ما يمنعني من التوجّه مباشرة وبالثّقة الّتي أنشُدُ إلى هناك حيث أنوي الذّهاب. إنّي أطالب اليوم بمحاسبة السّيّد برغسون بوصفه حاجزا وليس روحا شرّيرة أمام محاكمة كاهن. متى ستتمكّن من التّخلّص من المسيحيّن ومن خلوات اعترافاتهم ومن خطاياهم ومن اختباراتهم للضّمير؟

يمكن للسّيّد برنشفيك أن يردّ على أيّ تهجّم على أنّه غير عادل وأنّه كان من الواجب تقدير نواياه الّتي هي [نوايا] خالصة ونزاهته الفكرية الّتي

---

(128) **عصيّة كوخ**: نوع من الباكتيريا الّتي تسبّب مرض السّلّ، لها شكل يشبه العصا وقد سُمّيت بهذا الاسم نسبة لمكتشفها الطّبيب البيولوجي «روبارت كوخ» (1843. 1910).

هي عظيمة ولا مبالاته الّتي ليس لها حدود. في الواقع، إنّ السّيّد **غابريال مارسيل**[129] الّذي لم يكن برنفشيكيًّا مؤكّدا لي بوجوب إدانة فكرة «الفقر الجوهريّ» و«النّقص الميتافيزيقيّ واللاإنساني في نفس الوقت» الّذي يتّصف به التّعليم في [جامعة] السّوربون. وقد ألحّ عليّ بأن «أتوجّه ضدّ ليون برنشفيك صاحب النّزاهة والنّكران العميق اللّذين لا يمكن أن يُناقِشا دون نيّة مبيّتة التهجّمات الشّخصيّة الأكثر دناءة». لكن لابدّ وأنّ السيّد مارسيل وأشباهه يعرفون بأنّ هذه الفضائل الشّخصيّة وهذه النّوايا السّخيّة لا ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار مطلقا. فبوجودها لا تتغيّر المهمّة الرّئيسيّة الّتي يؤدّيها برنشفيك. لا يوجد سبب واحد لأتبنّى الأوهام الّتي تصيب الفلاسفة حول معنى نشاطهم، في الوقت الّذي يتعلّق فيه الأمر فقط بتأثير كتاباتهم وبعواقب انتاجاتهم. من هذا التّأثير وهذه العواقب الّتي لا تنبع من كيانهم الحميم. إنّه لمن غير المهمّ أن يستيقظ السّيّد برنشفيك كلّ صباح برائحة زكيّة وبصفاء فكريّ: فكتبُه ودروسُه وما يتبعها هي وحدها ما يتنزّل في صلب اهتمامنا. مكتبة سُر مَن قرأ

أخلاقيّات ملائمة تماما للنّوايا. لقد حان الوقت لإلحاقها بالشّياطين المسيحيّة القديمة. «لم يكن هذا ما أريده»[130]. ولنسلّم في هجوم «**فردان**»[131].

---

(129) غابريال مارسيل (1889. 1973)، فيلسوف وكاتب مسرحيّ وناقد موسيقيّ وهو أيضا مؤسّس الوجوديّة المسيحيّة له عديد المؤلّفات أهمّها «سرّ الكينونة».

(130) وردت هذه الجملة باللّغة الألمانيّة وفي صيغة عسكريّة.

(131) ردان: مدينة فرنسيّة تقع في شمال شرقي فرنسا. وهي مدينة شهيرة كونها كانت مسرحا لأشرس معارك الحرب العالميّة الأولى وأطولها وقد دارت بين الجيش الألماني والجيش الفرنسي (من 21 فبراير إلى 19 ديسمبر 1916)، انتهت بانتصار الفرنسيّين.

قد تكون الشّخصّية الأبديّة للسّيّد «شيات»[132] شيوعيّة. وفي غمرة الأبد، كان السيّد «**بيير رينودل**»[133] يُعدّ للثورة ربّها. من الممكن النّوم كلّ ليلة بكلّ الرضى ومباركة من «**التّيتوس**» ذاته، بعد قضاء يوم من التّعامل والتّفكير والتّنفّس ضدّ الانسانيّة. من الممكن أيضا الاستفاقة بضمير مرتاح وقد كان إلى حدود أحلامه عدوّا للبشر.

لكنّنا سنكون تاريخيّين إلى حدّ النّخاع. سنسأل النّاس عمّا لا يفعلونه وعمّا يفعلونه، لكن ليس عن الأفكار الّتي ستتكوّن وستتحلّل في العتمة الحميمة لأرواحهم حيث لن يتمكّن أحدٌ من الدّخول. إنّ كلّ فلسفة هي فعل. يعرف السّيّد بارودي نفسُه بأنّ كلّ فكرة إنّما هي فعل.

«فيما يخصّ انتقاد الجدال بدل العمل، هو أمر يستحقّ ما يستحقّ، لكن يبدو لي أنّ هذا الأمر يصل إلينا جميعا حيثُما كنّا، نحن المؤمنون بالفلسفة، لنؤمن بنفس الشّاكلة بأنّ الفكر الواضح هو الآخر فعل».

من الممكن طبعا ألاّ تكون للفلاسفة أيّ نيّة واضحة للخيانة، من الممكن أن يؤمنوا بجدّية وفعاليّة بحبّ النّاس. لا أظنّ بأنّ السيّد لالاند وزملاءه يستمتعون بعبوديّة اقتصاديّة ومعنويّة [الّتي يرزح تحتها] أغلب البشر. لكنّ فلسفتهم ترتكز بالأساس على هذه العبوديّة، تقبلها وتشارك في استمراريّتها في النّهاية. فتعاليم وكتابات هذه الفلسفة هي بكلّ تأكيد ما يخيّب آمال العبيد يحيد بهم إلى منعرجات حيث تتبدّد [أحلامهم] بالثّورة.

ليس من الضّروريّ الاعتقاد بأنّ السيّد برنشفيك خائن وشرّير من

---

(132). جون شيات (1878. 1940)، موظّف سامي وسياسي فرنسي، شغل خطّة مدير للأمن (1925)، وهو معروف بتصدّيه الشّرس للمظاهرات الشيوعيّة وبميله لليمين المتطرّف.

(133) . بير رونيول (1871. 1935)، سياسيّ فرنسي، من قادة القطاع العمّالي الفرنسي وعضو الحزب الاشتراكي منذ سنة 1933

أجل التّصدّي له. والاعتقاد بأنّه بلور بكلّ الوضوح الممكن ومتسلّحا بحيلة أكثر مكرا من أفكاره ذاتها، بلور فلسفة من شأنها أن تحمي ثروته الشّخصيّة وتؤمّن سلطة لجنة الحدّادين أو لجنة الفحم الاسفلتيّ[134]. إنّه يملك كفرد من الوسائل ما هي أكثر نجاعة ووحشيّة من مُجمل كتبه. فمكوّنات حافظة أوراقه الّتي لي أن أتجاهلها بكلّ سهولة لا تقدّم تفاسير ضافية ومباشرة عن بُنية فلسفته. إنّه لمن الأكثر سهولة أن نرجّح بأنّ مفكّرا صاحب أعمال في مجال مناجم الفحم في «تونكان» سيربط بهذه الأعمال نظريّة خاصّة بالحقيقة المطلقة، بمدير الأعمال الطيّب أو بالتّمثيلات الجماعيّة. فليس للأيديولوجيّين وللحياة الاقتصاديّة البرجوازيّة علاقات واضحة من أجل الاهتمام أوّلا بتبرير نظام اقتصاديّ بعينه وبشكل مباشر. فهذا التّبرير من شأن السّاسة [وحدهم]. إذ الأفراد الّذين سيبرّرون لجنة الحدّادين سيكونون بالأحرى فرنسوا ـ بونفست أو السّيّد جينيو[135] أكثر من أن يكونوا السيّد لالاند أو السيّد روستان وغيرهم. لا تتمثّل مهمّة السيّد بارودي في عرض أدلّته أمام ائتلاف صنّاع النسيج في مدينة «روبيه»[136].

لا ينبغي التّسرّع بأيّ حال من الأحوال في الحكم على موقف رجال الدّين على أساس أنّه موقف يُخفي وراءه معرفة واضحة بالنّهايات الّتي تسير إليها الطّبقة الّتي تُمثّلهم. لكن وبالأحرى، وبما أنّ الأمر أقلّ ملاءمة للتّفكير، فإنّها مجرّد وهم من الصّعب فصله عن الظّروف ذاتها الّتي يعتمل

(134) . اللّجنة المركزيّة للفحم: تشكّلت سنة 1887 تحت ضغط من الصّناعيّ هنري دارسي (1840. 1926)، من أجل حماية مصالح عمّال هذا القطاع.

(135) . لود جوزيف جينيو (1890. 1966)، سياسيّ واقتصادي وصحفي فرنسي، برجوازي المنشأ وقد شغل خطّة رئيس منظّمة أصحاب الأعمال.

(136) . وبيه: مدينة تقع في القسم الشّماليّ من فرنسا على الحدود البلجيكيّة.

خلالها الفكر داخل رأس المفكّر.

من المؤكّد أنّ حقيقةَ طبقةٍ ما لا تنبني على علاقات اقتصادية فقط. إذ تنتج انطلاقا من هذه العلاقات مجموعة من المبادئ والأحكام والمفاهيم القانونيّة والأخلاقيّة. قد يعترف شابّ برجوازيّ وهو يتهيّأ للاضطلاع بمهمّاته الرّوحيّة انطلاقا ممّا يحيطه بذاك الإنتاج الوفير. فهو يغترف منها دون أن يشعر. بل هي ما تتسرّب إلى داخله. دون أن ينتبه مجرّد الانتباه إلى ذلك. فتَلْقَى أولى جهوده لتفكيره التّقنيّ هذه المنتجات فيطبّقها عليها. وهو بعيد على أن يُخضعها قبل ذلك للشكّ. إذ تبدو له منتجات داخليّة بكلّ ما تعنيه الكلمة، طبيعيّة تماما مثل تنفّسه. كما يراها على أنّها طبيعته الخاصّة به. فيتقبّلها كما يتقبّل حياته. لذلك تتوفّر حظوظ كبيرة كي يقع في حبّها كما هي. وليؤمن بها إيمانا نهائيًّا. وينظر إليها كما لو أنّها جملة أبدًاعات عفويّة نابعة عن شخصه.

لكن كلّ إنسان يسعى إلى التأكّد من أنّ هذه المنتجات ثابته فيبحث لها عن ضمانات، لذلك يريد أن يحصّنها ضدّ كل الاعتداءات. يقود كلّ إثبات من تلك الإثباتات إلى نوع من الجدليّة، في الوقت الّذي ينشغل الفرد منهم بإقناع نفسه وإقناع الآخر. فتتوطّد كلّ تلك الأفكار على إثر حوار خياليّ. وهي عمليّة تمّ توضيحها منذ أفلاطون. كتب السّيّد «بوغلي» على سبيل المثال:

«سيكون من الضّروريّ التّمييز بين الالتزامات والتّبريرات. تُوجد من ناحية الأفعال الأخلاقيّة ومن ناحية أخرى المنطق التّبريريّ، وإنّ الحاجة إلى هذه التّبريرات أمر يُحسّ بشكل غير متكافئ: لا تتّخذ البراهين التّبريريّة نفس الأشكال الّتي تتلاءم مع الأفراد، هو أمر يتمّ عشوائيًّا،

ووفق مقتضيات الحياة الاجتماعيّة. سأقبل طوَعا بأنّه وبالنّسبة إلى بعض العقول ستكون الحاجة إلى عقلنة السّلوك ملحّة من أجل أن يواصلوا حياتهم بضمير هانئ، إذ عليهم أن يكونوا قادرين على إيجاد أسباب ذات بعد كونيّ لأفعالهم».

هكذا هو المفكّر البرجوازيّ، منذ الوقت الّذي تأسّست فيه مجموعة من القيم البرجوازيّة وهو يسعى جاهدا إلى الرّبط بينها وتبريرها وإلى إسعافها بقيم عُليا من شأنها أن تزوّدها بيقين على شاكلة اليقين الّذي تتّصف البراهينُ الرّياضيّة أو الاكتشافاتُ العلميّة. يتجلّى لنا من كلّ العمل الّذي أُنجز في القرن الثّامن عشر وكلّ عمل الكانطيّة أيضا هذا الجهدُ المبذول من قِبَل الفكر البرجوازيّ السّاعي إلى الحصول على كلّ الجدارة المُمكنة. عندما كانت الأفكار البرجوازيّة تُؤخذ على أنّها منتجات لعقل خالد، وعندما فقدت ذاك الطّابع المنحدر من إفراز تاريخيّ، حصلت على حظّ أوفر للبقاء والصّمود أمام كلّ أنواع التهديدات. لم يعد العالم يرى بأعينه المجرّدة الأسباب المادّيّة الّتي كانت وراء تكوّن [القيم] البرجوازيّة وهي في ذات الوقت وراء انتهاء [هذه القيم].

ما زالت فلسفة اليوم تتوخّى نفس هذا الجهد التّبريريّ. ومازالت تستخدم نفس حركة العلوم من أجل الوصول إلى أهدافها. لقد كانت المهمّة الكانطيّة تكمن في تبرير الأخلاق البرجوازيّة بجعلها ابنة لمنطق يشرّع ضمن ما يشرّع لعِلْم الفلك. أمّا مهمّة السّيّد برنشفيك فهي تبرير نفس هذه الأخلاق بالارتكاز على الهيْبة الّتي تنبعث من رياضيّات آينشتاين. في حماية من العلم، راح الفكرُ البرجوازيّ يسعى إلى تبرير اكتشافاته ليتناسى أنّها قابلة للفناء. فهي تنتظر من العلم حلولا مباشرة أقلّ

ممّا تنتظره من المظاهر ومن الأقنعة. وهي تبحث في العلم عن سلطة عقلانيّة قادرة على تأسيس عِلْمها الخاصّ وعلى مأسسة الأخلاق. وهو ليس مجالا لأن تستلّ من العلم ضرورات لن تعرف كيف تستجيب لها بل ستكتفي بأن تحاول تقليد نجاعته وأن تنقل حماسته العقلانيّة المتجلّية في فكر العلماء. يقول السّيد بارودي: «إنّ العقل البشريّ قادر بطبعه على أن يجعل الكون مثله مثل حياته الخاصّة واضحا وجليّا، وبنفس الطريقة وهو ينتقل من الأبسط إلى الأكثر تعقيدا وعبر إحصائيّات منتهية، هو يحسم إشكاليّات المتعلّقة بالعالم الفضائيّ، وبنفس الطّريقة أيضا يفرض مبادئا واضحة وبديهيّة، هذا وعليه أن يتوصّل إلى تحديد مُثُلِه فيما يخصّ العدالة والحكمة وإلى أن يضع طريقة للعيش أو منظومة سياسيّة متناهية العقلانيّة». أحيانًا، يمكن لاعتراف ما أن يكشف عن الأسباب الخفيّة الّتي تربض وراء هذا التّكتيك ووراء هذه الثّقة في تقليد العلم: نقرأ مثلا في الدّراسات الأخلاقية لصاحبها ف. روه[137]: «نريد اليوم أن نربّي العالم برمّته على الفكر، أن ننشر التّربية العلميّة، لكن لا وجود إلاّ لضرورة واحدة نابعة من حقبة تاريخيّة معيّنة: بقدر ما نخشى ردّة فعل دينيّة ضدّ النّفَسِ العلمانيّ، فإنّنا ينبغي أن نتمسّك بأخلاق العلم».

هكذا توفّر الفلسفة أسلحة فعّالة للسّياسيّين. لكنّها عمليّة تدور وسط جوّ من الجهل المعمّم بالجذور الاقتصاديّة والاجتماعيّة وبالمبادئ الّتي تبرّرها.

***

(137) . ريدريك روه (1861- 1909)، فيلسوف فرنسيّ مهتمّ خصوصا بالفلسفة الأخلاقيّة ويعتبر أنّ الانسان الأخلاقيّ هو من يصنع ما يشبه المجابهة بين مبادئه الأخلاقيّة ليختار في النّهاية أقدرها على الصّمود.

إنّ الفلاسفة الّذين ينعمون في الحاضر بوضعيّة برجوازيّة، يعبّرون ويبرّرون علم النّفس وأخلاق الطّبقة الّتي ينتمون إليها. [هي وضعيّة] قد ازدادت تعقيدا تحت وطأة علم النّفس الخاصّ بمجموعتهم المهنيّة. إذ يريد علم النّفس هذا السّلام. «النّظام والسّلام». يريدُ أيضا تطوّرا عقلانيًّا، عقلانيًّا وبسيطًا. انسجامًا في داخل بني البشر وبين العلاقات الّتي تجمع بني البشر. كلّ هذه العناصر هي ما تكوّن النّمط الّذي عليه علم النّفس البرجوازيّ والفلسفة الّتي توفّر للبرجوازيّة تبريراتها الجدليّة.

كان ف. نيتشة قد رأى بجلاء بأنّ على كلّ مجتمع تاجر أن يتجنّب فُرص الحياة والتّفكير بجدّيّة:

«نمط أخلاقيّ لكلّ مجتمع تاجر هو ما وراء هذا المبدأ التّابع للنّمط الأخلاقيّ الحاليّ: فالأفعال الأخلاقيّة هي أفعال تعاطف بالنّسبة إلى لآخرين. إنّي أرى غلبة غريزة الخوف الاجتماعيّ وهو يتنكّر في ثوب مثقّفٍ: تطرح هذه الغريزة مبدأ أعلى وأقرب ما يمكن وهو ما ينبغي انتزاعه من الحياة، السّمة الخطيرة الّتي كانت من سماتها في الماضي، على الجميع أن يتعاونوا من أجل ذلك وبكلّ قدراتهم. لهذا فقط، إنّ الأفعال وحدها الّتي تسعى إلى الأمن العامّ وإلى الشّعور بالأمان الاجتماعيّ هي الأفعال الأجدر بأعلى الأوسمة».

إنّ الانسجام والسّلام ما بين المكوّنات المتنوّعة للمجتمع هما من الضّروريّات في نظام لا يستبعد الحرب، لكنّه لا يتصوّرها رغم ذلك كوسيلة يائسة ولو نسبيًّا. لقد وجد السيّد برنشفيك وسائل أكثر براعة من ضرورة الانسجام وتبرير هذه الضّرورة بين البشر:

«كانت «**زنتيب**»[138] امرأة بغيضة وكانت تتوجّه بالكلام لابنها

(138) . زنتيب: زوجة الفيلسوف اليوناني سقراط وكانت معرفة بفصاحتها.

«**لامبروكليس**»[139] بشكل متناهي السّوء، فحاول سقراط أن يجعل «**لامبروكليس**» يفهم بأنّه ليس فردا في وضعيّة مواجهة مع أيّ شخص آخر كي يردّ الفعل كما يريدُ ومنصاعا للدّوافع الطّبيعيّة الّتي تسكنه. إنّه ابن وعليه أن يفكّر في المزايا الّتي تلقّاها من أمّه ولا يمكن له إذا ما فهم هذا الأمر، ألاّ يرى جيّدا وأن يعدّل سلوكه من وجهة نظر الأمّ. فتطوّر الذكاء الضّريبيّ والوعي الأخلاقي يسيران جنبا إلى جنب إذا ما تتبّعنا عبر العصور نموّ هذه المهمّة المتّصفة بالنّسبيّة والّتي من شأنها أن تتيح للإنسان تجاوز حدود فردانيّته من أجل بناء كون الحقيقة والعدل».

من الواضح أنّ المصلحة الخاصّة لرجال الدّين تتلخّص في متابعة تأمّلهم تماما مثل الصّناعيّ الذي يسعى إلى إنتاج سلع متجنّبا أكثر ما يمكن من النّزاعات. إذ يفرض العمل الرّوحيّ ظروفا من الهدوء من أجل ضمان سيرورة سلميّة لحركة الأفكار التّصاعديّة. تبدو الأعمال الرّوحيّة شديدة الأهمّيّة بالنّسبة إلى مثقّفين فخورين بمهمّتهم، فهذه العمليّات يرونها هم أنفسهم ببعض المشاعر الدّينيّة، كما لو أنّهم أمام تمارين تحتاج إلى الحماية والضّمان.

أمّا النّظام الاجتماعيّ الّذي يبدو لهم سعيدا بشكل خاصّ فهو [النّظام] الّذي يضمن استمراريّة أفكارهم دون أن تتعرّض لحوادث معطّلة وخارجة عن طبيعتها. والّدولة الأفضل في نفس السّياق، هي [الدّولة] الّتي تسيّر وضعيّتهم البرجوازيّة وتضمن لتأمّلاتهم ظروفا مرفّهة من الصّمت والسّكينة، وهي في النّهاية ما تُتيح وتحفّز على ما يشبه استقلاليّتهم.

(139) . امبروكليس: الابن البكر لسقراط وزنتيب.

***

إنّ الاستنتاجات والمناهج والمواقف الّتي تميّز هذه الفلسفة هي نفسها ما يحجزها لحساب خدمة البرجوازيّة. فليس بمستطاعها سوى خدمة البرجوازيّين، ولا يمكن تبنّيها إلاّ من قِبَلهم، ولا تُرضي سواهم. وعلى الرّغم من ملامحها العامّة وهذه المسحة العظيمة من الغياب والمسافة الّتي تحذق توخّيهما، إلاّ أنّها تظلّ غارقة في واقع من الرّضى السّلبيّ يُثبته البرجوازيّ منهم عندما تغرق [هذه الفلسفة] في تأمّل نفسَها. لم تُصَبْ يوما بالرّغبة في التّغيّر ولا التّخلّي عن [طبيعتها]. فهي كما هي ترى بأنّها طيّبة كما ترى نفس الشّيء على البرجوازيّة: يتخلّلها هذا الحكم السّطحيّ إلى حدود أفكارها الأكثر سرّيّة. فهذا الثّوب الّذي تمّ تصميمه من طرف البرجوازيّين هو ثوب وفق قياسهم الوحيد ولن تتمكّن من ارتداء غيره. لقد تمكّنّا من تحديد الكيفيّة الّتي وفقها كانت الفلسفة تُغذّي وتبرّر الكبرياء العامّة للبرجوازيّين، ولا تنحصر مهمّتها في هذا المستوى: هذا لأنّها مازالت تستجيب لنفس الضّرورات الغريبة عن الّذكاء البرجوازيّ، الضّرورات الخاصّة بالعزلة وبالكبرياء والخصوصيّة البرجوازيّة.

إنّ البرجوازيّ لكائن منعزل. يشبه كونُه عالما مجرّدا من الآلات والرّوابط الاقتصاديّة والقانونيّة والأخلاقيّة. ليس له أيّ اتّصال مباشر مع الأشياء الملموسة: لا علاقة له مباشرة مع الآخرين، ملكيّته مجرّدة بدورها. وهو بعيد عن الأحداث، هو في مكتبه، في غرفته، بين مجموعة صغيرة من الأشياء المعدّة لاستهلاكه الخاصّ: زوجته، فراشه، طاولته، أوراقه، كتبه. كلّ المنافذ إليه محكمة الغلق. تصله الأحداث من بعيد محرّفةً، مشذّبة، ومغرقة في التّرميز. إنّه لا يرى أكثر من ظلال. وهو ليس في وضعيّة تمكّنه

من تقبّل مباشر لصدمات العالم. تتكوّن كلّ حضارته من شاشات وكوابح للصّدمات، من مخطّطات فكريّة متقاطعة، من تبادل للرّموز. إنّه يعيش ملء صور منعكسة. ينتهي كلّ اقتصاده وسياسته إلى العزلة. يبدو له المجتمع بوصفهِ سياقًا شكليًّا لعلاقات تجمع ما بين وحدات إنسانيّة متطابقة. لقد تأسّس الإعلان العالميّ لحقوق الانسان انطلاقا من هذه العزلة القائمة على منظومة العقاب. يؤمن البرجوازيّ بسلطة العناوين والكلمات، يؤمن أنّ كلّ شيء مدعوّ للوجود سيوجد، على شرط أن يتمّ تعيينه: فكلّ أفكاره عبارة عن سلسلة من التّعاويذ. يكفي بالنّسبة إلى شخص لم يعش اتّصالا حقيقيًّا بالشّيء مثل مصائب المتأتّية من الظّلم، أن يؤمن بأنّ العدل سيتركّز يوما ما: فهو يوجد بالنّسبة إليه بمجرّد التّفكير فيه. لا مكان لتلك الفجوة الموجعة بين ما يحسّه وما يفكّر فيه. لأنّ حياته ليست أقلّ تجريدا وعزلة من فكره. عبارة عن هاوية لا تفصل بأيّ شكل من الأشكال بين كائنه الخاصّ وشخصه الموضوعيّ. تعبّر حقوق الإنسان بما يكفي عن النّزر القليل من الحقيقة الّتي يمتلكها. لقد قدّم ماركس أوصافا رائعة لهذا الانسان البرجوازيّ «هو عضو خياليّ لسيادة متخيّلة وهو منسلخ عن حياته الواقعيّة والفرديّة ومليء بعموميّة لا واقعيّة».

لكنّ هذه العزلة وهذا الغرور للحياة البرجوازيّة ما يزجّ بهذا الانسان الشّريد، هذا الانسان الشّبح في [سجن] كبريائه الذّاتيّة. إذ عليه أن يعتزّ بنفسه وأن يجد في نفسه بنفسه دون غيرها كلّ المفاتيح وكلّ الدّلائل على حياته كـ «**جوهر فرد**»[140]. لا يمكن وبكلّ الصّرامة الممكنة أن يقبل الكائن بأنّه «لا كائن». كما عليه وهو في كونه حيثُ لا شيء يحدث أن

(140) . لجوهر الفرد: Monade، وفق تعريف الجرجاني (القرن التّاسع ميلادي)، هو الجوهر الّذي لا يقبل التجزئة لا بالفعل ولا بالقوّة.

يمتلك، من أجل مواصلة عيشه، الوهمَ بأنّ شيئا ما بصدد الحدوث. لكنّ الذّكاء يظلّ المكوّن الوحيد للإنسان الّذي من شأنه أن يساعده على تطوير ذاته. إنّ الفقر الحقيقيّ للحياة البرجوازيّة ما يسمح لِعَبَث العقل بتكاثر متسارع ومستقلّ. وإنّ الذّكاء البرجوازيّ من الأشياء الّتي تنتشر مثل سرطان. كان على البرجوازيّ إذن أن يبحث عن تعويض ما لم يجده في ممارسته لحياته البشريّة بشيء نابع من داخله، بشيء يمكّنه رغم كلّ شيء من التّأكّد من أنّه على قيد الحياة. ففي الوقت الّذي يُصارع فيه من أجل السّلطة، كان البرجوازيّ قد قفز فوق حياته: إذ لا يمكن لمؤسّسة وجوده المجرّد المواصلة دون صراع، دون أحداث واقعيّة: أمّا الثّورة الّتي يؤسّس لها فقد كانت مفروضة فرضا عبر الأفعال والعنف وليس بمجرّد اللّعبة الفكريّة البسيطة، مع أنّ بورجوازيّ اليوم المقيم في العالم الّذي أعدّه آباؤه من أجله هو في الحقيقة عالم مهيّأ لأن يعتقد بأنّه لم يتمّ تركيزه إلاّ عبر قوّة الحقيقة الّتي بداخله. ليس 14 جويلية (يوليو)[141] بالنّسبة إليه إلاّ رمزًا زمنيًّا، مثله مثل عيد الفصح وعيد ميلاد المسيح وأَحَدُ الشّعانين[142]، بداية عطلة مطوّلة. لكنّ الأكيد بأنّه سيتفطّن لفراغه وستعتمل في روح ندم الرّوح المسيحيّة: بلا سلطة، بلا رغبة في أن يستعيد شيئا يُذكر، هذا لأنّ هذه الاستعادة كانت قد ألقت به بين أيدي كنيسة كانت تدعمُ أعداء طبقته. لذلك فقط وجد حلاّ أفضل. يسعى كلّ التّيّار الفلسفيّ إلى تعويض تلك الرّوح. كان كانط قد ضمن للبرجوازيّة كلّ مزايا الرّوح المسيحيّة، كلّ مقاماتها، عندما استبدل الرّكائز الرّوحيّة بالسّلطة المجرّدة لـ

(141) . 14جويلية (يوليو): يوم الباستيل أو العيد الوطني الفرنسي الّذي يعود إلى 14 جويلية من سنة 1880 تاريخ انتهاء الحكم الملكي المُطلق.

(142) . أحد الشّعانين: في الدّيانة المسيحيّة: الأحد السّابع من الصّوم الكبير والأخير الذي يسبق عيد الفصح (عيد القيامة)، ويُسمّى أيضا بأسبوع الآلام ويرمز إلى دخول يسوع المسيح إلى مدينة القدس.

«أنا أفكّر». الرّوح، ابنة الله، خادمة الفضيلة تترك مكانها للعقل العلمانيّ ليعيد لها عظمتها القديمة. إنّ حضور الرّوح وخصائصها من شأنها أن تنحو بالكائن منحى التّواضع والإذلال في حضرة الله وقساوسته، وهو ما لا يمكن للبرجوازيّة القبول به. لكن عندما أصبحت كلّ السّلط القديمة للرّوح سُلط عقل خاصّ بكلّ فرد، سُلطا فعليّة لا تسمو بأيّ فرد مهما كان، وجد البرجوازيّ المنعزلُ بداخل كرامته الأساسيّة وقد وضعته في نفس المكانة المبجّلة لله. لقد تمكّن من الاستمتاع بكبرياء مِلكيّة كانت من حقّه وحده. لذلك شغل خطّة مُشرّع على العالم الرُّوحيّ كما كان كذلك في عالمه الحقوقيّ والاقتصاديّ. لقد تمّ التّرويح عن وحدته بهذه الكبرياء، بممارسة سلطته وبالتّسلسل اللاّنهائيّ للأفكار الّتي قد سمح بها. هكذا تسعى كلّ الفلسفة العلميّة للسيّد برنشفيك إلى الظّهور من خلال تركيز منظومات وضمان هذه السّلطة وكرامتها الدّائمة. يمكن لأيّ برجوازيّ أن يكون فخورا بإحساسه الّذي أسس في داخله لعقل قادر على خلق فيزياء نيوتن والنّسبيّة المعمّمة. [لذلك] فقط، يشعرُ كلّ برجوازيّ بأنّه منتَخبٌ.

***

لكنّ الشّريحة الواسعة والمجهولة من بني البشر الّذين سيحتاجون حقيقة إلى فلسفة. ممّا يعني إلى رؤية ملائمة لعالمهم وإلى جملة من الأحكام والإرادات الواضحة، الشّريحة الواسعة من بني البشر الّذين سيحتاجون إلى أدوات فكريّة فعّالة من أجل تحقيق فلسفتهم الخاصّة، فهؤلاء محرومون من طرف البرجوازيّة من تلك المؤسّسات الفكريّة الّتي يسعون إلى بلوغها. بينما لا نوفّر لهم سوى تلك الفلسفة المتعدّدة الموجودة اليوم. [الفلسفة] الّتي تؤكّد على أنّها موجودة كونيًّا. ما يعني أنّها صالحة لجميع

البشر دون استثناء، وفي كلّ الظّروف الأرضيّة الممكنة. لكنّ هذا التّأكيد وهذا الادّعاء إنّما هما مفرغان تماما [من كلّ محتوى].

هذا لأنّه في الحقيقة، تحتاج هذه الشّريحة الواسعة من البشر وبشكل خاصّ إلى أوضح ما يمكن من رؤية، يحتاجون وبشكل خاصّ أيضا إلى القدرة على تمييز أنفسهم في عالم يرضخون فيه بكلّ سلبيّة لأشكال العنف والتّخريب، وهي ذات الشّريحة المُبعدة من طرف هذه الفلسفة ذاتها. فمن طبيعة الفلسفة أن تُبدي تحفّظا تجاه عدد من منخرطيها المبتدئين. فلا يمكن امتلاك ناصيتها إلاّ بعد سلسلة طويلة من الدّراسات والأبحاث والتّدريبات والاختبارات: يتمّ في كلّ خطوة تحذير المنخرط الشّابّ الّذي ألقى بنفسه داخل الفلسفة من الطّول والتّعقيد وثقل المهمّة الّتي تنتظره. إنّ الفلسفة لَهِيَ واحدة من أعلى قمم هذه الثّقافة الّتي تدّخرها البرجوازيّة من أجل أبنائها. هي حكمة مطعّمة بكلّ النّفايات المجمّعة عبر التّاريخ. حكمة مُثقلة بكلّ المعارف التّاريخيّة العميقة، بكلّ الأغصان التّاريخيّة الميّتة، حكمة شديدة الاعتناء كما هي دائما بأن تتخفّى وراء الحركة الحسّاسة للعلوم، [لذلك] هي عمل طويل النَّفَس: إنّها تقتضي كلّ الأنشطة التّرفيهيّة اللاّزمة والسّنين الطّويلة من الاستعدادات الحثيثة للوظيفة الرّوحية الّتي وحده ابن البرجوازيّة في وضعيّة تخوّل له الحصول عليها. [أمّا] الجمهور البرجوازي الواسع غير المختصّ والمتكوّن من رجال ونساء فهم مطالبون على الأقل بمعرفة أبجديّات الثقافة الثّانويّة وهم حاصلون على ما يكفي من وسائل تسلية واسترخاء من أجل تخصيص جزء من وقتهم وعنايتهم للتأمّلات الأخلاقيّة وللتّبريرات المطلوبة والّتي ليس عليها أن تحمل عناء شرحها، إذ هي شريحة مرتاحة لكون كهنتها يعملون

على ذلك من أجلها في مكان ما. سيجيب هؤلاء الكهنة: «نحن هنا مستعدّون لأوّل نداء ستنادونه، لكن يلزم اللاّنهائيّ من وسائل التّسلية من أجل طرح إشكاليّات أخلاقيّة وتبريرها عقلانيًّا. فالإنسان الّذي يعمل لا يفسّر الأخلاق: إنّه ينتج هذه الأخلاق!».

إنّ الشّريحة الكبرى من البشر الّتي هي في عجلة أمرها تحت ضغط ضرورة قاسية من الّتي لا ينشغل بها الفلاسفة مطلقا وهم يشقّون طريقهم إلى عمق حكمتهم المترفة. فعلى مدى كلّ لحظة من حياتهم، لم يكونوا مطلقًا في وضعيّة تجعلهم في مرمى تلك القسوة. كأن يطرحوا الاشكاليّات الّتي تطرحها الإنسانيّة. فهم لا يحصلون من كلّ ذلك إلاّ على الأموال: هذا لأنّ هناك فلسفة **برجوازيّة باطنيّة**[143]، تعبّر عن العمل الحميم للبرجوازيّة، هي عمليّة لذاتها وفي ذاتها ومن أجل ذاتها. وهي تركّز في استخدامها على النّماذج الّتي وفقها تكون. كما هناك **فلسفة برجوازيّة ظاهريّة**[144] موجّهة نحو الخارج وتعبّر عن بعض القواعد المقتضبة عن كلّ ما ينبغي معرفته عن الفلسفة. إنّ النّوع الثّاني شبيه بنسخة ساذجة من النّوع الأوّل. مجرّد تبسيط استخدامها من طرف هؤلاء المسلوبين من الّذكاء والّذين يكوّنون ما يسمّيهم البرجوازيّون بـ «الشعب». إنّ هذه النّسخة وهذا التّبسيط قد تمّ تعميمهما من قبل المدارس الابتدائيّة. يغترف كلّ فرنسيّ في الثّانية عشر من عمره من هذه المدرسة المادّةَ المستخرجةَ من الفلسفة لأجله، تعاليم كنسيّة أخلاقية ما يتمّ تقديمه في شكل دروس. تعاليم حيث لا مكان لأيّ دلائل. لكنّها تعاليم مُقدَّمة كما لو أنّها نتيجة

(143) . فلسفة «إيزوتيركيّة» ésotérique، قد تسمّى أيضا بـ «العلوم الخفيّة» أو «الباطنيّة» وهي كلمة مستمدة من الإغريقيّة وتعني كلّ ما هو متّصل بالدّاخل أو الباطن.

(144) . فلسفة ايكزوتيركيّة exotérique (عكس إيزوتيريكية)، وتعني كلّ ما هو شعبي، مدنّس ويعود أصل تأسيسها إلى أرسطو.

لتأمّلات شاقّة ومتقنة وعاكسة لحقيقة البشر الطيّبين الّذي يوكل إليهم إنتاج هذه الفلسفة. في منطقة نائية تخترقها عواصف علميّة وتدمدم في سمائها بروق فكريّة، هناك حكماء يبلورون في كنف الغموض الفلسفة الكونيّة. فتبدو الحِكَمُ في صياغتها البسيطة والّتي يتمّ نقلها باسمهم قائمةً على أسس ثابتة للأعمال. لعلوم ذات إرادة طيّبة. إذ الفكر البرجوازيّ دائما ما يعلن: «صدّقوا ما أقوله. إنّ كلّ ما أعلنه لكم صحيح. وكلّ المفكّرين الّذين أكوّنهم قد عملوا طويلا من أجلكم. لستم في وضعيّة تسمح بإعادة التّفكير في كلّ مصاعبكم، ولا أن تعيدوا قطع ما قطعوا من طرق، لكن، [بدل ذلك] لكم أن تُصدّقوا نتائج هؤلاء النّاس النّاكرين لذواتهم والأنقياء. هؤلاء الموسومون بعلامة عظيمة. هؤلاء الّذين يحافظون على مسافة كافية عن العامّة فقط من أجل أن يعملوا على أسرار الحقيقة والعدل. هكذا كان الاحترام المستمدّ من قبل رجال الدّين مادّةً صالحة للاقتداء بها».

ظلّ الشّعب يعيش طويلا في كنف ثقة ما، في ظلّ أمان طفوليّ. وظلّ يعتقد طويلا بأنّ الغموض الّذي فيه يُبلور العلم والفلسفة هو [غموض] بعيد المنال. لا ينتمي إلاّ إلى عدد قليل من النّاس المتفرّغين في صمت من أجل الوصول إلى الخلاص العامّ. الأمر شبيه بالنّسبة إليه ببلد بعيد مكسوّ برفعة دينيّة حيث يقبع مفكّرون أكثر مثاليّة من كلّ هؤلاء الّذين يمثّلونهم وهم يعيشون في خدمة العقل. إنّه [شعب] يؤمن تماما بما تريد له البرجوازيّة أن يؤمن: بأنّ السّلطة البرجوازيّة المؤقّتة كانت حقّا مضمونة، وهي مستحَقَّة بفضل القيم الرّوحيّة لمفكّريها، وبأنّ الأولى بقيادتها هم حقّا بصدد القيادة من زمن، وبأنّ القيادة قد تمّ مباركتها عبر امتلاك قيم كانت

في الأصل ممنوعة بسبب دونيّة طبيعتها الملموسة وطبيعتها العاديّة لا بسبب وضعيّتها الاجتماعيّة. تحاكم [هذه القيادة] نفسها بنفسها بكل ما يلزم من تواضع بينما تحاكم البرجوازيّة بكلّ الاحترام الممكن وبكلّ الايمان المطلوب. هي إذن قيادة لم تكن يوما بمعزل عن هذه القيم الّتي تفرضها الإرادة البرجوازيّة الّتي لا يشغلها في الحقيقة إلاّ احتكار [تلك القيادة].

***

لكنّ الّذين لم يكونوا برجوازيّين البتّة، لكنّ البروليتاريا الّتي تمثّل لبّ السّؤال منذ بدء هذا المقال لم تلتجئ إلى استخدام هذه الحكمة الّتي لا جدوى منها، فليس لهذه الحلول الأشباح ولو تدخّلا واحدا في مساعدة ذاك الّذي بعيدا على أن تكون حياته بهذا الفراغ الفكريّ. كما لم يعتمد مطلقًا على هذه الثّقافة الّتي كان يراها من بعيد على هيئة إغواء أو مكوّن من مكوّنات رغباته المُستحيلة.

نحن لا نطرحُ من ضمن أهدافنا العمليّة مطالبة هذه الثّقافة الرّوحيّة وهذه الفلسفة الّتي لا يمكن تطبيقها على مصير العمّال، فلا يمكن لهذه الحكمة الّتي تنتجها البرجوازيّة أن تُغوي أو تبرّر إلاّ نفسها، من شأن التّطوّر الدّاخليّ للفرد وتطوّر العقل الّذي يحتاج إلى عواطف الانسان، المأدبة الخياليّة لكائنات قادرة على تبادل أفكار معقولة، المنظومة المنسجمة مع العالم، التّبريرات المثاليّة، كلّ هذه المؤسّسات التّابعة للفلسفة من شأنها أن تتداعى تحت صدمات حياة مشوّهة وقاسية في تسارعها. إثراء للفرد؟ بالنّسبة إلى عامل في خضمّ عمل متسلسل، بالنّسبة إلى عامل من أولئك الّذين بُتر عضو من أعضائه تحت وطأة الآلات الّتي صار لها عبدا؟ أ هو عالم منسجم بالنّسبة إلى فرد كانت احتجاجاته قد أُخمِدتْ من طرف أعوان

حرس متنقّلين؟ أيّ تبريرات نقدّمها لفرد ليس له ما يخسره، هذا لأنّ لا أحد يعيش في حمايته؟ إنّها اللاّجدوى من فلسفة لا تكفّ عن التّأكيد بأنّ القيم الّتي تقترحها ملائمة لكلّ الأقدار الحياتيّة: لن تتمكّن نفس «الحكمة» أو نفس الأخلاق ونفس الرّؤية العلميّة بكلّ تأكيد من إرضاء السّادة والعبيد. ليس لأناس محرومين من رضى واقعيّ سوى بالالتجاء إلى صنع عوالم خياليّة مستنبطة من الفكر البرجوازيّ. ففقاقيع الصّابون هذه الّتي نفخ فيها المفكّرون العُجّز ستتفجّر في أوّل هبة ريح تخترق ساحة المصانع والشّوارع الحزينة حيث تتفرّق أكواخ العمّال. كان السّيد برنشفيك قد كتب:

«في كلّ الأحوال، سيكون في نظرنا دون سواه أن يبدو عبثًا ما وهو يسعى ضدّ الثّقافة والذّكاء، سلاح للعجّز وقد تمّت جرجرته إلى هنا من طرف مادحي الطّبيعة البدائيّة والغريزة: لا الثّقافة ولا الذّكاء قد وعدا بإنقاذ أولئك الّذين ليس لهم لا طاقة لتنمية أنفسهم أو للفهم، انقاذهم رغم أنوفهم، إذ هي لا تتيح حقيقة واحدة إلاّ للعقول القادرة على التّثبّت من أنفسها بأنفسها بأنّ خلاص الإنسان يكمن في الإنسان ذاته».

لكنّنا لن نرى شيئا من جملة مشابهة إلاّ خلطا من الانتقاد والإهانة والاكتفاء البرجوازيّ. أضف إليها هذه الاستقالة المعلنة في كلّ خطوة. كيف يمكن لهذا الوعد الكونيّ البسيط في ظاهره أن يتحقّق؟

إنّ هذه الكونيّة لهي موعودة بالفشل كلّ يوم وبالنّسبة إلى كلّ فرد، يرى كلّ فرد بأنّ خلاصه ليس بداخله. لذلك على كلّ منهم أن يضمن خلاصه الأقرب والأسرع من كائنه الدّاخليّ الخاصّ. كم إنسانا في عالم اليوم هذا، من الّذي عليه أن يضمن حياته قبل روحه! يا للسّخريّة المُرّة والوقحة الّتي

تصطنعها تصريحاتُ السّيّد برنشفيك والموجّهة لهذا الإنسان بالذّات، فيقول على سبيل المثال كمراسل للإنسانيّة:

«أنا عاطل منذ أربعة أشهر. أتلقّى كلّ أسبوع اثنين وأربعين فرنكا منحة بطالة. أدفع منها ثلاثين فرنكا إيجارا للغرفة. عليّ إذن أن أعيش بسبعة عشر لمدّة سبعة أيّام. لا يتوفّر لي خبز كلّ يوم».

بإمكانهم التّحدّث كما ينبغي عن نشوة الفرد الإنسانيّ. دفْع الإنسان هنا إلى أن يكون فردا. يمكنهم أيضا التّحدّث كما ينبغي عن تحرّر الرّوح وعن تجاوز الذّات. «يريد الإنسان أنّ يحقّق ذاته بوصفه روحًا عبر مجهود تحرّري متنام». قال السّيّد روي. لكنّ ماركس كان قد قال: «ليس متاحا للجماهير أن تعتبر منتجات استيلابها الخاصّ مجرّد خرافات مثاليّة، وأن ترغب حتّى في القضاء على الاستلاب الماديّ عبر فعل روحيّ نابع من الدّاخل.

... فمن أجل أن تتحرّر [هذه الجماهير] لن يكفي النّهوض بالرّوح بترك أنْيَار حقيقيّة وحسّاسة حائمة حول رأس حقيقيّ أيضا، هذه الأنيار الّتي لن تتدمّر من تلقاء نفسها أو بأفكار ساذجة. لقد علّم النّقدُ المطلقُ الفنّ بأن ينقل السّلاسل الحقيقيّة والموضوعيّة والخارجة عن شخصي إلى سلاسل مثاليّة تماما موضوعية وداخليّة وأن يحوّل الصّراعات الخارجيّة الحسّاسة إلى صراعات بسيطة ومثاليّة». سيتعرّف النّاس الّذين يعيشون على الأرض على مقولات ماركس لا على مقولات الأشباح. كما يمكن للسّيد برنشفيك وهو في غمرة الصّمت المميّز الّذي يخيّم على شارعه أن يحكم بِحَيْرة رخوة وحلوة وبإشكاليّات خلاصه الدّاخليّ.

عاطل، عامل، لا. لكنّ هؤلاء النّاس لا ينسوا البتّة فاقتهم وألمهم وإذلالهم. لن يظلّوا منخدعين إلى أجل غير مُسمّى بهذه الأجهزة الكبيرة

الخاصّة بالوهم، وهذه الدّيكورات المصطنعة الّتي في ظلّها تربّي البرجوازيّة سلطتها بكلّ قسوة.

***

هكذا إذن هي هذه الفلسفة الّتي تعمل على إخفاء بؤس العصر، الفراغ الرّوحي لبني الإنسان، الانقسام العميق الّذي يصيب وعيهم، وهذا الفصل المزعج بين سُلَطهم والحدود الملموسة لتنفيذها الّذي يتزايد كلّ يوم. إنّها فلسفة تخفي الوجه الحقيقيّ للهيمنة البرجوازيّة. إنّها لا تخدم «الحقيقيّ» الّذي لا يوجد، الكونيّ الّذي لا يوجد، المطلق الّذي لا يوجد، بل تخدم ضدّ السّخط والثّورة وهما يعتملان في الصّدور. إنّها تعمل أيضا على تحويل وجهة المُستغـَلّين من التّأمّل الشّاقّ لمُستغِلّيهم، من [تأمّل] تدهورهم وإذلالهم. لها من المهامّ أيضا أن تدفع لقبول أمر ما بأن تجعله محبوبا وذلك من خلال صبغه بسمة النّبل وأن تقدّم مبرّرات ضافية له. إنّها تلغز ضحايا النّظام البرجوازيّ وكلّ الّذين من شأنهم أن يثوروا ضدّه. لتوجّههم إلى طرق مؤدّية إلى كراج حيث تنطفئ [شمعة] الثّورة.

وإنّها لتخدمُ الطّبقة الاجتماعيّة الّتي هي سبب لكلّ التّدهور الحاليّ، الطّبقة ذاتها الّتي ينتمي إليها الفلاسفة. كما لها أخيرا وليس آخرا وظيفة متمثّلة في توضيح وترسيخ ونشر الحقائق الجزئيّة الّتي تنتجها البرجوازيّة والّتي هي صالحة لتركيز سلطتها.

كلّ هذه الحياة الطّفيليّة للفلسفة موجّهة ضدّ البشر القابعين صدفة منذ ولادتهم أو على مرّ حياتهم خارج أسوار البرجوازيّة. إنّ الحاجيّات الإنسانيّة ومصائرها هي من هنا فصاعدا متعارضة مع المبادئ والفضائل والدّفاعات والآمال البرجوازيّة، فمن يخدم البرجوازيّة لا يخدم الإنسانيّة.

***

إنّ الفلسفات الّتي تُنتجها البرجوازيّة وهي على رأس السلطة، والفكر البرجوازيّ المُنصّب على السلطة الرّوحيّة لَهِيَ فلسفات منقوصة: هذا لأنّها لا تحسب ولو حسابا واحدا لحالة الفقر، لحالة العبوديّة، وهو ما يجعلها غير ملائمة مرّة أخرى إلاّ للمضطهِدين.

لكن ينبغي أن نكرّر مرّة أخرى بأنّ قانون الفلسفة لا ينصّ على وجوب الدّفاع العمليّ عن الحرّيّة العمليّة وعن الثّراء العمليّ. مثل هذا القانون هو قانون خياليّ بحت. لم ينصّ عليه ولو إله واحد. لم يسنّه ولو عقل واحد. ما يترتّب عن ذلك أنّه لا وجود لجدليّة مقنعة لسلسلة الأسباب الكفيلة بأن تجبر المفكّرين المعاصرين على توخّي هذا الدّفاع الاستعجاليّ باسم أيّ قاعدة أخلاقيّة مطلقة للفلسفة. لكن وكاستشراف، وكما يقول السيّد برنشفيك إنّ الفلسفة الّتي تُعتبر في طور نموّها لا تشتمل على أيّ ضرورة جوهريّة وعلى أيّ مبدأ ضروريّ من شأنها أن يدفعاها جوهريًّا في اتّجاه ذاك الّدفاع. لكنّه موجود، كما كان دائما موجود على شكل إرادات جوهريّة وقد وجّهت وستوجّه المراحل المتعاقبة لتطوّر الفلسفة. إرادات من شأنها أن تسرّع إيقاعها أو تبطئها أو تعود بها على أعقابها وتجعلها تسير في معارضة لمعانيها السّابقة.

ليس من قبيل العبث ولا من قبيل اللّامعقول جوهريًّا، ما يعني متعارض مع المبادئ الأساسيّة أن تفضّل الفلسفة الفقر عن الثّراء، العبوديّة عن الحرّيّة. حدث وأن أقبل فيلسوف إلى [مأوى] الجمعيّة الفرنسيّة للفلسفة ليعلن بسذاجة في خضمّ مقابلة حول وظائف العقل بأن:

«لا يمكن للعقل أن يُصدم أمام انقسام مجتمع إلى مسيِّرين ومسيَّرين، إلى أثرياء وفقراء».

لا وجود لشتيمة واحدة قادرة على انتهاك [حُرمة] العقل. فهذه الآلة الحالمة الّتي ليس لها ما تفعله سوى أن تفهم وتفسّر، لكنّ ليس أن تقرّر أو تختار. إذا ما شعرنا بواقعيّة هذا الانتهاك فنحن نعلم تماما وعلى الفور بأنّه غير موجّه ضدّ هذه الآلة، وليس ضدّ كلّ سلطة من نوع آخر، ضدّ كلّ الضّرورات إلاّ الخاصّة بها، ضدّ كلّ شخص وليس العلماء العاملين كساعاتيّين في لب العقل، لا وجود لمفهوم حميم للفلسفة، مفهوم حامل في أصله لسرّ كلّ ما ينبغي أن يكون عليه تطوّره، تطوّر قيَمه وعواقبه. فمثلما يحتوي التّعريف بالمثلّث منذ البدء على سرّ كلّ خصائصه ليدافع عنه ضدّ كلّ العبثيّات المحتملة، كأن نقول على سبيل المثال إنّ زوايا المثلّث لا تعادل قيمة مستقيمين. لا وجود في الفلسفة إلاّ لتناقضات تاريخيّة، إذ ليست الفلسفة مجرّد رمز في فضاء خال من الهندسة.

***

مع كلّ ذلك، هناك أناسٌ في طيب العيش. أناسٌ يدّعون الثّروة وهم محرومون منها، أمّا تلك الحرّيّة الّتي لا يمارسونها عمليًّا فهم مضطرّون على تخيّلها لا أكثر، كما كان عليهم أن يلتجئوا مؤقّتا إلى تأليف أحلام ومشاريع متعلّقة ببعض الحالات الممكنة بكلّ بساطة والمتعلّقة بالحياة الإنسانيّة. لكنّهم لا يفضّلون مطلقا أن يظلّ الحلم حلما، أن تظلّ الاحتمالات بلا نظير لها في الواقع ولا مادّة إلى ما لا نهاية له.

إنّهم لا يملكون لا الوقت ولا الرّغبة ولا الوسائل المنطقيّة كي يثبتوا لفلاسفة زمنهم بأنّ فلسفاتهم متناقضة مع فلسفة مطلقة لن يتمكّنوا من

تصديقها. إذ هم غير مدركين تماما لهكذا تناقض تاريخيّ، لكنّهم كانوا قد تلقّوا التّحذيرات الكافية من قبل هذا التّناقض التّاريخي بين ما تدّعيه الفلسفة البرجوازيّة وما تمارسه على أرض الواقع. ومع ذلك يمنحون أيّامهم الثّمانية للفلاسفة الّذين هم مزيّفون ليس في نظر الفلسفة لكن في نظر بني البشر. الفلاسفة بزيفهم الّذي لا يمثّل ضعفًا تقنيًّا خاصّا بالفلسفة وإنّما هو من قبيل التّهجّم الحقيقيّ ضدّ حياة البشر.

نعود كما نحن دائما إلى فكرة أبناء الأرض الفظّة، [الأبناء] الّذين يحكمون عبر النّتائج الفعليّة وليس عبر المبادئ والالتزامات الشّكليّة للأفكار. إنّ الفكرة الأكثر تجريدا من ضمن أفكار أخرى مرتّبة داخل منظومة ما تحتوي، رغم العقل ذاته الّذي ينتجها، على نتائج وعواقب ملموسة: فهي ليست جزءا من العلم الّذي يصف موضوعه بكلّ التّقديرات الممكنة وبكلّ الحساسيّات المتاحة.

تصف البيولوجيا ظواهر الجسد كما تفعل الفيزياء نفس الشّيء مع الأحجار المتهاوية. إنّها لا تتمنّى البتّة أن يكون موضوعها جاهزا خلافا لما هو عليه، ولا تجد متعة في أن يكون تماما كما هو عليه، كما لا تبذل أيّ مجهود من أجل أن يصبح مختلفا عمّا هو عليه. إنّها لا تنبذ ولا تقبل. لكنّ الفلسفة بكلّ التّجمّد الّذي يوحي به ظاهرها، بكلّ الخشونة الّتي تبدو عليها هيئتها كما كانت دائما، وهو تماما ما تقوله دائما: هذا ما ينبغي فعله، هكذا يكون كلّ شيء على ما يرام، وهكذا تسوء الأمور، لا يمكن للإنسان أن يواصل في الطّريق الّتي التزم بالسّير عليها حاليًّا. فهي ترجو وتخشى وتأمل. إرادات حذرة وخجولة ومنافقة وجريئة، واضحة وعنيفة لكنّها تظلّ دائما إرادات. آمالا وأمنيات ووصفات.

ما يريده أبناء الأرض اليوم هو أن تساعد الفلسفة النّاس على الثّراء.

فهم لا يصفون ببرود حالتهم. عندما لا تتمكّن الجيولوجيا من التّعرّف على أحجارها القديمة، أو عندما لا تتمكّن الفيزياء من الحفاظ على توقها عندما تلقي أحجارها في الفضاء بأن تواصل صعودها إلى الأبد مثل عصفور «**الخيّاط الصّغير الشرّير**»[145]، فإنّه بإمكاننا على عكس ذلك أن نتوق إلى حياة جديدة تدرّب الإنسانيّة على العيش.

وبما أنّه لا وجود لوجهة أبديّة للفلسفة، ولحِكَمٍ خارق للفلسفة، إليكم الوضعيّة الّتي نحن فيها الآن: هناك مفكّرون من الّذين يقبلون بالعبوديّة الحاليّة الّتي تطال جزءا كبيرا من بني البشر، وهناك البعض الآخر من هؤلاء النّاس الّذين لا يحبّذون هذه العبوديّة، لذلك [ها هم] يشنّون ضدّها وضدّ مؤيّديها هجمة نظريّة وأخرى عمليّة، هم أناس يعتقدون بأنّ العبوديّة مناسبة مهمّة لطرح إشكاليّات حقيقيّة.

كان الصّراع قائما دائما بين هاتين الشّريحتين من النّاس: منهم من هم مقتنعون بأنّ كلّ شيء على ما يرام أو هو سيصبح كذلك، والآخرون الّذين يصعب إقناعهم بذلك، أصدقاء للانسجام وأولئك الّذين لا يرون الانسجام هناك حيث لا يوجد حقّا. بعضهم مستفيد نهاية من تدهور وضعيّة البشر والآخرون ممّن هم يعانون. بعضهم ممّن يرون بأنّ الامتلاء والكمال مجرّد أحلام يقظة، وآخرون ممّن هم يفرضون مؤقّتا وبكل واقعيّة إشباعهم رافضين للآمال السّهلة، للأراضي الخياليّة الموعودة ولكلّ عزاء مقترح من الشقّ المقابل. يريد بعضهم أخذ المثانات على أنّها فوانيس وآخرون عنيدون يرون المثانات على أنّها مجرّد جيوب للبول. دائما ما تضعنا الصّدفة مع المستغِلّين: يمكن إيجادهم في كلّ مفترق طرق من التّاريخ، كان أرسطو مستغِلاّ، بينما أبيقور لم يكن ينتمي لحزب المستغِلّين.

---

(145) . لخيّاط الصّغير: وعنوانها أيضا «سبعة بضربة واحدة»، خرافة شعبية من أصل ألمانيّ تمّت استعادتها من قبل الأخوين غريم في الجزء الأوّل من حكايا خرافيّة من ألمانيا.

قد يُقال لي إنّي أسيء الفهم، وإنّه إذا ما تعارض مفكّر مع الحرّيّة الواقعيّة للإنسان فإنّه من المستحيل أن نستنتج من ذلك بأنّه عدوّ له، إذ يمكن لقدر الإنسان أن يتشكّل ملء الحرّية المثاليّة كما ملء العبوديّة الواقعيّة. لكنّي أكتفي بالقول إنّي لا أحبّ موقف العقل: **إنّي لا أسأل العقل إن كنت محقّا.** مع أنّي أعتقد بأنّ خصومي على خطأ بكلّ موضوعيّة، هم مخطئون كما يقولون بلغتهم الخاصّة.

وأنا على ذلك كلّه أقتسم حدس الطّبيعة والحيوانات. لن أؤمن بأنّ مصير الإنسانيّة هو مجرّد حياة حيث تُهان قواها الطّبيعيّة وحيث تختنق شهواتها الإنسانيّة. وهو نفس ما قاله ماركس في «البيان»[146] هذا إذا ما قُرئ هذا الكتاب جيّدا. وقد كرّر نفس قوله في «العائلة المقدّسة»[147] على الرّغم من أنّ العلماء البرجوازيّين الّذين هم دائمو العبوس قد وجدوا بأنّ تحليل شخصيّة «وردة مريم»[148] كان تحليلا مضحكا... وها هنا تكمن فلسفة المستغِلّين.

لقد لقّننا معلّمونا في المدارس بأنّ كلّ سلسلة من الأفكار تنطلق كلّها من وضعيّات افتراضيّة. هل كانوا قد أصمّوا آذاننا بما فيه الكفاية بالضّربة **العبقريّة لإقليدس**[149] بخصوص وضعيّة «المتوازيات»؟ هل كنّا بذاك

---

(146) . بيان الحزب الشّيوعي: كتاب لكارل ماركس وفردريك انغلز، يحتوي على تحليل دقيق للصّراع بين الطّبقات الاجتماعيّة.

(147) . لعائلة المقدّسة: كتاب لماركس وانغلز، نُشر سنة 1844، وهو كتاب موجّه أساسا لنقد الهيجليّين الشّباب واتجاههم الفكري.

(148) . خصيّة من رواية متسلسلة تحمل عنوان «أسرار باريس» للكاتب الفرنسيّ «أوجين سو» (1804. 1857)، وفيه وصف دقيق لبؤس باريس في ذاك الوقت. أمّا «وردة مريم» Fleur de Marie فهو اسم شخصيّة من شخصيات هذه الرّواية المتّصفة بالهشاشة وهي ابنة غير شرعيّة لرودولف إحدى الشّخصيات الفاعلة في الرّواية.

(149) . إقليدس ولد سنة 300 ق. م. وهو عالم رياضيّات يوناني، ملقّب بأب الهندسة، عُرف بكتابه المعنون بـ«العناصر» كما هو مؤسّس ما نسمّيه اليوم «الهندسة الإقليديّة».

الاندهاش ونحن أمام **ريمان**[150] أو **لوباتشيفسكي**[151]؟ لنا فرضيّاتنا نحن أيضا، ولا نملك أدنى رغبة في التّدليل عليها: لقد علّمنا السيّد برنشفيك نفسه بأنّ رفعة الرّفعة تكمن في عدم محاولة هذا النّوع من التّدليل. لكنّه أمر نحسّه إلى حدّ ركبنا وإلى آخر نقطة من جلودنا. يخرج هذا التّأكيد من أجسادنا ومن الأماكن الّتي نشغلها في هذا العالم الآيل للسّقوط، حيث أصبح تطوّر الوعي ما يغرقنا في وهم متزايد، وليس في جداول من الإحصائيات، من أعداد «فوق متناهية» وحساب «الأعداد المصفوفة». إنّ القوّة تريد أن تمرّ إلى الفعل. فما بإمكانه الوجود يريد التّحقّق. ونحن مطمئنّون لكون فلسفات اليوم هي فلسفات مزيّفة لأنّ الّتي تناقضها هي [فلسفة] ضروريّة بالنّسبة إلينا كضرورة تنفّسنا وخطوتنا.

حاولوا أن تثبتوا لنا بجدليّة وبأسلحة عقولكم المفكّرة وعقولكم المُفكَّر فيها، بهوسكم كمقتصدين أو كخبراء في التّأمينات بأنّ البشر مخطئون تماما في رغبتهم في التّنفّس، في النّوم، في الحصول على الدّفء شتاء، في حبّ النّساء اللاّتي أحببنهنّ، في المشي حيثما يريدون، في العمل، في الأبدّاع، في التّنعّم بالسّلام. أثبتوا لنا بأنّنا نسير ضدّ تيّار طبيعتنا وضدّ تاريخنا وأنّنا نسبح في مواجهة كلّ ذلك.

لقد حان وقت الهدم من جديد. استعاد كلّ من هو «سيليغا» وكلّ من هو «**بوور**» وكلّ من هو «**دورهينغ**»[152] وبر الوحش. فَلْيَتَلَقَّ فلاسفتُهم ضربات من نبّوت الثورة إذن!

---

(150) . رنارد ريمان (1826. 1866)، عالم رياضيّات ألماني، له مساهمات عديدة ومهمّة في التّحليل الرّياضي، وفي نظريّة الأعداد والهندسة التّفاضليّة.

(151) . يكولاي لوباتشيفسكي: (1792. 1856)، رياضيّ روسيّ، عُرف خصوصا بما يسمّى «الهندسة الخياليّة» ووضعه لمصطلح «الهندسة اللاّ إقليديّة».

(152) . يليغا، بوور، دورهينغ: أسماء ناشطين ومفكّرين يشتركون في معاداتهم للفكر الماركسي والثّورة بشكل عام.

5

الوضعيّة المادّية للفلسفة

سندرك بسهولة بأنّ المتناقض مع طبيعة الفلسفة هو أن تكون مصدر رزق... من شأن الضّرورة الوحيدة الّتي مازالت تضعها الإمبراطوريّة على كاهل الفلسفة أن تجعلها تتحمّل كلّ أنماط الرّأي العامّ.

إ. كانط مقطع من محاضرة 1765 ــ 1766

قد لا تكون الأسرار المتحوّلة الّتي وراء استقالة الفلاسفة هي الأكثر أهمّيّة. فالأمر يتعلّق مرّة أخرى بفعاليّة الأفكار الّتي يمكن أن تُوجَّه ضدّ الانسانيّة، كما هو الأمر عند لايبنيتس، أو في صالحها كما هو الأمر مع أبيقور وماركس.

إنّ الحرص الّذي يدفعني إلى ربط الفكرة بالمنفعة البشريّة، فالتّجارة الّتي ظلّت لفترة طويلة مُرفقَة ببعض النّظم الإنسانيّة للفلسفة، هو ما يدفعني إلى البتّ قبل أيّ انشغال آخر في النّشر وفي ظروف السّلطة الممكنة لهذه الفلسفة البرجوازيّة. فمن الممكن في الواقع ألاّ تكون أهلا لأدنى تهجّم.

سيكون من الممكن في النّهاية أن يكون كلّ هذا الإنتاج الفكريّ بلا وزن يُذكر، ولا يؤدّي إلى أيّ نتيجة تُذكر، وبأنّه لا يساعد أحدا على العيش

ولا يمنع أحدا من العيش أيضا. لكنّ الإشكال الحقيقيّ لا يكمن هنا: إذا ما طرحنا على أنفسنا كما نحن دائما السّؤال الوحيد المتعلّق بفعاليّة الأفكار، فإنّه سيكون بإمكاننا أن نجيب بأنفسنا بأنّ الفلسفة في فرنسا تملك حقّا هذه الفعاليّة.

إنّ لها أدوات، وتمتلك وسائل [كافية] للبروبّاغندا. كما أنّ الأفكار الّتي تمتلكها والّتي تضعها قيد التّداول لا تتّجه صوب السّماء بل تعاود السّقوط على الأرض فتصيبُ نفس أولئك الّذين عليها أن تصيبهم. هناك عدد كبير من المؤسّسات الّتي تدعمها وتعمّمها وتُكسبُها. إذ هي ليست معزولة عن عامّة السّكّان. ولها عليهم تأثيرات واضحة للعيان. ففي الوقت الّذي فيه نحيا وفي نفس هذا البلد، تسعى البرجوازيّة إلى امتلاك كلّ الوسائل وكلّ القنوات الّتي ليست بحوزة الثّورة.

ما يمكن أن يمثّل لبّ السّؤال هنا واضح وجليّ. فما يحدث منذ ما يتجاوز القرن بقليل، هو أنّ الفلسفة الفرنسّة صارت نوعا من المؤسّسة العموميّة بالنّسبة إلى بعض المقاتلين الموازين الفرنسيّين. لذلك فإنّ الأفكار الفلسفيّة هي في وضعيّة جدّ مميّزة. فهي تمتلك كلّ ما من شأنه أن يخوّلها لأن تعبّر عن نفسها وأن تتمركز كجهاز حقيقيّ للدّولة. مثلها مثل العدالة، مثلها مثل جهاز البوليس، مثلها مثل الجيش. إنّ كلّ هذه الأفكار هي من إنتاج الجامعة، الأمر يحدث كما لو أنّ الفلسفة في عمقها ليست شيئا آخر سوى فلسفة دولة.

ممّا لا شكّ فيه، سيكون من قبيل الأمر الصّبيانيّ أن نقدّم هذه الآلة بطريقة روائيّة فظّة، لا يجتمع وزير الدّاخليّة مع نظيره في التّعليم العموميّ من أجل تحديد مواضيع أطروحات الدّكتوراه والدّروس المُبرمجة لهذه

السّنة: كالفقر الفكريّ للحكومات ووعيها الضّيّق وحماقتها في النّهاية وهو الأمر الّذي يُلغي كلّ ديْن للفرضيّة القائلة بوجود مؤامرة منهجيّة. لكنّنا نتبيّن بالفعل بأنّ هناك في فرنسا نوع من الفلسفة المتوسّطة، الّتي تلاءمت ومازالت تتلاءم وستتلاءم لوقت أطول مع مصائر البرجوازيّة ومصالحها وحاجيّاتها الأقلّ وضوحا من دولتها وذلك برموزها [المقتضبة] الّتي تتضاعف كلّ يوم لتُعلن انتشار [ثقافة] الاختزال. يلاحظ السّيّد **باندا** بأنّ **أغلب الفلاسفة لا يعيشون حياتهم** «مثل ديكارت أو سبينوزا، فهم يتزوّجون وينجبون أطفالا ويحصلون على عمل، إنّهم في قلب الحياة». إنّ ما يمكن أن نلقيه عليهم من لوم ليس في الحياة في مجملها بل في [علاقتهم] بالحياة البرجوازيّة: من المهمّ حصرا أن يكون عموم المفكّرين أُجَرَاء لدى الدّولة، وأن تكون المواقف الرّئيسيّة الّتي تتبلور في هذا البلد في وضعيّة مبادلة مع الشّأن العامّ ومتعلّقة بضمان حكوميّ. من المهمّ جدّا أن يعيش الفلاسفة من التّجارة ومن الصّناعة الحكيمة ومن الإدارة الحكيمة أيضا لِسلعهم الرّوحيّة.

نحن نعرف من ناحية أخرى بُنية الدّولة الفرنسيّة ومعناها ووظيفتها: فهذه الآلة العملاقة للبوليس والعدالة والجيش والمكاتب، وهذا الجهاز المهول الّذي يتمّ تحذيره من كلّ ما لا ينبغي فعله في فرنسا، من كلّ ما هو مقيَّد وغير مقيَّد والّذي هو ليس سلطة روحيّة. لكنّ هناك توكيل وأداة لقوى ماديّة حصريّا: إنّه ما يمكن للبلد أن يمتلك من جرأة علمانيّة. وإنّه يركّز ويحمي المصالح والمخطّطات وأملاك الطّبقة الأولى في فرنسا. يحفظ كلّ تنظيمها وكلّ مركزيّتها المواقعَ الّتي تمكّنت هذه الطّبقة من الحصول عليها فعليًّا.

ورغم ذلك، لا يمكن لدولة أن تكتفي بالتّعويل على قوّاتها الوحشيّة كقضائها وجيوشها وموظّفيها وشرطتها. إذ يمكن أن تعتمد على وسائل سيطرة أكثر مكرا. ليس من الضّروريّ دائما مقاتلة وإسقاط الأعداء الواضحين باستخدام القوّة: يمكن أن نبدأ بإقناعهم قبل كلّ شيء.

وهو ما يجعل السّلطة القمعيّة تتضاعف باعتماد السّلطة الوقائيّة. وهو أيضا ما يدفع دولة ناجحة إلى ضمّ أجهزة من السّلطة الرّوحيّة. تتكرّر هذه الوضعيّة دائما. كان قرن لويس الرّابع عشر قد وفّر مشهدا يحتوي على اجتماع متكامل للسّلطة الرّوحيّة والسّلطة المادّيّة. وبأكثر عموميّة، كان النّظام الملكيّ القديم يمتلك مؤسّسة مختصّة في الرّوحانيّات الّتي هي الكنيسة. لذلك كان آباؤنا يرون بشكل أوضح ويتكلّمون بأكثر صراحة من أناس اليوم: هذا لأنّهم كانوا يؤمنون فعلا بأنّهم يمتلكون ذاك الحقّ ـــ وهذا الحقّ كان حقّا إلهيًّا ـــ لا يمتنع رجال ديننا وهم ربّما أقلّ تأكّدا من امتلاكهم لهذا الحقّ، لا يمتنعون البتّة على أن يكونوا منافقين كما هم ليسوا ممّن يستعرفون دون قتال بهذا الاتّحاد ما بين السّلطتيْن.

كان المحامي العامّ «سيغي»[153] يقول:

«لقد حانت اللّحظة الّتي يُجبر فيها رجال الدّين والقضاة على الاتّحاد. وإنّهم باتّفاقهم السّعيد هذا سيتمكّنون من إزاحة كلّ الهجمات الّتي تحيكها أياد آثمة ضدّ العرش والمعبد... سيحسب كتّاب العصر أخيرا ألف حساب لهذا الاتّحاد المرغوب فيه بين الكهنوت والإمبراطوريّة...».

كما يمكن أن نقرأ في إحدى لوائح الاتّهام ضدّ كِتَابٍ:

(153) . بير سيغي (1588.1672)، سياسيّ فرنسي، شغل خُططا ملكيّة مهمّة في مملكة لويس الرّابع عشر.

«هكذا هو دستور المملكة الّتي نحن محظوظون بالعيش في كنفها تحت إمرة سُلطتيْن على أهبة تبادل المساعدة وما السّلام الدّاخليّ وازدهار الدّولة إلاّ ثمرة لانسجامهما، أمّا الفوضى الّتي لم تقدر السّلطة الرّوحية على إيقافها باعتماد أسلوب الاقناع فعلى السّلطة المادّية أن توقفها باستخدام القوّة».

عندما سحقت الثّورة البرجوازيّة نظام المؤسّسات [الدّينيّة] حيث تعطّل نموّ شبابها الأقوياء، كان من الضّروريّ تعويض هذه السّلطة الرّوحيّة، لذلك فالمناصب الّتي كانت تضطلع بها الكنيسة في ظلّ الحكم الملكيّ وقع تعويضها في ظلّ الجمهوريّة بالمدرسة والجامعة والدّولة. هي سلسلة كانت قد حدثت على مرأى من أعين آبائنا حيث تمّت ترقية الكهنوت اللاّئكيّ إلى مرتبة كهنوت كنسيّ. لكليهما مهمّة ضمان كلّ ما في الدّولة من أشكال الإقناع والبروبّاغندا ذات البعد الرّوحي. ينبغي التّجرّؤ على التفكير حتّى ندرك بأنّ الجامعة ليست أكثر من رافعة روحيّة للدّولة، وأنّها تشكّل وتشرح وتنشر المبادئ المتوالدة على مستوى «الرّوح» عبر نفس المصالح الّتي تدافع عنها الدّولة المدنيّة. هكذا هو السيّد برنشفيك الشّبيه بأسقف، والسيّد برغسون أيضا أمّا دوركهايم فقد كان مثل جلسة اعتراف حيثُ يحضر السيّد **بوسّون**[154] والسيّد **بيكوت**[155] والسيّد **بولوت**[156] والسيّد **بارودي**.

دون أدنى شكّ، يبدو هؤلاء النّاس بصدد ربط أفكار نقيّة بشكل متسلسل، فهم يتحدّثون عن هذا النّقاء وربّما يؤمنون به، [لذلك]، يربطون

(154) . ردیناند بوسّون (1841. 1932)، سیاسیّ فرنسيّ، وهو مؤسّس رابطة حقوق الإنسان وقد ترأسها بين 1913 و1926، تحصّل على جائزة نوبل للسّلام سنة 1927.

(155) . يلكس بيكوت (1828. 1890)، بيداغوجيّ فرنسي، متفقّد للتّعليم العموميّ.

(156) . غوستاف بولوت (1859. 1929)، فيلسوف فرنسيّ، كان مختصّا في الأخلاق العلمانيّة.

بعضها ببعض، يُخلطونها ويستقون منها تراكيب جميلة. يوجد حولهم ما يشبه الهالة المحترمة، ما يشبه الهواء الّذي يعبق بالاحترام [أيضا]. من هذا الّذي لم يكن ينخدع بنقاوة رجال الدّين؟ من الّذي لم يكن يؤمن بأنّهم حقّا يخدمون الرّوح وحدها؟ ها هم في قاعات قاتمة وفي ساحات فسيحة يكوّنون هذه الأفكار ويدوّنونها ليصيروا شيوخا بعد ذلك بوجوه الشّيوخ الأمينة. عبارة عن مؤمن بشعور من التّقوى السّاذجة، بثقة مازالت تحيط بهؤلاء المنحدرين من نسل الكهنة القدامى ممّن هم مكلّفون بتقديم قرابين مقدّسة. لكن ينبغي الكفّ عن ذلك. ينبغي الكفّ عن السّقوط في الشّرك المنصوب باسم كم براءة وكم فضيلة.

خلال الأيّام الأولى من شهر مايو، على مدى الشّوارع الكبيرة، نلتقي بجحافل زرقاء من حفظة النّظام. نحن لا نلتقيهم، بل نحن بينهم، وسط ضحكاتهم وصحّتهم الجيّدة ووقاحتهم ونظراتهم. هناك أيضا أعوان وحُرّاس متنقّلون وهذا البوليس الحقير في زيّه المدنيّ وبمعاطفه الطّويلة، بمطريّاته وقلائده المتدلّية إلى حدود بطونه. إنّهم هنا من أجل إيقاف أناس أوفياء لآمال ضاربة في القِدَم، هم هنا من أجل سحق المدافعين الوحيدين عن المستقبل البشريّ. إنّنا نغصّ بالحقد والبغض اللّذيْن يزدادان استفزازا بوجوههم الموحّدة والمكتفية. لدينا معهم قرابة دمويّة، لكنّهم ليسوا أناسا من نفس نوعنا ونفس قاعدتنا.

أمّا الأمل الوحيد فهو موكول إلى المدافع الرّشّاشة لحرب أهليّة ممكنة، لكن إليكم ما ينبغي التّفكير فيه: ليس هؤلاء النّاس سوى نفايات إنسانيّة، وهاته الهياكل ذات الخوذات بوجوهها المحمرّة يُقْدمون على القيام بنفس العمل الّذي يقوم به الأنقياء والموقّرون من أولئك المفكّرين الّذين كبرنا إلى

جانبهم، هم يقومون به بأكثر النّجاحات وحشيّة هذا دون أدنى شكّ. إنّ الأسلحة الأوتوماتيكيّة لقادرة على سحق أكيد للثّورة أكثر من المفاهيم الذّليلة الّتي يرصفها الصرّافون المتفانون في [مؤسّسة] الفكر البرجوازيّ. فبندقيّة واحدة أكثر قوّة عندما تحين ساعتها، أكثر حتى من سيسيولوجيا دوركهايم : سنخصّص دون شكّ جزءا غير هيّن من حياتنا للتّفكير في البندقيّة أكثر من تفكيرنا في الأفكار في حدّ ذاتها، لكنّ حمَلة البنادق ومرتّبي الأفكار يدفعون نفس العجَلة وينقلون نفس الماء إلى نفس الطّاحون. من السّخف أن نشكّ بأنّ الهجمة تستحقّ أن تُطلق [على الفور]: لم يكن لينين وقد حانت ساعته لِيحتقر الصّراع ضدّ «**ماخ**»[157] وضدّ «**بوغدانوف**»[158] ولم يكن «**بليخانوف**»[159] يحتقر ذاك الصّراع ولا **ماركس** أيضا.

ليس شهر أكتوبر باللّحظة الوحيدة في الحياة، سننصرف إلى أعمال أخرى أقلّ مجدا من العصيان.

لا يمكن لهؤلاء المفكّرين أن يفكّروا بطريقة مسالمة مطلقا: لا وجود لفكرة خالية من السّموم مع العلم أنّه يجب قولها وإعادة قولها. إنّي أرى في الدّولة كلّ أسرار سلطتهم. لا شكّ بأنّنا غير قادرين على إدراك الخطورة الحقيقيّة الّتي تتهدّد البشر والّتي يمثّلها السيّد فوكوني أو السيّد لالاند منذ الوهلة الأولى. هذا لأنّنا لا نفكّر إلاّ في الكتب. فمن الّذي يقرأ بواقعيّة

---

(157) . إرنيست ماخ (1838. 1916)، فيزيائي وفيلسوف نمساوي مختصّ في فلسفة العلم، وجّه له لينين انتقادا لاذعا في عمله الفلسفي المعنون «المادّيّة والمذهب النّقدي التّجريبي» سنة 1909

(158) . لكسندر بوغدانوف (1873. 1928)، فيزيائي وطبيب وكاتب خيال علمي روسّي، اشتركي ديمقراطي، طُرد من الحزب البلشفي سنة 1909 وعارض الفلسفة الماركسيّة فانتقده لينين على منوال انتقاده لإرنيست باخ.

(159) . ورجي بليخانوف (1856. 1918)، ثوري ومفكّر روسي من منظّري الماركسيّة البارزين. انظمّ للمناشفة المعادين للينين ولم يقبل بثورة أكتوبر 1917 (وهو ما يقصده بول نيزان في هذا المستوى)

«**أوهام نظريّة التّطوّر**»[160] للثّاني و[كتاب] «**المسؤوليّة**»[161] للأوّل؟ قد يعتقد ثوريّ غير مطّلع بما فيه الكفاية بأنّ ما يكتبه دوركهايم ليس أكثر خطورة من «المجلّة الميتافيزيقيّة» للسيّد غابريال مارسيل. لكنّ السيّد مارسيل ليس مفكّر دولة، إنّه برجوازيّ يفكّر منعزلا. [بينما] السيّد لالاند هو مفكّر دولة. بمعنى أنّه آلة لإنتاج الأفكار، أداة إقناع في كفالة ميزانيّة الدّولة. إنّ الوضعيّة الجامعيّة للفلسفة تسمح لكلّ فكرة بأن تطوّر توابعها التّطبيقيّة، فعندما تحدثُ فلسفة السيّد برنشفيك كما لو أنّ النّاس لا يعانون، وليس لهم تلك القصص السّخيفة والقاسية والمرهقة الّتي يمكن أن تكون قصص حياتهم، فإنّ تلامذة السيّد برنشفيك لا يتوقّعون بأنّ هؤلاء النّاس موجودون أصلا. إنّهم منقادون خلف الوهم المهدّئ لوساوسهم كأتباع كانوا ليتبنّوْا فلسفة السيّد برنشفيك بتعلّة أيّ شخص [اعترضهم]، أيّ محاولة لتجريد الإنسان. إذا ما سمح السيّد بارودي باعتقاد مفاده أنّنا نعيش في عالم حيث يسير كلّ شيء بلا أضرار فإنّ أساتذة الفلسفة الشبّان ممّن يسهل عندهم الانصياع لتكرار تعاليم هذا المتفقّد العام، مركّزين على حياتهم المهنيّة والمستقبل الّذي يَنشُدون. وإذا ما أقنع إ. دوركهايم بأنّ دراسة دم الحيض الشّهريّ في المجتمعات الأستراليّة تسهّل كثيرًا في تحليلها الأخير حلَّ المشكلات الاجتماعيّة. كم عدد المعلّمين الطّلاّب في المدارس العليا ممّن هم لن يصدّقوا كلمة هذا العملاق المؤسّس للعلوم؟ إذا ما سمح آلان[162] بالاعتقاد بأنّ العقل والحُكم السّويّ

---

(160) . «أوهام نظريّة التّطوّر» كتاب لأندريه لالاند نُشر سنة 1930

(161) . لمسؤوليّة: دراسة سوسيولوجيّة لبول فوكوني ظهرت سنة 1928

(162) . ميل تشارتير (عُرف باسم آلان Alain)، (1868. 1951)، فيلسوف وصحفي وكاتب ومدرّس فرنسي، له انتاجات غزيرة في الفلسفة وخصوصا العقلانيّة منها، ككتابه «عناصر الفلسفة»، «تجّار النّوم»، «خطاب حول السّلط»، «الأفكار والأعمار»، «زيارة إلى الموسيقيّ» إلخ...

كفيلان بإنقاذ كلّ شيء وبأنّه ليس أفضل من حُسن الإدراك وفق حقيقة الحكم هذه كي نتمكّن من تنظيم العالم، وإذا لم يُضف شيئا عن هذا، فكيف للشبّان المعزولين عن النّاس تحت وطأة الظّروف التّقليديّة الّتي توجد في مدارس داخليّة تعود إلى هنري الرّابع، كيف لهم ألاّ يسلّموا في خطاب بارع يتملّق كبرياء مراهقتهم الواقعة تحت سحر ألعاب العقل؟ إنّ الاستقلاليّة الفعليّة الّتي تحجبها احتجاجات سطحيّة للفلسفة لَهِيَ وبشكل دقيق فعّالة. فعندما يمتنع مفكّر عن طرح موضوع ما فهو يحوّل الانتباه بعيدا عنه، فيحطّ من شأن [هذا الموضوع] ويزجّ به في الظلّ حيث لن يبحث عنه جمهوره الخامل مجدّدا. نحن نرى جيّدا إلى أيّ مدى يمكن استغلال هذا الاضطراب الّذي يصيب المظاهر، هذه التّحويل الّذي يطال الأهمّيّة النّسبيّة للأشياء، كأن لا يكون الفقر محنة بالنّسبة إلى كاهن وإنّما هو مستحقّ من الله.

إنّ هذا النّوع من الفكر الخدّاع هو نشاط سلبيّ، وسلبيّ بكلّ واقعيّة. [لكنّه] لم يعد «لا شيء». سيكون علينا في النّهاية أن نستعيد ــ كموضوع فلسفيّ ــ الجهد الكانطيّ الجدير بالذّكر في خصوص كمّيات السلبيّة: سيكون علينا في النّهاية أن نفهم أنّ لعبة الأفكار السّلبيّة هذه لا تُترجَم بكل بساطة إلى «صفر من الأفكار»، بل بتأخّر واقعيّ، بقلْب، بخسران واقعيّ. سيكون علينا في النّهاية أن نُدركَ بأنّ هذا العقل السلبيّ والحذر يُترجم في حياة النّاس على أنّه غير قابل للإصلاح، على أنّه تفقير إيجابيّ.

***

لقد كتب السيّد بارودي:

«لم نعد نملك مذهبا رسميًّا، ولا أحد كما أتخيّل سيندم على ذلك».

هكذا يُدافع موظّف الأفكار عن نفسه من الأفكار المفروضة: لا أحد بقادر على الاعتراف بسهولة بمهامّه البوليسيّة. لكن سيكون علينا أن ندرس لأيّام متلاحقة كلّ الآليّة الّتي وفقها انتشرت هذه الفلسفة السّلبيّة الّتي توفّر الخصائص المطلوبة لمذهب دولة ما. وبطريقة أكثر تبسيطا، فإنّ الفلاسفة المنصّبين في قمّة الهرم الجامعيّ هم من ينتجون جملة هذه الأفكار. ها هنا المادّة الخام الّتي تعمل عليها الجامعة. تنتقل الأفكار على سلسلة من الورشات حيثُ تتشكّل وتُصقل وتُبسّط، حيث تصبح جماهيريّة وفظّة بين أيادي هؤلاء الحرفيّين المهرة الّذين هم الأساتذة وصنّاعو الكتب المدرسيّة. سنرى هذه الصّناعة وهي تنكبّ على مادّة الأخلاق الّتي هي واحدة من أهمّ موادّ الجمهوريّة الثّالثة. عندما قرّرت الجامعة البحث عن مدوّنة أخلاقيّة فقد جمعت من حيث شاءت العناصر الأكثر استخداما الّذي خلّفها لها الماضي، فشكّلت من أجل نفسها أخلاقا من حطام الأخلاق الكانطيّة وروحانيّات العصر الوسيط. مازال هناك بعض من مناخ العلم النّافع الّذي يحوم حول هذه الحِكَم المغطّاة بالغبار. كانت الأخلاق العلمانيّة قد تشكّلت وقتها بطريقة سيّئة للغاية. فكان لابدّ من دوركهايم حتّى تتمكّن الجامعة البرجوازيّة من امتلاك مذهب خاصّ بها. إنّ هذا التّأكيد على الوضعيّة الرّوحيّة، على العبور من الغامض إلى الدّغمائيّ، من القاتم إلى الواضح هُوَ تأكيدٌ ذو معنى كاف من خلال إعلان دوركهايم وحيث يقدّم تقريرا [بوليسيًّا] **بأغاتون**[163]، ففي شهر نوفمبر من سنة 1906، كتب دوركهايم :

«لننكبّ على العمل، وفي غضون ثلاث سنوات سنحصل على منظومة

(163) . **أغاتون**: اسم مستعار لهنري ماسيس (1886. 1970)، ناقد أدبي وكاتب مقالات سياسيّة ومؤرّخ فرنسي، عُرف بمشاركته فيما يُسمّى «الحركة الفرنسيّة» المنتمية لليمين المتطرّف.

أخلاقيّة».

ولقد حصلوا عليها فعلا. وهذه الأخلاق موجودة الآن، ها هي تعيش في الصّمت المحيط بالحقائق المثبّتة بكلّ صرامة. وقد وهبت هذه القوّة الدّغمائيّة حياة جديدة لكلّ السّمات المحتضرة. كالعقلانيّة القديمة والرّوحانيّات القديمة اللّتين تكيّفتا معها. ففي صالون الأفكار المغلوطة، حيث انتهى المفكّرون إلى الاستماع إلى بعضهم البعض، وكان السيّد برنشفيك مؤهّلا تماما لأن يتعايش مع ظلّ دوركهايم الّذي ظلّ مخيفا لمدّة طويلة. أمّا السيّد بارودي فقد عدّل من عقلانيّته الخاملة على أوتار القوى الّتي أطلقها صاحب «**الفعل الأخلاقي**»[164]، [لكنّ] السيّد لالاند لم ينتقد علما يجهله كما فعل الآخرون مع أنّه راح يوفّر لهم مشهدا رائقا عن طريقة تبدو غريبة عن الأشياء الّتي يجب أن يحتويها. أمّا دوركهايم فليس فقط طرفا في الحوار الدّائر بين أساتذة السّوربون، إذ كلّ الأمور تسير وكأنّ مؤسّس علم الاجتماع الفرنسيّ كان قد كتب «تقسيم العمل الاجتماعي»[165] من أجل أن يفسح المجال لمسؤولين ظلاميّين حتّى يضعوا تعليما موجّها للمعلّمين أنفسهم. إنّ مقدّمة علم الاجتماع في المدارس العليا قد كرّس الانتصار الإداريّ لهذه الأخلاق الرّسميّة. انقضت ثلاث سنوات الآن منذ أن أنهى دوركهايم عمله وعمّم تعاليمه بإصرار كبير وبصرامة تسلّطيّة شديدة، وذلك بإعطائه لهذا العمل سمة علميّة ذات جلال. وباسم هذه السّمة وباسم هذا العلم، يعلّم المدرّسون الأطفال كيف يحترمون الوطن الفرنسيّ وكيف يبرّرون تعاون الطّبقات

(164) . لفعل الأخلاقي: يقصد هنا إميل دوركهايم وكتابه الّذي نُشر سنة 1893 تحت عنوان «مفهوم الفعل الأخلاقي».

(165). تقسيم العمل الاجتماعي: كتاب لإميل دوركهايم، يرى فيه بأنّ تقسيم العمل في المجتمع إنّما هو حقيقة اجتماعيّة ووفها يتحدّد تخصيص الأعمال والمسؤوليّات.

الاجتماعيّة وكيف يسلّمون بكلّ شيء وكيف يتناولون العشاء المقدّس تكريما للعَلَم والدّيمقراطيّة والبرجوازيّة. لهذا فقط يبدو لي الكتاب المدرسي لـ«هيسّي» و«وغليز»[166] والنصّوص المختارة للسيّد بوغلي أقلّ مسالمة من الأفكار السرّيّة للسّيّد غابريال مارسيل. ولهذا أيضا يبدو لي الدّليل المدرسي للسّيّد كوفيلي[167] الّذي كرّس الانتصار الثّانويّ لدوركهايم أكثر أهمّيّة من كتاب جوليان باندا «مقال لخطاب متماسك»[168]. هذا لأنّ هذه الأدلّة من ضمن كتابات أخرى تُبرهن على قوّة انتشار هذا المذهب القائم على الطّاعة والتّطابق والاحترام الاجتماعي الّذي تحصّل على رصيد هائل على مدى هذه السّنوات وعلى منصاعين كثر أيضا: ففي المشية الدوركهايميّة تتداخل حماقة الخطوة الاجتماعيّة مع خطوة الغباء الرّاديكاليّ. فلا تستسلم حماقة السيّد ديات[169] لحماقة السّيّد فوكوني. لقد أتمّ دوركهايم أخيرا وبعد مماته وبشكل مثاليّ مهمّة الحوار البرجوازيّ الذي كان قد سعى إلى تحقيقه أثناء حياته. علوم كثيرة ونقد غزير ووثائق بلغت أوج شهرتها. وقد جاء نجاح دوركهايم تماما من هذه الدّعاية الأخلاقية الّذي كان قادرا على إنشائها وإنشاء مقاييس لدفاع اجتماعيّ وقد كان أوّل من وضع أساسها بكلّ ثقة.

سريعا ما سنتبيّن بالوضوح الكافي بأن الإخفاق الجامعيّ للسيّد برغسون متأتّ من كونه لم يكن أخلاقيًّا مُطلقا ولم يمنح ولو كلمة واحدة

---

(166). هيسّي وغليز: بيداغوجيّان وضعا الكتاب المدرسي المعنون بـ: «مفهوم السّوسيولوجيا المطبّقة» والّذي أعتمد طويلا في تدريس هذه المادّة.

(167). آرمان كوفيلي (1887. 1973)، أستاذ فلسفة وصحفيّ فرنسيّ، لا يكفّ عن إعلانه لتبنّي أفكار دوركهايم فوضع دليلا يُعتمد في المدارس «دليل الطّالب في السّوسيولوجيا».

(168) . قال لخطاب متماسك حول علاقات الله بالعالم: كتاب لجوليان باندا وفيه يتحدّث عن خيانة رجال الدّين وعمّا يسمّيه «النّهاية المطلقة» كما يركّز على التّعارض بين التيّارين الدّينيّ والعلماني.

(169) . مرسيل ديات (1834. 1955)، سياسي فرنسيّ ينتمي لما يسمّى «الاشتراكيين الجدد»، وقد أسّس سنة 1941 حزبا على أنقاض «الحزب الفاشي الفرنسي القديم» وهو حزب «التّجمع الوطني الشّعبي».

لفائدة النّظام: لقد منح البرجوازيّين دوافع لكبريائهم الدّاخليّة والبهجة الفرديّة، لم يكن قد دافع عنهم أمام أعدائهم. وعندما فقدت فلسفة السيّد برغسون مكانتها الاجتماعيّة الّتي كانت قد عرفت كيف تكتسبها [في الماضي] وكيف تمكّنت أيضا من وضع على ذمّة الله الشبّان التّوّاقين لاكتساب روح مَا بعد أن سئموا جذاذات دوركهايم والسيّد لونسون[170]. لم تعد [هذه الفلسفة] صالحة إلاّ لوضع بعض الفصول البسيكولوجيّة بين أيدي الأساتذة الكُسالى. وبفضل أثر السيّد روستان كانوا قد عاشوا لمدّة من الزّمن في ظلّ عملة مزيّفة.

على نفس الشّاكلة دعّم السيّد لالاند في زمنه أطروحة كانت قد أثارت بعض الضّجيج، مع أنّها كانت أقلّ شهرة بين حرفاء «المجلّة الجديدة الفرنسيّة» ومن أصغر تذكرة عُثر عليها في دَرَج أندريه جيد: لكنّ هذه الأطروحة كانت لها عناوين تتحكّم في نشأة كتاب صغير أخلاقيّ من الّذي قُرئ دون شك هناك حيث ينبغي أن يكون مقروءا.

***

إنّه لمن الممكن أن ندرك فعاليّة الأفكار هذه دون السّقوط في الفخاخ الشّائعة الّتي تنصبها المثاليّة. ليست هذه الفعاليّة بغامضة، فهي تتحقّق في الآثار الانسانيّة، في مختلف الأعمال، في تأثيرات الإنسان. لا تدّعي المادّية مطلقا بأنّ الأفكار ليست فعّالة ولكنّها فقط تشير إلى أسبابها الّتي لم يقع التّفكير فيها البتّة، تماما مثل تأثيراتها الّتي لم تُدرس بعدُ.

لكلّ إنسان أن يفكّر دون انقطاع إلا مدّة تلك الهدنات القصيرة أثناء

(170) . غوستاف لونسون (1857. 1934)، مؤرّخ أدبي وناقد فرنسي، وضع العديد من الكتب المدرسيّة في النّقد الأدبي خصوصا.

نومه أو على إثر مرضه، له أن يفكّر في العالم الّذي يلمس ويرى ويتحمّل وزره والّذي فيه يطبّق مختلف أعماله. بل هو مضطرّ للتّفكير في هذا العالم، فكلّ حياته عبارة على تعليق مطوّل على استفزازات هذا العالم، إنّه يبلور أفكار متطابقة مع الأعمال الّتي يقوم بها في هذا العالم. لم يكن هذا الإنسان وحيدا أبدًا، لكنّه كان مختلطا ومرتبطا بمجموعة أو مجموعات من البشر من أين تتشكّل آراؤه وأحكامه وميوله وعاداته الّتي تقود معتقداته وأفكاره وانتظاره وأحلامه. إذ ليست الطّريقة الّتي وفقها يدرك المكوّنات الطبيعيّة والمكوّنات الاجتماعيّة مسألة خاصّة.

ينبغي مساءلة كلّ إنسان عن الكيفيّة الّتي وفقها يدرك عناصر حياته: نشاطه، سعادته، تعاسته كلّها ترتكز على هذا الإدراك. ينبغي بعد ذلك أن نعرف مصادر إدراكه هذا ودائما، إذا ما كان متولّدا عن تجربة واقعيّة أو عن درس كرّره عليه بعض المعلّمين الطّارئين على حياته. ينبغي أيضا أن نسأل كلّ فرد إذا ما كان هناك اتّفاق أو بون شاسع بين إدراكه والأفكار الّتي لا يكفّ عن اجترارها، وعن تجاربه الحقيقيّة الدّائرة في العالم. هل أنت تعاني من زواجك؟ نسأل عن هذا بكلّ لين ونحن عارفون بأنّ الزّواج من أكثر المؤسّسات عزلة. هل تعاني من تحمّل أيّامك في هذه الثّكنة وأنت تضع أخطاءك جانبا لتؤمن بالخدمة الإجباريّة الرّائعة؟ وبالنّسبة إلى الأحكام الّتي درّبوك على القبول بها، هل هي تتّسع ما يمكن لكلّ ما تعتقد بكلّ سذاجتك بأنّها أحزانك؟ لمن تكون الكلمة النّهائيّة ـــ أ هي من تجربتك الخاصّة أم هي من جملة رؤاك المعقّدة الّتي حفظتها عن ظاهر قلب، وإذا ما وضعتك تجربتك في يوم من الأيّام موضع شكّ في كرامة وأمن إدراكك؟ إنّ هذا الخطاب الّذي قد نظلّ نسمعه إلى ما لا نهاية، والّذي يتعلّق

بالإدراك، ويفتتح نقاشا مؤدّ إلى مركز المعركة الدّائرة بين الملموس والمجرّد، بين ماديّة الحياة المعيشة ومثاليّة الإدراك الاجتماعيّ، إنّه يفتتح شارعا فسيحا من الأسئلة.

كيف نقنع؟ من الّذي نريد أن نقنع؟ لماذا وباسم أيّ مصلحة نقنع؟ من هم سادة الإدراك؟ من أين تنبع السلبيّة والسّذاجة واحترام الأحكام المقتنعة؟

إنّ جملة التّصوّرات الخاطئة هي على وجه التّحديد ما يتمّ تلقينه في المدارس، وهي ما يُعِدّ لدخول الصّحافة والصناعات السياسيّة في اللعبة، أمّا الورشة الّتي تضطلع بصناعة وإعداد المدرسة هي الجامعة دون غيرها: يُعَدّ تأثير الفلاسفة سلطة روحيّة من تلك الّتي لا يشكّ فيها الفرنسيّون الّذين يعيشون في العصر، فهذا التأثير ذاته ما يتجلّى عبر نتائج سياسيّة. ربّما لا يُتاح لنا هنا لنقدّر تقديرا نهائيًّا الدّور الّذي لعبته في الدّستور وفي الاقتناع بالفكر البرجوازيّ ـــ الفلسفة الجامعيّة ـــــ لكنّي لا أحسّ بدءا بأنّي متأكّد بأن الفلسفة مهما كانت محتوياتها الخاصّة، الفعاليّة مطلوبة هذا أكيد، فالإشعاع ما يبرّر فوائد أيّ تهجّم، أنا متأكّد بأنّه علينا أن نضع حامليها في موضع تساؤل. وبأنّ على التصوّرات الّتي لقّنوها بكلّ عناية أن تخضع للمراجعة. فالخيانة الممنوعة هنا تتمثّل أوّلا في تدمير منظومة الوهم الّتي سهرت الفلسفة على تجميعها وأن نفسح المجال للتّجربة الحقيقيّة ومهما خلّفت هذه المنهجيّة من آثار على أمن الدّولة وعلى ديمومة برجوازيّة فرنسا: فهذه الآثار لا تخصّنا. ليس لدينا ما نخسره.

6

دفاعًا عن الإنسان

هكذا يتحقّق نوع من البشر الّذين هم يدرسون الفلسفة وهم متأهّبون ليلا ببندقيّة في اليد، والّذين هم يناقشون الإشكاليّات الأكثر علوّا وبعد ساعة [لا أكثر] يذهبون لقطعالخشب، والّذين يعملون في المكتبات ويعملون في المصانع أيضاً.

ن. بوخارين[171]
نظريّة المادّية التّاريخيّة (مقدّمة)

من ضمن الاشكاليّات الّتي لا تُحصى ولا تُعد والتّي تُطرح من تلقاء نفسها وإنّ اختيار الحلّ الّذي يهمّ الإنسان هو صميم الحكمة.

إ. كانط
أحلام متبصّر 1766

مكتبة
t.me/soramnqraa

يُوجَد في الوقت الحاليّ ما قد نسمّيه «أزمة» في العالم. مثل تلك الأحداث الوبائيّة الكبرى كالّتي حدثت في العصور الوسطى والّتي انتقلت إلى كلّ البلدان. كان النّاس [وقتها] قد عرفوا الخوف.

(171) . كولاي بوخارين (1888- 1938)، سياسيّ سوفيتي ماركسي بلشفي نشط في الثّورة البلشفيّة (1917)، شغل عديد المناصب: عضو مكتب سياسي، أمين عام اللجنة التّنفيذيّة الشّيوعيّة، تحالف مع ستالين إثر وفاة لينين ليختلف معه في النّهاية وبسبب ذلك كان أحد ضحايا التّصفيات الجسديّة سنة 1938

حدثت هذه الأزمة في نفس الوقت الّذي أحسّ فيها العالم بالازدهار والثّقة، دون أن يتمّ اشعاره بهذه المذنّبات الّتي تنتقل على شكل ألسنة لهب أو سيف من تلك الّتي يستطيع الفلكيّون التّعرّف عليها. لم يكن هناك علامات أو إعلانات مُسبقة من الوسط الطّبيعيّ. لا يخصّ هذا الحدثُ إلاّ البشر وآلاتهم وسلعهم ونقودهم ودولهم وأفكارهم. لقد جئنا في الوقت المناسب تماما عندما أصبح النّاس وحيدين نهائيًّا فيما بينهم على سطح الأرض، وعندما كفّت العلامات الطّبيعيّة على التّكوّن من أجل تحذيرهم كما حدث ذلك على إثر موت القيصر.

شرعت كلّ نملات الرّوح في الدّبيب، وقد استيقظت تحت ضربات هائلة قلبت الأروقة النّظيفة واللاّمعة حيث تعوّدت على الصّعود والهبوط وهي محمّلة بأعبائها الفكريّة الصّغيرة. اجتمع المفكّرون والسّياسيّون وأساتذة الاقتصاد والدّيبلوماسيّون وموظّفو البنوك وأولئك المداهنون المسمّون بمدراء صناعيّين ليكتشفوا بأنّ كلّ شيء في العالم لا يجري مثلما تفرضه المصلحة. ففي السّاحة حيث كان يسود النّظام طويلا، في السّاحة حيث كانت تلك الرّاحة وحيث كانت المجتمعات تأخذ نفسا عميقا وحتّى الأشخاص، أدركوا الفوضى الطّارئة، كما أدركوا حلول الكارثة. فهذه الأناركيا الواضحة هي مصدر خطر حقيقيّ على مستقبلهم وهي فضيحة وفق رؤيتهم الفكريّة.

ظلّت مخازن السّلع مكدّسة في الزّوايا مثل أكوام من الحصى. أُلقِيَ بأكياس القهوة في عباب البحر. دبّت النّيران بالقمح في مأوى المراجل. علت رافعات المخزون الكنديّ بلا فائدة أكثر من أهرام الجيزة. تداعى

سعر بوشل[172] الحبوب كما تتداعى الأحجار. راحت مجموعات من العاطلين يجرّون الخطى على طول «شارع ميشغن». وراحت عصابات المزارعين المُفلسين يتسلّقون أسطح المغازات من أجل سلبها في المدن الصّغيرة النائمة في «ميديل واست». وتعتقل الشّرطة العاطلين في طوكيو. وينتظر رجال الشّرطة بمدافعهم الرّشّاشة والغاز المضربين السّود في بنسلفانيا. ويطلق مسلّحون الرّصاص في أجنحة الشّوارع الألمانيّة. كما راح الذّهب يتضخّم مثل طبقة الصّدأ في المخازن الأمريكيّة والفرنسيّة. يستعرض الحرسُ المتنقّلون بخيولهم أمام الحواجز النّباتيّة الطّويلة. ويقبل رجال الشّرطة على تعبئة العاطلين عن العمل وقد كانوا يصيبون السّاحة الخضراء الباريسيّة بالعتمة. وراحت البنوك تتهاوى مثل الأسطوانات الخشبيّة لِلُعْبَةِ البولينغ. وتجد الحشود الهنديّة ما تقوله وتعيد قوله في وجه جبابرة الإمبراطوريّة وفي مواجهة هراوات البوليس. وتتناقص أرقام البيع في المتاجر الفاخرة مثلما يتناقص عدد السيّارات الأمريكيّة. ويتمسّك فلاّحو الأندلس بأراضيهم تحت النّيران المنصبّة على رؤوسهم من الطّائرات الاشتراكيّة. ويتساقط آلاف البشر في غلاسكو. وينشد البحّارة في أسطول المحيط الأطلسي أناشيد للعلم الأحمر[173] تتلألأ نقاط عديدة واعدة بالثّورة هنا وهنا من بقاع العالم المثيرة للقلق. هل ستتحمّل الحشود الفيتناميّة لوقت أطول هؤلاء القتلة المموّلين من طرف الدّيمقراطيّة؟ هناك اجتماعات سرّيّة غير مجدية تلتئم بين مراسلي الأمم. وتشعل القذائف اليابانيّة القرى الصّينيّةَ. هناك البعض ممّن أصبحوا يرون بعض الإثارة على وجه الحرب. ويستحوذ صانعو الأسلحة على الحكم.

---

(172) . البوشل: من الإنجليزيّة bushel، أداة لقياس الأحجام الجافّة كانت تُستعمل في قياس كمية السّلع الأساسيّة وخصوصا الزّراعيّة.

(173) . العلم الأحمر: رمز الحركة العمّاليّة الفرنسيّة الّتي تعود نشأتها إلى سنة 1871، وقد صار فيما بعد رمزا للثّورة الاشتراكيّة.

في هذا الجوّ الّذي يعبق بالمرض، هناك أناس يفكّرون، من هؤلاء النّاس الّذين يقودون ويحاولون العثور على الصحّة القديمة المرتبطة برفاهيّتهم القديمة وذاك الأمان القديم المُعدّ للغد والّذي يطلقون عليه اسم «حضارة الغرب». فيؤلّفون كتبا وتقارير، يردّدون مواعظ، يعقدون مؤتمرات وجلسات برلمانيّة ويفسّرون تقريبا بأنّ كلّ شيء يسير بجنون متنوّع قابل للشّفاء وبآراء إنسانيّة مغلوطة قابلة للتّصحيح. إنّهم لا يفكّرون إلاّ في الكبرياء الّتي ستعقب هذا التّواضع والأنفاق الاقتصاديّ. لقد قلبت الفوضى كيان السّلط الرّوحيّة وطمأنينتها. وها هي هذه السّلط تلهث وراء ذاك الرّفاه الضّائع.

***

تتّخذ هذه الحيرة وجوها عديدة متعلّقة بكلّ أمّة من الأمم. مازال وجه منها يتمسّك بالتّشكّل في هذا البلد لأكثر وقت ممكن بنفس ميزاته في الموقع الّذي نحن فيه ما بيْن المحيط الأطلسيّ والبحر الأبيض المتوسّط ونهر الرّاين. أمّا التّساؤلات الّتي أعلنت عن نفسها في هذا الموقع فإنّها تساؤلات غير قابلة للتّرجمة بعد لما يمكن أن تسميته باليأس. إذ كيف اليأس في بلد يملك ما يكفي من ذهب وممتلكات وحِكَم عقليّة وفضائل عسكريّة ودفاتر ادّخار ومدافع وعساكر؟

يرى الأكثر جرأة منهم وببساطة بأنّ العالم حاليًّا هو ضحيّة مرض ما. ولا أكثر من مرض. وبأنّ هذه الحمّى ستنتهي بالانخفاض لتعود بعد الشّفاء والقوّة والوصفة الطبيّة الأكثر براعة إلى تمام الصحّة. مازال أمل الشّفاء هذا يمتدّ ومازالت الثّقة في كون الشّرّ لا يمكن أن يكون مطلقا وأنّ العالم الّذي تعوّدنا عليه لا يمكن أن ينتهي على هذا النّحو. يكفي أن

نصمد، أن نتوخّى الحذر في إدارة هذه اللحظة الصّعبة من التّاريخ: والّذين سيصمدون سينالون مكافآتهم. لا ينبغي الموت قبل [تمام] حركة النّمو، لا ينبغي الإفلاس، لا ينبغي فقدان الثّقة في الأفكار القديمة الّتي تمّ صقلها ببراعة لن نقدر على الإتيان بمثلها أبدًا.

لا أحد بعد يريد تصديق بأنّ الأصوات القبيحة الّتي تردّد بأنّ العالم على مشارف موته الشّنيع، وبأنّ إدانته قد تقرّرت نهائيًّا في مكان ما. عاد الفرنسيّون مدفوعين بآخر ما تبقّى من ازدهارهم بين أحضان سلطتهم القديمة، وإلى صلابة شبّانهم وهم لا يتصّورون بأنّه يمكن للمقاطعات الفرنسيّة أن تنتهي مثلما انتهت ممالك الإسكندر[174]، بأنّ كلّ هذا يمكن أن ينتهي بنفس الطّريقة، عندما كان هناك مونتاني وديكارت وفولتير والماريشال فوش[175] وجبال وداي اللّوار[176] والكنائس والقصور والفلاّحون ومنتجو الخمور والمطبخ الجبليّ. مرّة أخرى، هذه واحدة من تلك الوعكات الّتي تصيب النّموّ والّتي شهدتها القرون الماضية. لا يلزم سوى اتّباع نظام جيّد. كلّ هؤلاء الحرفيّين، هذه البرجوازيّة الصّغيرة، هؤلاء الملاّكون الصّغار، هؤلاء الموظّفون الصّغار، هؤلاء الأساتذة، هؤلاء المحامون، هؤلاء الصّيادلة، هؤلاء التّجّار الصّغار، هؤلاء الماسونيّون، وهؤلاء الّذين يدفعون الضّرائب، وهؤلاء العمّال الفقراء لا يروْن البتّة بأنّ «فرنساهم» قد دخلت فعليًّا في لجّ لعبة كبرى وخطيرة راح العالم يلعبها وهي في جزئها الأخير من مرحلتها الأخيرة من تاريخ

(174) . الاسكندر الأكبر (356 ـ 323)، مات هذا القائد فجأة في يبلغ من العمر 32 سنة دون أن يترك وريثا أو من يخلفه، لذلك نشبت بعد موته حروب دامت لأربعين سنة. وهو ما يقصده بول نيزان في هذا المستوى وهو يتحدّث عن نهاية المقاطعات الفرنسيّة.

(175) . لماريشال فوش (1851. 1929)، جنيرال وكاتب عسكريّ معروف بتسميته قائدا أعلى لجيوش الحلفاء على إثر الحرب العالميّة الأولى وقد عُرف أيضا بعدوانيّته الشّديدة وبتهوّره.

(176) . ادي اللّوار: منطقة ثقافيّة وسياحيّة تقع جنوب باريس وتتميز بجبالها وقلاعها القديمة.

البرجوازيّة. وإنّهم لم يغرقوا بعد في الجزع.

إنّنا نلتقي هنا وهناك بهذا أو ذاك الإنسان الّذي يعبّر عن خوفه. في النّهاية، يمكن لفرنسا أن تموت. [فالموت] شبيه بعدوّ يتربّص خلف الأمل وخلف الشّعور بالأمان. ففي اللّحظة الّتي يضمن الماضي المنعزل المستقبلَ يحدثُ أن تفهم بعض الرّؤوس بأنّ هذا الأمان ليس نهائيًّا. فهذا الخوف يُحيّرهم. إذ هم لا يعرفون هذا الخوف. هؤلاء النّاس الّذين كان آباؤهم قد فازوا [بمعركة] فالمي[177] وهم أنفسهم قد فازوا بمارن[178] وتمكّنوا من حماية فاردن[179]. لم يكن الخوف قد تسلّل إليهم مطلقا حتّى في الأزمات الحقيقيّة الّتي شلّت النموّ في القرن الماضي. لكنّ حيويّة البلاد قد تضاءلت، وأصبح الفرنسيّون أقل صلابة ممّا كانوا عليه قبل مائة عام عندما تعاظمت قوّتهم مثل [ضوء] النّهار. ينبغي في النّهاية أن نحدّد الحالة الّتي يصبح فيها هذا المرض محتويًا على الموت.

توجد حركة تمثّل منعطفا فيما يخصّ إدراكهم: إنّهم يحاولون إقناع أنفسهم بأنّ هذا المرض ليس في داخلهم، وليس داء متولّدا عن تناقضاتهم الحميمة والّتي لم يوجّهوا إليها بالطّبع أدنى مجهودهم أو نظامهم أو أطبّاء عائلتهم والاختصاصات الدّيمقراطيّة القديمة، إنّهم يزعمون بأنّ سبب هذا الدّاء خارجيّ دون شكّ، وهو بمثابة هجمة أجنبيّة: يتعكّر طبيب أمام حالات التّسمّم الخارجيّة، ويُعجَب الإخصّائيّ النفسيّ بالشّلل التّامّ لكن ليس بالخرف المبكّر. هكذا يفكّر الفرنسيّون بنفس طريقة [هؤلاء]

(177) . عركة فالمي: معركة وقعت بالقرب من قرية فالمي يوم 20 سبتمبر 1792 (الثورة الفرنسيّة)
(178) . عركة مارن: من 5 إلى 12 سبتمبر 1914 (الحرب العالميّة الأولى)
(179). معركة فاردن: من 21 فبراير إلى 19 ديسمبر 1916 (الحرب العالميّة الأولى)

الأطبّاء. فهم يعتقدون بأنّ مرضهم ناجمٌ عن عوامل أكثر واقعيّة من جرائيم تبذل ما في وسعها من أجل جعل هذا المرض أكثر خطورة، ومن أجل ضمان الموت باعتبارهم نهاية حتميّة له. يتحوّلون إلى رافعي دعاو ضدّ هذه الميكروبات ويُعدّون لها مدافعهم وسفنهم الحربيّة. [يُعدّونها] للميكروب الإنجليزي، للميكروب الألماني، للميكروب الإيطالي وخصوصا وقبل شيء للميكروب الرّوسي. لميكروب الخطط الخماسيّة[180]، لميكروب التنظيم الجماعي[181] ولميكروب الكومنترن[182].

يتشكّل في روسيا نظام يترك للمهندسين الأمريكيّين إمكانيّة التّفكير ويمنع تُجّار البترول وباعة الحبوب من النّوم في سلام. يتمتّع مائة وستّون مليونا من الأفراد بالتّغطية الصّحيّة المتماسكة، وعليه، يتعلّق الأمر بتخصيص بعض الوقت لمجابهة صحّة الثّورة الّتي تحتوي على موت البرجوازيّة. فهي مُدانة بوصفها السّبب الخارجيّ لعلّة الغرب.

وهكذا تُقلب الحقيقة التّاريخيّة. هذا لأنّ للحضارة البرجوازيّة أعداء خارجيّين ولأنّ عالمها يحتوي على الأسباب الحقيقيّة الّتي وراء آلامها. فهي لم تُصب بالمرض لأنّ لها أعداء، بل لأنّ أعداء قد وقفوا ضدّ مرضها: هناك من النّاس في هذا العالم من تأكّدوا بأنّ المسألة لا تتعلّق بأمراض مؤقّتة لكنّها مسألة فوضى بلا علاج، مسألة ألم كان المصدر الحتميّ لتكوّن ثقافة واقتصاد ما وبداية للتّدهور. مجرّد حضارة مختنقة من فرط التّناقضات الّتي

---

(180) . لخطط الخماسيّة للاقتصاد القومي للاتّحاد السوفيتي: خطط مركزيّة نُفّذت على مستوى الدّولة للتّنمية الاقتصاديّة السّريعة وتعتمد على ما يُسمّى القوى المنتجة.

(181) . التنظيم الجماعي (1928، 1940)، برنامج وقع تنفيذه على القطاع الزّراعي للاتّحاد السّوفيتي في فترة حكم ستالين ضمن الخطّة الخماسية الأولى.

(182) . الكومنترن: أو الأمميّة الشّيوعيّة، منظمة دوليّة شيوعيّة ظهرت في موسكو في مارس 1919 وهدفها إسقاط البرجوازيّة الدّوليّة وإنشاء الجمهوريّة السّوفيتيّة الدّوليّة.

تنتجها بنفسها، كضحيّة لسمومها الحميمة، لذلك بدأها الموتُ واختلقت لها أعداء من صفّ أولئك الّذين لا ينوون مرافقتها إلى حدّ نهايتها. هم نفس أولئك هم الّذين عانوا من جبروتها ولم يقاسموها شيئا من عافيتها الماضية. تدور كلّ الدّراما إذن بين البرجوازيّة والبروليتاريا، بين الإمبرياليّة والثّورة.

لكنّ البرجوازيّة تسعى إلى تدمير الأسباب الخارجيّة الظّاهريّة الّتي وراء ألمها وتعتقد بأنّ ستتمكّن من التّعافي بفضل طرق علاجها القديمة مع بعض التّعزيز من طرق علاجيّة جديدة دون أن تسلّم في العالم الّذي تتمسّك به وقد كانت من صنعته. سيشتمل هذا الدّفاع وبشكل فوريّ على تقسيم للمهمّة: سيكون من شأن السّاسة أن يسقطوا الثّورة، ومن شأن المفكّرين أن ينتجوا طرق علاج، أن يصنعوا وصفات، أن يلهموا ثقة بالبرجوازيّة وأن قوى الثّورة نفسها بأن تبقى مرتبطة بالمصائر البرجوازيّة.

***

ماذا يفعل هنا، هؤلاء النّاس الّذين تتمثّل مهنتهم في التّحدّث باسم الّذكاء والعقل؟ ماذا يفعل مفكّرو المهن هنا وسط هذه الاهتزازات؟ مازالوا على صمتهم، لا يحذّرون ولا يستنكرون. إنّهم بعد لا يتغيّرون، راحت الفجوة الّتي تفصل فكرهم عن العالم الملقى في مهبّ الكوارث تتعاظم كلّ أسبوع وكلّ يوم، ومع ذلك لا ينتبهون ولا ينبّهون. صارت تلك الفجوة الّتي تفصل وعودهم عن وضعيّة بني البشر أكثر إثارة للعار كما لم تكن من قبل. إنّهم لا يتحرّكون مطلقا. بل هم عالقون في نفس جهة السّياج. يعقدون نفس المجالس وينشرون نفس الكتب. أمّا كلّ الّذين كانوا بسذاجتهم ينتظرون تصريحاتهم فقد بدأوا الشّعور بالثوران أو في

الضّحك.

مازال دون شك هناك عدد قليل من الحكماء الباحثين عن سبل أخرى للدّفاع ومن أجل مزيد صمود العالم المُدان الّذي يحبّون عن مخارج جديدة، لكن ولمدّة ما من الزّمن من الّتي لا نتوقّع طولها، ستكفي بعض الأفكار القديمة، سيتطلّب الأمن سنوات ربّما حتّى يدرك الفلاسفة حقّ الإدراك بأنّه يوجد في فرنسا كما في بقيّة العالم نمط من الاقتصاد ونمط من السّياسة ونمط من الحضارة الّتي هي بصدد لفظ أنفاسها الأخيرة، وبأنّ موتها ضروريّ حتى ينتقل الإنسان إلى وجهة جديدة، وقتها سيعرف العالم بأكمله بأنّ لا صانعي المعجزات السّياسيّة ولا صانعي المعجزات الاقتصاديّة بقادرين على إنقاذ الفلاسفة المدلّسين.

***

للفلسفة الجامعيّة الفرنسيّة تاريخ، وهو ليس تاريخا لصراع مجرّد بين العقل والعقل المضادّ كما يحاول السيّد بارودي أن يُعمّم اعتقاد في خصوص هذه الدّراما بلوحاتها العديدة والّتي هي «الفلسفة المعاصرة في فرنسا».

قد نتمكّن دون أدنى شكّ من أن نعيد الفلسفة البرجوازيّة إلى بداياتها ونستعيد تاريخها مع العوامل الّتي كانت وراء حركتها. سيكون علينا أن نعيد الفلسفة إلى منظورها، كما كان السيّد برنشفيك قد فعل لكن من منظور البرجوازيّة، كما سيكون علينا أن نشكّل وبكلّ عناية تاريخا مضادّ للفلسفة.

يكفي القول إنّ الفلسفة المعاصرة [قد تأسّست] من زمن قصير جداً،

منذ أزمة الانهيار الّتي جدّت سنة واحد وسبعين والرّعب الّذي انبعث من **الكومونة**[183] la Commune **وقضيّة دريفوس**[184] وحرب سنة ألف وتسعمائة وأربعة عشر، كلّها أحداث أثّرت على مجريات التّأمّل الفرنسيّ. إنّها المغامرة الرّوحيّة لبرجوازيّ مهدَّد وحذر ينظر يمينه وشماله، ثمّ قويّ فواثق في تماسك قضيّته ومستقبل حياته وقيمة مهمّته. هي فلسفة بدأت في وسط أجواء من الهزيمة الّتي حدثت في «سيدان»[185] وتتوّجت بمختلف التّعليقات الّتي خصّصتها الجامعة لانتصار «مارن»[186] وسلام فرساي[187]. أمّا في الجانب الفلسفيّ، فيُعتبر الصّعود المؤقّت للرئيس ماساريك[188] حمّالا للسّلطة الرّوحيّة للفلسفة البرجوازيّة.

سنشهد أوقاتا أين هذا العقل العظيم الّذي كان وقد وجد مع ديكارت وكانط جدارته وفضاءاته، والّذي سيشكّل التّبريرات العقليّة للملكيّة الفكريّة للمواطن، وللبرجوازيّ الّذي سيغرق في فوضى من التّقلّبات الطّارئة. لن يكفي [هذا العقل] لتلبية الحاجيّات الرّوحيّة للبرجوازيّين التّائهين في عالم بنوْه [بأيديهم]، ولن يكفي لتلبية الحاجّيات الطّارئة لطبقتهم الواقعة تحت تهديد الثّورة. لن تقبل طبقة بموتها دون أن تحاول

---

(183) . كمونة باريس 1871، la commune de Paris: حكومة بلديّة ثوريّة أدارت باريس ابتداء من مارس 1871، قامت على إثرها ثورة وعلى إثر خسارة نابليون الثّالث للحرب مع بروسيا. وهي ثورة وضعت كل الجمهوريّة الثّالثة الفرنسيّة في أزمة أطلق عليها اسم «كمونة باريس»، أو «أزمة 71».

(184) . زمة دريفوس وكما أشرنا في موضع سابق، هي قضيّة هزّت المجتمع الفرنسي من سنة 1894 إلى سنة 1906.

(185). هزيمة سيدان: معركة من معارك الحرب الفرنسيّة البروسيّة، يوم 1 سبتمبر 1870 وانتهت بهزيمة الجيش الفرنسيّ والقبض على الامبراطور نابليون الثّالث.

(186) . نتصار مارن: انتصار الجيش الفرنسي على الجيش الألماني على إثر معركة نشبت من 6 إلى 12 سبتمبر على نهر المارن، انتهت بانتصار الفرنسيّين.

(187) . لام فرساي: معاهدة أنهت بصورة رسميّة الحرب العالميّة الأولى وقد تمّ توقيعها يوم 28 يونيو 1919.

(188) . توماس ماساريك (1850، 1937)، فيلسوف وسياسيّ وعالم اجتماع تشيكي، دعا لاستقلال تشيكوسلوفاكيا أثناء الحرب العالميّة الأوى فكان أوّل رئيس لها، رئيس فيلسوف.

التّعلّق ما استطاعت بكلّ مواردها: ستنتُج فلسفات عن ذلك، ستأتي أيّام رائقة وملائمة لصانعي الأفكار ومتراوحة بين مطهّرات العدم ومتطلّبات النّظام، إنّنا نتساءلُ عمّا ستصبح عليه الأناشيد السّاذجة للفلسفة المتعلّقة بحقوق الإنسان وبالنّموّ الغامض. الفلسفة الّتي يتمّ الآن تعليمها في المؤسّسات التّابعة للدّولة الّتي لن تكون كافية إلى الأبد: تقاليدها الدّيمقراطيّة، بعض الأجواء الليبيراليّة من الكرامة والطّيبة الّتي لن تُسعف البرجوازيّة المهاجَمَة بشعارات، بأساطير ومواضيع للدّعاية الضّروريّة لآخر دفاعاتها وآخر محاولات صمودها. ستبدو السّتائر متناهية الرّهافة وبرسوم بارعة.

لكنّ هذه الفلسفة ستكتفي بإنجاز ما هو موكول إليها ولا أكثر من ذلك، كأن تشدّ ستار الثّقة والأمل إلى [نافذة] قوى الرّوح. ستتمكّن من خداع هؤلاء الّذين يفرض عليهم المستقبل موتَ الحضارة القائمة. إنّها منظومة وهميّة وقد شكّلها تاريخ القرن والّتي تنكر بكلّ قواها بأنّه يمكن لهذا العالم أن يموت.

عندما تحين ساعة اليأس من العقل القديم، ستتخلّى الفلسفة دون أدنى شكّ عن وعودها الدّيمقراطيّة، وعن مهامّها الإداريّة، وعن التّفاني الّذي لا تكفّ عن إسناده لنفسها. ستؤكّد فلسفات رجعيّة بكلّ وضوح على الضّرورات المادّيّة للهيمنة البرجوازيّة. ستتأسّس مؤسّسة فاشيّة في لبّ الفلسفة: ستولد قوميّات فرنسيّة. ستفقد الدّفاعات البرجوازيّة النّفاق الّذي ما زال يلفّفها. إذن، وللمرّة الأولى، ستستعيد الفلسفة البرجوازيّة اتّصالها مع أجواء الصّراع مع مصائرها الأرضيّة. في تلك السّاعة نفسها، ستتكاثف الحكمة الّتي كانت قد أُعلنت من قبلُ عبر علامات كثيرة:

سيبتكر مفكّرون من أجل البرجوازيّين الّذين لن يكونوا على جبهة المعركة، حِكَمًا لحياة داخليّة هادئة. لذلك سوف يتقوقعون داخل طيّاتهم الشّخصيّة. ستتخلّى التبريرات عن إسعاف اللاّجئين والفارّين. ولن يخون البرجوازيّون مجدّدا.

***

ربّما لن يتمتّعوا مجرّد التّمتّع بهذه الابتكارات. فالأحداث تسير فعليًّا بخطوات لن يتمكّن هؤلاء الأقزام من مجاراتها. ربّما، لن يكون هناك ممرّ فكريّ واحد بين الفلسفات الحاليّة الّتي لن تكون كافية وحقيقة العنف المدني. وربّما لن تجد البرجوازيّة متّسعا من الوقت من أجل استجداء كهنتها: [لذلك] سوف تلتفت فجأة إلى جنودها وإلى أسلحتهم. سيكون هناك خلط من الأفكار، ثمّ [تحين] السّجون وطلقات الرّصاص. هل نكتفي بالانتظار بيدين مكتوفتين تلك اللّحظة الأخيرة، قريبة كانت أو بعيدة، أين ستتبخّر بلا أمل كلّ إمكانيّة لإصلاح الفكر والثّقافة البرجوازيّة في حدّ ذاتها، والّتي ستغرق في يأس نهائيّ؟ هل سيكون علينا الانتظار إلى حدّ يجد فيه بنو الإنسان أنفسهم عراة وعزّلا أمام قدر يزداد خطورة إلى حدّ لن يكونوا فيه قادرين على شيء سوى الاستسلام للموت طوعا، بدل أن يجابهوا تلك الطّلقات؟ سيكون علينا وانطلاقا من الآن، وبكلّ الصّبر الممكن إذا ما كان لنا بعد متعة في الصّبر القاسي، وعلى مدى الوقت الّذي مازال في حوزتنا بأن نعدّهم لهذه التّهديدات. سيكون علينا تمكينهم من الأسلحة الّتي لا تريدها لها البرجوازيّة ومن وسائل الرّؤية الواضحة ومن وسائل معرفة بأنّ الكوارث البرجوازيّة ستعلن عن حلول موعدها، ومن وسائل لمعرفة إلى أين سيمضون والتّالي كيف سيمضون.

سيكون علينا أن نعدّهم لمهمّة مقاومة آخر الهجمات البرجوازيّة.

دون شكّ، سنشعر بأنّ غضبنا وقلة صبرنا وأن رؤيتنا للمستقبل لا يمكنها أن تُترجم إلى كلمات ولا أن تتنكّر في صور ورقيّة معدّة للطّباعة. دون شكّ، سيكون من الأجدر أن نهزم على أن نرفض، أن ننهزم على أن نُقنع وأن نكوّن محاربين مستقبليّين، عندها سنعيش سعادة أعمق وأكثر صلابة بأن نلزم منازلنا في مساء الانتصار على أن نعمل على المادّة اللّغويّة. ستعلو ريح هذا الانتصار بكلّ الغبار الآتي من رفضنا وستحرّرنا من أكداس خُطبنا ومن رفوف كتبنا وستطهّرنا من دنس بلاغتنا. لكنّ اللحظة لم تحن بعد. ليس الوقت مناسبا بعد. إنّ قدرة وفيضان هذا الانتصار، ولحظة هذا الانتصار، ما علينا أن نُعدّ وأن نغذّي بصبر ودهاء. ليكن [باعتماد] التّنقية والمخطّطات الزرقاء والمساومات والمواعيد والمناقشات والإقناع والاتّصالات قبل أن نرى أوّل قطار لخطّ تمّ إنشاؤه حديثا وهو يعبر جسرا تمّ إطلاقه حديثا أيضا. لتكن هناك إشكاليّات ومخطّطات قبل أيّ حسم إنسانيّ!

علينا اليوم أن نعلم بأن لا وجود لمهمّة متناهية الحقارة إلاّ إذا اكتفينا بالتّفرج من بعيد، فكلّ مهمّة قادرة على الإتيان ببذرّة أمل من أجل الانتصار الّذي سيأتي لا محالة. كما لا وجود لتنديد غير مجد: كلّ شيء يستحقّ التّنديد. لنكن بصبر تلك المهمّات المذلّة. ستستحقّ نسيانًا عادلًا في اليوم الّذي تستحوذ فيه على السّلطة الّتي من أجلها فقط كانت قد حدثت في خضمّ الصّراع. إليكم ما يقول الثّوريّ:

«نعمل اليوم على الآلة الكاتبة، غير أنّنا علينا نعلم أنّ في الغد، يمكن لهذه الآلة أن تتحوّل إلى مدفع رشّاش. نحن اليوم جنود القلم، غدا أو بعد

غد، سنحارب حاملين بنادقنا. لكن لا ينبغي علينا أن ننسى بأنّ قبل هذه البندقيّة، لن نتمكّن من تقديم نفع للثّورة إلاّ إذا، وبداية من اليوم، وضعنا بكلّ صراحة ونوعيّة في خدمة الجبهة الثّورة سلاحنا الحاليّ، القلم».

يقدّم ماركس هنا درسا حول سرّ الشّجاعة: الّتي هي زنبرك الصّبر:

«من البديهيّ ألاّ يتمكّن سلاح النّقد من تعويض نقد السّلاح. ولا القوّة المادّية بقادرة على السّقوط إلاّ بالقوّة المادّية، لكنّ النّظريّة تتحوّل بدورها إلى قوّة ماديّة ما إن تتخلّل الجماهير».

***

لا بدّ من أن تنشأ فلسفة جديدة ضدّ الفلسفة الحاليّة لتتكفّل بهذه الأعمال المتواضعة والنّاجعة. فلسفة لن تكون جديدة إلاّ في هذا البلد وفي هذا الوقت بالذّات، فلسفة تمكّنت من إثبات نفسها. الأمر لا يخصّ كشفا ولا أبدًاعا خارقين بقدر ما هو انضمام لفلسفة ماركس ولينين.

ها إنّنا نرى بأنّ الأفكار الّتي ابتدعها المفكّرون هي أفكار عقيمة في نظر الإنسان بل هي موجّهة بمكر ومداورة ضدّه، وضدّ المستقبل الّذي يحمل. هل سيكون علينا التسليم بأن الأفكار الّتي يتمّ تشكيلها داخل الرؤوس الإنسانيّة هي أفكار تنتهي بالانحراف ضدّه؟ هل سنبقى بهذه الرّؤوس اللاّمجدية والفارغة الّتي تمنّ بها البرجوازيّة علينا؟ هل نقبل بأنّ الفلسفة ليست معدّة لأن تسير في صالح البشر؟

إنّ الانفصال، وقد كان تراجيديًّا بالنّسبة إلى **جويهنو**[189]، وبالنّسبة إلى كلّ فرد يريد أن يبقى وفيًّا لآلهة قديمة وقد أصبحت محنّطة، وألاّ يخونَ

(189) . جون جويهنو: Jean Guéhenno، (1890. 1987)، كاتب وناقد أدبي فرنسي، من أصل متواضع، عاش حياة قاسية وقد كان يحلم بأن يصبح روائيّا كبيرا لكنّ سنوات الحرب الأولى والثّانية وما بينهما قد دفعته إلى الانقطاع عن الكتابة لزمن طويل وهو ما يتحدّث عنه بول نيزان في هذا المستوى.

رغم الآمال الّتي تحرّمها نفس هذه الآلهة، ما بين هؤلاء الّذين يمارسون مهنة التّفكير وتلك الجماهير المستغلّة، أولئك الّذين يطلق عليهم آباؤنا اسمَ «الشّعب» بكلّ حميميّة ورفعة وأمل والّذين علينا تكريمهم من هنا فصاعد بتسميتهم «البروليتاريا»، يحدث هذا الانفصال ما بين الفكر والعالم. هو كون من الأفكار والّذي هو ليس كونا لا ماديًا من الخطاب وقد تشكّل، إذ لا توجد ولو محاورة واضحة مع العالم الأرضيّ حيث تتعفّن الأجساد. يحدث أن يتمّ استقبال بني الإنسان في مجتمع صانعي الخطب العقلانيّ، دون أن يسمح الوقت ولا الفرصة بأن ينفصلوا عن عالم الحياة والموت، فيدركون فراغ هذه الفلسفة ولا يجدون بأنّ هذه الأفكار قابلة للتّطبيق على الوقائع الحازمة الّتي تدور في هذا العالم حيثُ مازال لهم موطئ قدم. فهم يرون بأنّها [فلسفات] يكمن تأثيرها في الإقناع بأن لا قيمة لهذا العالم، وبأنّه بلا وجود تقريبا، ويكمن في فَصْل الإنسان عن أرضه وعن معاركه. إنّهم يبحثون عن أفكار ذات فعاليّة من منظور تَحَقُّقِ الأنسان. لقد وصف ماركس في رسائله لِرُوجْ[190] ثورةَ العار، الّتي نعرفها، لكنّ الوقتَ حان حتّى نصف نحن بدورنا «ثورة الفراغ». بعد أن نكون عرفنا بأنّ هذا الفراغ وهذا العار اللّذين يمثّلان القوانين الرّوحيّة لهذا الزّمن والحضيض الممتدّ على كامل الأرض، فإنّهم ينكرون الغيوم والأساطير الفلسفيّة. يبدأ كلّ بحث عن إرادة جديدة بنكران عامّ. دائما ما جرت الأمور على هذا النّحو، في كلّ مرّة ينحرف فيها نوع من الوجود الاجتماعي بكلّ دعاماته الرّوحية ويميل في اتّجاه هلاكه، يظهر أناسٌ مشدودون إلى قوى المستقبل ليضطلعوا بمهمّة هذا التّنديد. يعمد أبطال الفكر البرجوازيّ أنفسهم إلى كشف هذه الطّريق. فهؤلاء النّاس، عبدة

(190) . أرنولد روج (1802. 1880)، فيلسوف وسياسي ألماني، من دعاة الثورة وتوحيد ألمانيا في ذاك الوقت، وقد تناغم لمدّة من الزمن مع كارل ماركس خصوصا في نظرته الاجتماعيّة فكانت له معه بعض تبادل الآراء، سرعان ما انقطعت.

الأيقونات، على علم بما يمكن أن ينتظر مدافعي الأزمنة المُدانة ضدّ الاحتجاج الّذي يستهدفها. لم يكونوا يوما في خدمة الدّولة، ولم يحترموا ممتلكاتها، فقد كانوا ضدّ العدد الأكبر من معاصريهم. فقد قال ديدرو ونحن على مشارف الثّورة البرجوازيّة:

«أعرف بأنّ الأمر يخصّ شريحة من البشر المليئة بالحقد تجاه العظماء، وهم لا ينحنون إكبارا لأيّ أحد، إلاّ لقضاة يحمون بطبعهم أفكارا مسبقة يعتمدونها، ولكهنة لا يرونهم إلاّ نادرا على أرضيّة هياكلهم، لشعراء، أناس بلا مبادئ من الّذين ينظرون إلى الفلسفة بغباء وكأنّها فأس متهاوية على [جذوع] الفنون الجميلة، هذا دون اعتبار أولئك الّذين ينتمون إليهم والّذين انصرفوا لممارسة هذا الجنس [الأدبي] البغيض الّذي هو «السّخرية» وهم ليس أكثر من مخادعين، ولجماهير كلّ العصور، من عبدة الطّغاة الّذين يقمعونهم، من أوغاد يخدعونهم ومن مهرّجين يسلّونهم».

ليس لفلاسفة هذا الزمن أدنى دافع للقيام بمثل هذا العمل، ولا أدنى دافع كي يجرفهم كره القضاة والعظماء، ليس لهم ولو سبب واحد حتّى يتراجعوا عن امتناعهم على التّصويت وأن يتخلّوا عن كبريائهم؟ لا شيء يمكن أن يقرّبهم من أناس متعطّشين لفلسفة جديدة فعّالة. لا وجود لدراما ستجعلهم يشكّون في صلاحيّة أفكارهم القديمة. لقد قال أفلاطون إنّه ينبغي أن تتوفّر ظروف سعيدة من أجل تكوين الفيلسوف، يقول أيضا إنّ معالجة الأفكار قاسية على أولئك الّذين نشأوا في العبوديّة منذ ولادتهم: لا مصادفة سعيدة واحدة قد انتزعت السيّد برنشفيك من العبوديّة الرّوحيّة الّتي خضع لها بكلّ طوعيّة. وأشكّ بأن يكون الوقت مازال ملائما لذلك.

لكن، بالنّسبة إلى هؤلاء الوافدين الجدد، فيمكنهم أن يعطوا للفلسفة روحا جديدة. بإمكانهم أن يدمّروا الأفكار القديمة على شرط أن يتهيّؤوا لذلك بكلّ قوّة وصبر. وليعلموا في البداية ما هو على وشك الموت وما الّذي سيحيى طويلا. إنّ كشف الأوهام الفلسفيّة الّتي تعتّم على وضعيّتهم الحقيقة، كشفها لأطفال فرنسا ابتداء من مدارسهم العلمانيّة إلى جامعاتهم، يبقى عملا مستعجلا.

هناك طبقة من النّاس من هي ضحيّة لتهرّم العالم البرجوازيّ كما كانت ضحيّة لكبريائها وها هي اليوم تتجّه صوب عالم حامل لأنقاض العالم الحاليّ. كلّ النّاس الّذين لا يقبلون بموتهم، ولا يريدون أن يكون شركاء، سينظمّ كلّ هؤلاء الّذين لا يقبلون لا الفراغ ولا العار إلى ظلّ البروليتاريا.

***

لقد نطق ماركس بكلمات كانت مسموعة، لأنّ البروليتاريا كانت تنتظر أن يتمّ قولها في مثل تلك الكلمات الّتي وافقت عليها مسبقا. لقد كانت ترى بأنّ الاضطهاد الحقيقيّ للإنسان ليس عمليّة مجرّدة لنمسيس[191]، وليست من مخلّفات السّقوط الأوّل، ولا نتيجة استعباد فرديّ ناجم عن عاطفة جيّاشة. ليست الحرّية حيلة في مواجهة الأقدار والخلاص أو لانتصار العقل على العواطف والّذي دائما ما مثّل علامة [فارقة] في الفكر البرجوازيّ. لكنّ الاضطهاد هو الماضي نفسه الذي عزّزه التّاريخ، إنّه زحف للذاكرة الميّتة. لذلك فإنّ الفلسفة عمل متقارب مع عمل حفّار القبور، دفن وحرق للإنسان الميّت بيدي الإنسان الحيّ. لم يعد التّطور المرسوم حركة مجرّدة لفكر مجهول، أو انعكاسا باهتا للأفكار ـــ لكنّ

(191) . مسيس: في الميثولوجيا الإغريقيّة هي آلهة الانتقام.

التّطور هو حركة حقيقيّة إلى الأمام، ارتفاع يتمظهر عبر تجديد حقيقيّ وليس عبر انتقال مجرّد من مفهوم إلى مفهوم. كان ماركس وقد حذّره الواقعيّ، والتّبعيّة الجسديّة الانسانيّة، قد بحث عن الأسباب الّتي أدّت إلى ذلك في نفس المكان الّذي كانت قد حدثت فيه. لقد عاينها في قلب إنتاج السّلع الّذي كان مربضا لكلّ التّبعيّات وكلّ العجز. لم يتأمّل مطلقا. لم ينتظر إزهارًا موسميًّا للعقل. ما كان يقوده هي رغبة عاطفيّة في معالجة الوضعيّات الإنسانيّة الزّائفة وليس أن يظلّ كاهنا. لقد كان راديكاليًّا: كان يريد أن يعالج الأشياء منذ جذورها لا أن يكتفي بتشذيب أغصانها العليا: لم يكن أكثر من بستانيّ هادئ.

عندما يتمكّن الفيلسوف من التفطّن إلى أنّ هدفه النظريّ إنّما هو وبدقّة الهدف التطبيقيّ لطبقة ما، وبأنّ التّبعيّة الّتي ينصرف إلى وصفها بنفسه قد تمّ استنكارها من قبل [هذه الطبقة]، فهل يمكنه أن يكتفي بمجرّد أفكار قليلة في هذا الخصوص؟

لقد حان الوقت لنكفّ عن تعريف الحياة كما فعل السيّد برغسون وأن نعيش بواقعيّة في [معمعة] الموت. إنّه لمن المستحيل من هنا فصاعدا بأن [نكتفي] بإعلان حبّنا للبشر بمشاعر جياشة وببلاغة عظيمة، لنعمل من أجلهم، وفي نفس الوقت لنتقبّل إمكانيّة تعرّضهم للإذلال والسّحق. لقد بات من المستحيل التّفاخر على الملأ بمخطّطات لمنتوج تجريديّ تمّ لفائدة الإنسانية: نريد أو لا نريد انتاجهم الواقعي: هذا الخيار هو خيار أكثر راديكاليّة من كلّ الدّراسات النّقديّة. إذا لم يطابق المفكّر فكره مع عمله على هذا التّحرر وهذا الإنجاز وهذا الامتلاء فإنّ صداقته المعلنة للإنسانيّة عقيمة.

لكن، ليس على كلّ من أراد اعتناق حزبهم أن يعرّض نفسه لعقبات كبيرة: هذا لأنّ النّاس لا يطلبون سوى أن يكونوا ممتلئين.

***

ظلّت لعبة الفكر البرجوازيّ رابحة لكلّ أشواطها لفترة طويلة، فحصلت على ما أمكن من هذه علامات الاحترام تلك، وتلك الثّقة، والأمل في الكهنة وفي كلّ ما يمكن أن تعوّل عليه. لكن، ها إنّ هذه الثّقة قد أُنهكت، وها هو ذاك الأمل قد عاد خائبا، وذاك الاحترام قد تلاشى: كلّ أولئك الّذين كانت البرجوازيّة الليبيراليّة قد احتضنتهم باسم الشّعب، يرون بأنّ التّدخّل قد طال انتظاره. إنّهم مندهشون لكون الكهنة ليسوا بتلك الفعّاليّة المرجوّة، فلا يمكّنوهم من وسائل تجاوز الضّرورات القاسية حيث وجدوا أنفسهم في شَرَكِها. لا شيء يحدثُ. تمّ ختم كلّ القنوات. يا للبون الشّاسع الّذي بين ما تعد به الكهنة وما هو في متناولها. فهذا البون ما يضع كلّ مآلا الفكر قيد السّؤال. هذا البون ما يزعج النّاس بما في ذلك أفضلهم.

إنّ الضّرورة الجوهريّة لهذا التّقرير (العدل) ما يفضي إلى كونيّته: إذ يثير انتهاك ضمانات المدّعي في كلّ بقاع العالم المتحضّر نفسَ ردود الفعل الفكريّة، نفسَ الاستنكار في هكذا تحدّث ليون برنشفيك.

عندما نفكّر في قضيّة دريفوس، نقول في أنفسنا إنّ هذا جيّد. لكنّنا بعد ذلك، نستذكر محاكمة ساكّو وفانزيتّي[192] وإعدامهِ، ونفكرّ في الظّروف

(192) . قضيّة ساكّو وفانزيتّي: قضيّة عدليّة تحوّلت فيما بعد إلى قضيّة رأي عام حدثت في عشرينات القرن الماضي في الولايات المتّحدة الأمريكيّة ضدّ متمرّدين من أصل إيطالي وهما: نيكولا ساكّو وبارتولوميو فانسيتّي وقد صدر في حقّهما ونُفّذ حكم الإعدام لتخلّف موجة من الاحتجاجات المندّدة ولتفرز هذه القضيّة أيضا أعمالا فنيّة متعدّدة ومتنوّعة من شعر وأغاني وأعمال أخرى تشكيليّة.

القانونيّة الّتي دارت خلالها محاكمات الثّوريّين في الهند الصّينيّة: إنّه لمن الصّعوبة بمكان أن نستنتج بأنّ حدود ممارسة رجال الكنيسة دائما لما يتناسبُ مع مصالح البرجوازيّة. لقد كان الدّفاع عن دريفوس تأكيدا للبرجوازيّة، وكان الدّفاع عن ساكّو وعن **الطّاويّة**[193] باسم العدالة [بمثابة] العمل ضدّ الذّات، هو إرادة تدمير تلك الذّات في النّهاية. إذا ما طال جور العدل بروليتاريًّا واحدا فإنّ الفلسفة لن تولي ذلك أدنى اهتمام. لأنّ الإنسان البروليتاريّ مقيم خارج الفلسفة. فهو لا يملك ولو عنوانا واحدا على علاقة بالبرجوازيّة. لم يعد هناك من فائدة واقعيّة واحدة سيجدها في الفلسفة البرجوازيّة. وها هو يعلم ذلك أخيرا وها هو يتوجّه صوب فلسفة أكثر نفعا.

***

إنّ الوضعيّة الّتي تفرض نفسها على محترفي الفكر، على هؤلاء النّاس المزوّدين بتقنيات للذّكاء، هي وضعيّة قاسية. (وينبغي هنا التّوجّه للشباب الّذين يخوضون تدريبا كنسيًّا وليس لأولئك الكهنة العجّز الواقفين في شيخوختهم بحكم العادة، الواقفين في ذاكرتهم، في تصلّب أنسجتهم وفي رضاهم. إنّ المحاورة المغلوطة الدّائرة بين معلّمينا القدامى ونحن، متأتيّة دون شكّ من كوننا لا نأمل مطلقا في إقناعهم، لكنّهم يعتقدون بأنّ بداخلنا مثل هذا الأمل. ليس من المهمّ ملامستهم بل التّغلّب عليهم). إنّ هذه الوضعيّة لُمِحّة، فلم يعد بالإمكان تركها لمزيد من النّظر. إنّها لا تترك لنا سوى الخيار التّالي:

(193) . الطّاوية: تيّار فلسفي صينيّ وهو مصطلح يعني العيش في وئام مع نمط ومضمون كلّ شيء موجود في الحياة.

من الممكن التمسّك بالسّلوك الكهنوتيّ، بأن نبجّل الضّرورات المتميّزة والمكانة العالية للعقل على حساب ضرورات أخرى مهملة وعلى تمايز إنسانيّ في علاقة بالحياة، وألاّ نعلن عن انتمائنا لحزب ما على الملأ. لكنّ هذا الولاء للكهنوتيّة، وهذا الانصراف للأشياء المطلقة هو حزب في حدّ ذاته. إنّه بالضّبط حزب الخيانة بامتياز، الخيانة الّتي لن تُغتفر. الخيانة الّتي تركت الإنسان في مرمى القوى المسلّطة ضدّه. هذا لأنّ الخلاص المقترح عليه كان خلاصا روحيّا، لكنّ الضّربات الّتي يتلقّاها فعليًّا ليست كذلك. إنّ هذا الولاء هو حقّا ما يخفي التهرّب الأقصى [من الواجب]. وهذا الولاء هو أيضا ما يمنع الإدراك، الأكثر تعقيدا، والأكثر براعة من ضمن كلّ الأدوات الأخرى الّتي وضعتها التقنية الإنسانيّة، بأن تكون في خدمة النّاس، بأن تكون لك مهن في حياتهم وبأن تدافع عليهم وأن تفسّر لهم بواقعيّة مصيرهم. قد نسمع تقييما لإنسان ما بالقول التّالي: إنّه لا يحسن تدوير إبهاميْ يديه، إنّه لا يحسن فعل شيء بأصابعه العشرة. إليكم ما وجب قوله للكهنة: إنّه يحسن تدوير منطقة، وإنّه لا يحسن فعل شيء بما لديه من إدراك. ستنهي هذا الأفكار العمليّة بأن توجّهنا. ليس الولاء للعقل عدا قناع للولاء للبرجوازيّة، بخيانة البشر: هذا التّخلّي، هذا التنكّر للبشر هما حقيقة خيانة الكهنة الّذين حولهم تبادل فلاسفة أشباح ضربات شبحيّة.

من الممكن أيضا خيانة الواجبات الجليلة للعقل من أجل معانقة الحزب الأرضيّ للبشر. يحتوي هذا النوع الجديد من الولاء على الخيانة الموجّهة للطّبقة الّتي استعبدتهم، وللمصالح الّتي سحقتهم.

***

إن ثقافةَ الذّكاء سلاحٌ فعّال. يتعلّق السّؤال الآن بمعرفة ما إذا سوف يلقون بهذا السّلاح في إحدى الأركان حيثُ سيغزوه الصّدأ، أو ستتمّ استعادته واستخدامه من جديد. ففي الجامعات والمدارس والمعاهد، يتلقى الشّبان تدريبا أكاديميًّا حول استخدام هذا السّلاح: ألن يُقدموا على استخدام من نوع آخر لهذه المعرفة؟ في هذه السّاعة الّتي ترزح فيها حضارة آبائهم لخطر نهائيّ، هل سيقبلون الدّفاع عنها ضدّ البشر؟ أم هل سيخونون آباءهم؟ إنّهم في وضعيّة لتكبّد مخلّفات ثورة العار، الّتي عبرها سينتهون إلى «الإصغاء ل \ أولئك الّذين يفكّرون وأولئك الّذين يعانون».

إنّهم في وضعيّة ترك نهائيّ لعالم آبائهم لعجزه الّذي سيسرّع بموته.

***

إنّ الوظائف الحقيقيّة لما يمكننا تسميته الرّوح وهذا بشكل مؤقّت، هي وظائف راحت تلغي كلّ السّمات الكهنوتيّة: لن تبقى الرّوح حامية في الكلام وغائبة في الواقع.

أمّا بالنّسبة إلى الفلاسفة الّذين عليهم أن يظهروا، فلم تعد المسألة بالنّسبة إليهم في أن يقترحوا النّماذج العظيمة، ولا أن يقدّموا نصائح من عمق الحكمة، ولا أن يوجّهوا أو يؤنّبوا أو يعدوا. لم تعد المسألة متعلّقة باصطناع الأعمال الخيريّة. ولا أن يتجنّبوا المخاطرة. لم تعد مسألة أن يقدّموا أيّ شيء للعمّال. لكن [لقد أصبحت مسألة] أن يكون معهم، وفي خدمتهم. بأنّ يكونوا صوتا صادحا ضمن أصواتهم. وليس صوت الرّوح. إنّها مسألة أن يكونوا ذوي فعّاليّة. لا اصطناع دور رسول. ففي السّنوات الّتي نعيش، سيصبح الفيلسوف في صفّ شخصه. مرتبطا بالمتطلّبات الفظّة لأناس أحياء، لن يكون أكثر من تقنيّ مختصّ في هذه

المتطلّبات، لن تقتصر مهنته من هنا فصاعدا إلاّ على التّعبير عن إرادات شبه غامضة، عن ثورات متفضة بكلّ غموض في داخل الإنسان. لن تمكّن من الاضطلاع إلا بمهمّة الكشف عن كلّ الظّروف الّتي يكفّ فيها الإنسان على أن يكون إنسانا، أن يفسّرها، أن يحّددها بكلّ قوّة إلى مستوى تصبح فيه واضحة في وعي النّاس بوضعيّة كلّ أولئك الّذين مازالوا يعيشون دون أن ينتبهوا إليها. كان ماركس قد قال:

«إنّنا لا نقدّم أنفسنا في العالم باعتبارنا دوغمائيّين بمبدأ جديد: ها هي الحقيقة، فاجْثُ على ركبتيْك. لم نقل له: تخلّ عن الصّراع، إذ هم ليسوا هنا إلاّ بوصفهم حماقات. نحن لا نفعل أكثر من دلّه على الأهداف الّتي يصارع من أجلها فعليًّا. عليه أن يكتسب الوعي بنفسه، حتّى وإن لم يُرد ذلك».

تقترح كلّ فلسفة نمطا ما. وتتجسّد المقاصد العمليّة لكلّ فلسفة في نموذج إنسانيّ. شيء ما للتّقليد. كان الفلاسفة القدامى يخلقون أنماطا متنوّعة للحكيم. ويقترح الفلاسفة المعاصرون أنماطا للمواطن. ليلتحق المواطن بالحكيم في غبار التّاريخ. تموت هذه الأنماط ومعهم القدّيس. كما يموت آخر كشف للفلسفة البرجوازيّة الّذي يقترحه السيّد باندا. أمّا النّمط الّذي تطمح إليه فلسفة المضطهَدين هو نمط الثّوريّ المحترف الّذي قدّمه لينين. فهو يتعارض بشدّة مع ما يمكن أن يكون الكهنوتيّ التأمّلي المتجسّد في الفكر البرجوازيّ. لم يعد المطلوب من الفيلسوف الثّوريّ أن يتصوّر مبادئا مستقبليّة. فالثّورة لم تُنجزْ بعد. لن يتمكّن سوى من أن يتقدّم بوصفه إنسانا متّجها صوب الثّورة، لكنّها ثورة لم ينجز منها شيء يُذكر. وإنّ المفكّرين الّذين يلتحقون ليسوا أكثر من متسرّعين يعتقدون بأنّ الثّورة

قد تمّت منذ اللحظة الّتي يلتحقون بها. لن نسقط في هذه الأضغاث الحلميّة بالمستقبل. إنّ مهمّة الفلسفة لهي أبعد ما يمكن وأكثر تواضعا ما أمكن.

***

فعاليّة العمل الفلسفيّ الثّوريّ ليست ممكنة إلاّ عبر رابط ما، عبر اتّحاد حميم، عبر تطابق للفيلسوف مع الطّبقة الّتي تحمل الثّورة. لن يتمكّن من تحقيق التّنديدات الّتي يشعر بأنّه ملتزم بها، ولا من تأكيد القيم الإنسانيّة الّتي يطمح إليها، إلاّ بتبادل تجاريّ فعليّ مع مؤسّسات البروليتاريا. ليس من قبيل المبالغة في القول إنّ الخيانة الّتي هي محميّة هنا، والّتي هي مفروضة هنا تحمل الوفاء لطبقة ما: ينبغي القول أيضا إنّ تقنيّ الفلسفة الثّورية سيكون هو نفسه رجل حزب ما. يتضمّن أبسط تجمّع نقابيّ على أكثر نقاط تطبيقيّة للفكر الملموس الّذي هو الفلسفة الحقيقيّة من افتتاح لتمثال لأحد الفلاسفة أو من إحدى المناقشات الحكيمة في [المدرسة الكنسيّة] للأب بونتانيي.

لم يعد لفيلسوف الخدم هذا، من إضاءات ليقدّمها، ولا من أساطير لينشئها، ولا سحر ليعتمده، لكنّه عمل صبور ومتواضع متمثّل في التّنديد وتوضيح الوضعيّات اللاإنسانية. لكنّه تأسيس لمعرفة حقيقيّة، موجّهة لنتائج عمليّة تعقبُ أيَّ فعل. لم يعد الفيلسوف سوى اختصاصيّ ضرورات واستنكارات يعرفها الإنسان المضطهَد تمام المعرفة. سوف يطوّر بكلّ صبر تقنيات التّحرّر.

يتضمّن هذا التّوضيح ارتجاج كلّ الفلسفات الّتي توجّهها البرجوازيّة من أجل تعزيز سلطتها وتعتيم الوعي الخاصّ بالمضطهَدين. تؤدّي إدانة

لكلّ الأوهام وكلّ التّصوّرات المغلوطة المقدّمة للنّاس من أجل حجب تبعيّتهم إلى تحرير إرادة قلب كلّ الوضعيّات حيثُ التأمت كلّ هذه الأوهام.

في عالم منقسم بوحشيّة إلى أسياد وخدم، ينبغي في النّهاية إمّا الاعتراف علانيّة بتحالف كان مخفيًّا لزمن طويل مع الأسياد، أو الإعلان عن الالتحاق بحزب الخدم. لا مكان نتركه لعدالة الكهنوت. لا يبقى شيء عدا معارك الأحزاب.

إنّ كلّ الخيار المقترح ينحصر ما بين حلفين: حلف للبرجوازيّين، حلف للبروليتاريا، سينحاز الفيلسوف علانيّة لإحدى الشّقين. لقد ولّى زمن الحيلة. ويتضمّن الحلف الثّاني للولاء الوحيد الّذي مازال ذا قيمة. ليكن [ولاء] غير مخادع. ليكفّ عن التّخفّي خلف ستائر المطلق والعقل والعدل. سيكون مُعلنا. سيكون في وضح النّهار، متخلّصا من الحشمة الليليّة القديمة. لا شخص بعد للخيانة. لا شخص بعد للإبهار. ضربات نتلقّاه وأخرى نوجّهها. مازال فلاسفة اليوم يحمرّون عندما يعترفون بأنهم خانوا النّاس من أجل البرجوازيّة. لو خنّا البرجوازيّة من أجل النّاس، لن نحمرّ خجلا ونحن نعترف بأنّنا خونة.

7

ملاحظات

ملاحظة -1:

... إلى الصّرامة وأكثر منها إلى معاصريها دون غيرهم.

«إنّ العالم الحسّاس... ليس شيئا قد منحته مباشرة كلّ الأبديّة ليظلّ هو نفسه إلى الأبد. وهو لا يرى بأنّه منتوج للصّناعة وللنّظام الاجتماعيّ ـــ منتوج بمعنى أنّه في كلّ حقبة تاريخيّة، هناك منتوج ما لنشاط ما، ولسلسلة من الأجيال القابعة على أكتاف الأجيال الّتي سبقتها، والّتي توسّع الصّناعة وتعدّل من العلاقات الاجتماعيّة بالتّوازي مع الضّروريّات المتغيّرة. حتّى الأشياء التّابعة لأبسط يقين هشّ (مثل كرَزَة) فهيَ تُقدّم للإنسان كفضيلة للنموّ الاجتماعي والصّناعيّ والتّجاريّ... حتّى العلم العقلانيّ البحت فهو يبلغ أهدافه وغاياته ـــ ولا ننسى آليّاته عبر التّجارة والصّناعة، أمّا الأنشطة الإنسانيّة الدّقيقة، ذات الأولويّة كأولويّة الطّبيعة الخارجيّة فلا تشملها هذه الاعتبارات.

كارل ماركس، الإيديولوجيا الألمانيّة[194]

(194) . لإيديولوجيا الألمانيّة: مجموعة من المخطوطات كتبها كارل ماركس وفريدريك إنجلز سنة 1846 ولم يحظيا بنشرها.

ملاحظة- 2 :

...لا شيء فلسفيّ في هكذا مسعى.

قال ماركس في خصوص لودفيغ فيورباخ:

«يختزل فيورباخ الكائن الدّينيّ إلى كائن بشريّ. غير أنّ الكائن البشريّ ليس تجريدا مرتبطا بفرد معزول. إنّ الكائن البشريّ في واقعه هو مجموعة من الرّوابط الاجتماعيّة. وفيورباخ هنا والّذي لا يحشر نفسه في نقد هذا الكائن الواقعيّ لذلك يضطرّ لأن يُجرّد مجرى التّاريخ وأن يفترض وجود كائن بشريّ منعزل وألاّ يتصوّر جوهر البشريّة إلاّ بوصفها نوعا...».

من الممكن نَقْل ما يقوله ماركس في خصوص الرّوحيّ إلى الوعي الفلسفيّ، من الممكن القول:

«لا يرى فيورباخ (أو حتّى برغسون وبرنشفيك) بأنّ الرّوح الدّينيّة (أو الوعي الفلسفيّ) هو نتاج اجتماعيّ وأن الفرد المجرّد الّذي يُخضعه للتّحليل ينتمي في الحقيقة إلى شكل اجتماعيّ محدّد».

بالتّالي، يخصّ الأمر أن يفسّر كلّ فيلسوف من داخل موقعه المعيشيّ وداخل مجموعة أفراد وباعتماد بسيكولوجيا هذه المجموعات، والبسيكولوجيا الخاصّة بالتّجمّعات الفلسفيّة. نهاية، في علاقة بالرّابط الاجتماعيّ، ومختلف مصالح هذه المجموعات المتنوّعة، وبوضعيّاتها الحقيقيّة «حيثُ اعترضت الطّبقة مصيرها».

هناك على سبيل المثال كانط. لن نتمكّن من تأويل «مذهب القانون»[195] بمجرّد العودة إلى التّطوّر الخاصّ بالفلسفة الكانطيّة، فإمّا أن

(195) . تاب لإيمانوال كانط.

تبدوَ مرتبطة ببداهة بلا بديل، أو فإنّها تنخرط في حوار مثاليّ حيث يردّ كانط على روسّو. من المستحيل أن نعثر فيها ملامح لازدهار السلسلة الّتي ينطوي عليها مذهب العقد الاجتماعي. فروسّو يعير كانط لا نعلم كم كلمة، إنّه يريد ثورة حيث يكون كانط المفسّر الأساسيّ. هذه فجوة لن يقدر على تجاوزها ولو تحايل بلاغيّ. الأوهام، الآمال، وعود روسّو الكونيّة، الّتي تمّ تأكيدها وتبريرها في منجز كانط عبر ميتافيزيقا للطّبيعة والأخلاق، رغم أنّها آلات للفشل مع فيلسوف الحرّيّة. فبالرّغم من التّوكيد العامّ لكونيّة سيادة القانون، إلاّ أنّ هناك شريحة بشريّة مستثنية من هذه الكونيّة الوهميّة:

«وحدها إمكانيّة الاقتراع ما تصنع المواطن، لكنّها إمكانيّة تفترض أن يكون هناك بين الشّعب استقلاليّة ليس الّذي يريد أن ينتمي للجمهوريّة فقط بل الّذي يريد أن يكون عضوا ناشطا فيها أيضا. ما يعني المشاركة في المجموعة بكلّ إرادة ذاتيّة. لكنّ الميزة الأخيرة تُحتّم التّفرقة ما بين المواطن الفاعل والمواطن السّلبيّ. مع أنّ فكر هذا الأخير يتعارض مع تعريف المواطن بشكل عامّ، قد ترفع الأمثلة التّالية كلّ التباس. فالولد الأجير عند تاجر، والعامل في المصنع، الخادم الّذي ليس في خدمة الدّولة، اليتيم، كلّ النّساء، وبصفة عامّة كلّ من يضطرّ إلى تزويد وجوده على غير ما يشتهي وإنّما استجابة لتوصيات الآخرين، هو نقص في شخصيّته المدنيّة إلى درجة يصبح فيه وجوده مجرّد عالة. فالحطّاب أو المكلّف بخدمة مزرعة من المزارع، الحدّاد في الهند الّذي ينتقل من منزل إلى آخر محمّلا بسندانه وبمطرقته ومنفاخه من أجل تأجيج النّار، إضافة إلى النّجار ومشيرُ أوروبّا، الرّيفيّ الأجير، المعلّم المنزليّ، مثله مثل المعلّم في المدارس والفلاّح، هم

مسيّرون بسطاء للشّؤون العامّة هذا لأنّه ينبغي توجيههم وحمايتهم، ممّا يجعلهم غير متمتّعين باستقلاليّتهم المدنيّة».

وهكذا لا تتمتّع شريحة كبيرة من المجتمع المدنيّ إلاّ بحقوق جزئيّة، وهي لا تضمّ إلاّ «حلفاء الدّولة». هذا التّفاوت [الاجتماعيّ] لم يكن مرئيّا قبل كانط على أنّه الحجر الّذي تتعثّر فيه كونيّة سيادة القانون، بل على العكس من ذلك، فهو يرى فيه مجموعة من الوضعيّات «الملائمة تماما لتشكّل المدينة». يمكن لـ«حلفاء الدّولة» أن يطالبوا بمعاملتهم كما يُعامل بقيّة النّاس وفق قوانين الحرّية والمساواة، لكنّ بوصفهم مكوّنات سلبيّة لا أكثر. إذ هم لا يتمتّعون بتراخيص تضمن لهم الحقّ في التّصرّف، لا يمكنهم أن «ينظّموا الدّولة أو ... أن يشاركوا في صياغة بعض القوانين، مهما كانت درجة إيجابيّة القوانين الّتي يعيشون في كنفها». إنّ «الأشخاص» الحقّ هم أولئك الّذين بمقدورهم عيش حياة مدنيّة، ما يعني أولئك المستقلّين اقتصاديًّا. نحن نرى بجلاء الثّمن الّذي من المتاح دفعه مقابل الإعلان الشّهير:

«انقضى وقتٌ طويل عندما كنت أعتقد بأنّ كلّ هذا يمكن أن يضمن كرامة الإنسانيّة. إنّه روسّو من خدعني. تلاشت هذه الكبرياء الموهومة: لقد تعلّمت تكريم بني البشر وسأجد نفسي أكثر لا جدوى من المشترك الّذي يجمع بين الفانين لو ظللت على اعتقادي بأنّه يمكن لموضوع الدّراسة هذا أن يقدّم للآخرين قيمة تتمثّل في الآتي: العمل على إبراز حقوق الإنسان».

هذا لأنّ الإنسانيّة المتحدّث عنها يتمّ اختزالها إلى الإنسانيّة البرجوازيّة، فالفرد المنتمي لمملكة القانون هو التّجلّي الواضح للإيطيقيا والتّبرير

العقلانيّ للواقع الاقتصاديّ البرجوازيّ، وهو غير راضخ لمتطلّبات رأس المال بل الّذي ينتجه. في مجتمع حيث تكون العلاقات الإنسانيّة علاقات بين سادة وخدم، «علاقات راضخة لقوانين العبوديّة»، فهذا الفرد من يلخّص الممتلكات القانونيّة والمعنويّة للأسياد. وهكذا تصبح كلّ صعوبة منطقيّة تعترض كونيّة الأخلاق استحالةً بسيكولوجيّة تحول دون تجاوز أحكام طبقة اقتصاديّة ما. وتصبح تناقضًا فلسفيًّا داخل منظومة مّا، تناقضا اقتصاديًّا من الوسط الّذي يتجذّر فيه هذا النّظام. إنّ هذا الشّرح بعيد على أن يتحلّى بالنّبل: فهو يبرّر الفيلسوف بوضعيّات سيتظاهر بأنّه متموقع خارجها. إنّه ليس من قبيل التّقنية الفلسفيّة. فهو يفسّر الإيديولوجيا بما ليست هي، بما تعتبره هذه الإيديولوجيا أقلّ نُبلا. وإنّ نقص النّبل هذا ما سيكون دليلا دائما على النّزعة الماديّة.

وهكذا نتمكّن من لمس هذا التّناقض بين ما يعد به الفكر البرجوازيّ وما يمارسه المجتمع البرجوازيّ في كلّ أعماله البعيدة عن الفلسفة. تعلّق الثّورة السياسيّة على تأمّلات كانط، بإعلانها عن المذهب الكونيّ المتعلّق بالحقوق والمساواة المطلقة بين المواطنين ضمن هذه الحقوق، فهي تشتمل في واقعها على ممارسة قانونيّة من شأنها أن تضع العمّال في وضعيّة خاصّة، وبعبارة أكثر دقّة، في وضعيّة متميّزة. فقانون «لوشابليي»[196] الصّادر بين 14 و17 يونيو (جوان) الّذي منع كلّ اجتماع بين أشخاص من نفس المهنة لمناقشة مصالحهم. تنصّ المادّة 1780 من القانون المدني على أنّه في حالة وجود اختلاف في حصص الأجور فإنّ القول الفصل سيبقى للسيّد. ويستعيد قانون الشّغل في مادّته 11 أحكام مرسوم 1749 ويتمسّك

(196) . ون صدر من قبل المحامي الفرنسي إسحاق سابليي (1754. 1794)، تمّ بموجبه حظر المنظّمات العمّالية بما في ذلك النّقابات والتّجمّعات ومظاهرات العمّال والفلاّحين.

بالكتيّب الّذي يربط العامل بالرئيس. كتب السيّد «سيلّي»[197] في هذا الخصوص:

«هكذا كان المشرّع يبدو، في تلك الحقبة، أقلّ انشغالا بمبدأ المساواة بين الأفراد أمام القانون العامّ من انشغاله بإبقاء العامل تحت الوصاية. فقد كان يتظاهر بإيمانه بأنّ تطبيق مبدأ المساواة ما يضمن الحرّيّة!». نحن نعرف أكثر من ذلك، من ناحية أخرى في خصوص الأحكام المنصوص عليها في قانون الاقتراع ما بين المواطنين الفاعلين والمواطنين السّلبيّين الّذين يعترف كانط بوجودهم.

تبدو كلّ الإجراءات الّتي تُطبّق في اتّجاه تكريس الحرّيّة العمّاليّة إجراءات مهينة للحرّية البرجوازيّة. لا يمكن للفلاسفة المنظّرين للحرّية البرجوازيّة أن يفكّروا في الحرّيّة العمّاليّة. تحكم التقارير الاقتصاديّة العينيّة للمجتمع البرجوازيّ بالفشل على كلّ فلسفة ذات منحى كونيّ. لقد تمّ تحريف منطق المساواة عن مساره باعتماد الضرائب.

الملاحظة- 3:

.....إنّه يقوّم، يُقنعُ، يحذّر.

«لا ينبغي للدّيمقراطيّة أن تكون أخوّة فقط. ينبغي أن تكون أبوّة أيضا. هذه الكلمات المتناقضة داخل العائلة الواحدة، يقول «ميشليه»[198]، ليست كذلك في المجتمع المدنيّ على الإطلاق. بعبارة أخرى، فإنّه النّخبة ما تنتمي الوظيفة والواجب والقيادة. على النّخبة أن تقود، على أنّها مضطرّة

(197) . ورج سيلّي: (1887. 1961)، محام وأستاذ للقانون، مختصّ في القانون الدّولي العامّ.
(198) . ول ميشليه (1798. 1874)، مؤرّخ فرنسيّ، معروف بليبراليّته وبمناهضته للكنيسة.

بمزيد من الجهد السّرمديّ حتّى تصبح ذات فائدة، عليها أن تحدّد إدارتها بنفسها لا أن تنتظر إلى نطلب نحن منها ذلك. إنّ من أكبر الأخطار المحدقة بالدّيمقراطيّة هو الانفصال ما بين الذّكاء والجماهير».

ج. بارتيليمي[199]، الاتّحاد من أجل الحقيقة، من 2 فيفري إلى 2 مارس 1919

الملاحظة- 4:

... إنّه يحكمُ على الشّعب الثّائر بالجحود.

كان هناك مناقشة مشرقة في صلب «الاتّحاد من أجل الحقيقة»[200] سنة 1919، حول المصادر الّتي مازال بإمكانها أن إنتاج الأنظمة الفرنسيّة القديمة (السّيمونيّة[201]، الفوريوريّة[202]، البرودونيّة [203] روح 48[204]، الوضعيّة، العقلانيّة). فيما يخصّ القدّيس سيمون، فقد عبّر الفلاسفة مجتمعين وبكل سذاجة بأن يكونوا محترمين:

«أ ليست أفكار القدّيس سيمون ذات البعد الأخلاقيّ الصّرف صالحة للاحتفاظ؟ إذ تقوم فكرته الأخلاقيّة المركزيّة على معطى الاحترام. لم يكن

---

(199) . جوزيف بارتيليمي (1874. 1945)، محام وأكاديميّ وسياسيّ فرنسي شغل خطّة وزير للعدل في ظلّ ما يُسمّى «فرنسا الفيشيّة» (19441940)

(200) . الاتّحاد من أجل الحقيقة: جمعيّة تربويّة فلسفيّة اتّخذت تسميات كثيرة.

(201) . السّيمونيّة: حركة سياسيّة واجتماعيّة فرنسيّة يعود تأسيسها إلى النّصف الأوّل من القرن التّاسع عشر، وقد استقت أفكارها من السّياسي الفرنسيّ هنري سان سيمون (1765. 1825)

(202) . الفوريوريّة: نظريّة اقتصاديّة وسياسيّة واجتماعيّة متأثّرة بالأفكار الاشتراكيّة، وتنبني على قناعة مفادها أنّ الجمعيّات الّتي تظمّ أشخاصا لهم نفس العمل ونمط الحياة هي أمر لا مفرّ منه وقد تمّ تبنّيها في بداية بعثها من قبل الاقتصاديّ والفيلسوف الفرنسي شارل فوريبه (1772. 1837)

(203) . البرودونيّة، نسبة للسياسي والفيلسوف الاشتراكي الفرنسي بيير جوزيف برودون (1809. 1865)، وتقول نظريّته هذه على التّشاركيّة.

(204) . وح 48: ثورة اجتماعيّة وسياسيّة تمّت من شهر نوفمبر إلى ربيع 1848 انتهت بالإطاحة بالملك لويس فيليب.

بلا سبب تسمية السّيمونيّين الأخلاقيّين «بالمتسلسلين». كان «مقتنصي البشر» قد ذهبوا إلى الضّواحي من أجل محاولة جلب عمّال للمذهب الجديد. وحاولوا أن يغرسوا داخلهم الاحترام عبر الثّقة في رؤساء العمل. يعرف الجميع «المثل» الشّهير لِلقدّيس سِيمون، حيث تخيّل لوهلة اختفاء متعدّدا ومفاجئا لكلّ كبار موظّفي الدّولة، منذ الامبراطور فالوزراء إلى المحافظين والقضاة ورجال الدّين والجيوش. سيكون هذا الاختفاء، كما يقول، اختفاء قليلٌ من ينتبه إليه شريطة أن يتمكّن في نفس ذاك الوقت الصّناعيّون والمصرفيّون والصّناعيّون والأطبّاء والعلماء من مواصلة مهامّهم. بينما سيخلّف اختفاء هؤلاء وعلى الفور أمّة مثل «جسد بلا روح».

الملاحظة- 5:

لقد أثبت العظماء في فرنسا ممّن عملوا على تحرير العقول بأنّهم ثوريّون جدّا... إذ ينبغي على كلّ شيء أن يثبت وجوده في محكمة العقل المحض أو فلينكر وجودة. لقد أصبح العقل المحض المعيار الوحيد الّذي يطبّق على كلّ شيء. لقد كان العصر الّذي، وفق قول هيجل، كان فيه «واقفا على رأسه»... طلع الفجر. وعلى كلّ ما هو حكم مُسبق وخرافة وتعسّف وامتياز واضطهاد أن يُخلِيَ مكانه للحقيقة المطلقة، للعدل، للمساواة ولحقوق الإنسان الّتي لا تسقط بالتّقادم.

نعرف الآن بأنّ سلطة العقل هذه ليست شيئا آخر سوى السّلطة المثاليّة للبرجوازيّة، وبأنّ العدل المطلق كان قد تحقّق ضمن العدل البرجوازيّ، وبأنّ المساواة كانت قد تلخّصت في الكنيسة في علاقتها بالقانون، وبأنّ

الملكيّة كانت قد أُعلن عنها كحقّ أساسيّ من حقوق الإنسان، وبأنّ الدّولة المثاليّة... لا يمكن لها التّحقّق إلاّ على شكل جمهوريّة ديمقراطيّة برجوازيّة. لم يتمكّن كبار مفكّري القرن الثّامن عشر من تجاوز الحدود الّتي فرضها زمنهم مطلقا... مع أنّه وفي العموم، كان للبرجوازيّة الحقّ بأن يدّعوا أنّ صراعهم مع النّبلاء كان يمثّل في نفس الوقت مصالح طبقات أخرى كادحة ومتنوّعة في ذاك الزّمن، ومع ذلك كانت كلّ حركة برجوازيّة تنتج حركات خاصّة بالطّبقة الّتي كانت إلى حدّ ما سلفا للبروليتاريا الحديثة.

ف. إنجلز، السيّد دوهرنغ يقلب العلم.

الملاحظة- 6:

... حاملو الفكر هم أدوات للتّقدّم.

«إنّ المؤرّخ، بمكانته الشّخصيّة، هو قبل كلّ عامل فكر ثمّ، وباعتماد سماته الخاصّة، هو رجل يكتب، رجل آداب. فما الّذي سيكون أكثر طبيعيّة إذن من أن يأخذ العمل الفكريّ على أنّه الشّيء الرّئيسيّ في التّاريخ، والمنجزات الأدبيّة، منذ القصائد والرّوايات إلى الكتب الفلسفيّة والعلميّة على أنّها أحداث حقيقيّة تنتمي إلى الثّقافة؟ لكنّ هذا ليس بالكافي. فعمّال الفكر متاح لهم بطبعهم أن يصلوا إلى نفس تلك الكبرياء الّتي ألهمت الفراعنة تلك النّقوش المتوهّجة. لقد بدأوا بالاعتقاد بأنّهم هم الّذين يصنعون التّاريخ».

م. ن. بوكرفسكي[205]، تاريخ الحضارة الرّوسيّة.

(205) . ميخائيل نيكولايفيتش بوكرفسكي (1868. 1932)، مؤرّخ روسي أوّل من قدّم مقاربة ماركسيّة للتّاريخ في روسيا.

الملاحظة- 7:

... لبعض المستقبل الّذي تصبو إليه.

«إنّ الفكر البرجوازيّ، وبدافع من نوع من اللّيبيراليّة الّتي بدأت بالتّغلغل منذ قرنين رغم الجوّ الأخلاقي [السّائد] الّذي لا يمكن تجاهله (ولا تجاهل تأثيره)، لا يمكن للفكر البرجوازيّ أن يصوغ المبادئ في كلّيتها والّتي تتمنّى منطقيًّا أن تنتشر: هكذا لا يمكن لهذا الفكر أن يمتدح صراحة العبوديّة ، ولا منطق الدّولة، ولا تكميم المطالب الشّعبيّة، ولا الاكليروسيّة ومبادئه، [بل] يخضع إلى دعم هذه المذاهب بكلّ نكران، وإلى ترديد جملة لصالحها لتعقبها مباشرة بجملة أخرى تبطلها، باختصار هو فكر يعيش متخفّيًا في غياب الدّقة وفي المتناقض».

ج. باندا، مقاربات.

«من الواضح أنّنا عندما ننشر مقالة حول مراسلات «مارسي أرجنتو» (206) أو حول عادات النّمل... فنحن لا نُثير مسألة حول شرعيّة الرأسماليّة أو الحروب الاستعماريّة».

المرجع السّابق

الملاحظة- 8:

... فكرة جبانة.

«فلسفة للمُمتنعين. فلسفة هدفها أن تبرز إلى أيّ مدى هي الأشياء معقّدة بشكل لا يمكن لأحد أن يفترض قابليّتها للتّعديل فيكتفي بجمع

(206) . مراسلات سرّية بين الديبلوماسي الفرنسي مارسي أرجنتو (1727- 1794) وماري أنطوانيت ملكة فرنسا وزوجة لويس الرّابع عشر.

ما أمكن من الصّعوبات دون تقديم حلّ واحد. لم يعد التّفكير ما يتيح الحكم بل ما يُتيح تأجيل هذا الحكم. الأمر يخصّ بداية وأمام إشكاليّة ما أن نجد زاوية النّظر الّتي تمكّننا من الابتعاد عن مركز المعيش حيث تحتمل هذه الإشكاليّة نعم أو لا».

إ. بيرل. موت الفكر البرجوازيّ. ص 36ـ 37.

الملاحظة- 9:

... حرب أرواح.

«لقد تمّ الدّفع باختبار للوعي الجامعيّ إلى العمق. وبالنّسبة إلى هذا التّعميق، كان التّحليل مضاعفا عبر الفعل الّذي دائما ينتهي بكشف ذواتنا نفسها. لم تكن الجامعة قد حدّدت لنفسها بهذه الدّقّة العادات والمبادئ الّتي تمثّل. فطالما درّست الفلسفة دون توقّع أنّها لها فلسفة خاصّة بها. لقد تظافرت كلّ الأفكار الفرنسيّة من أجل المعركة... في حين وحسب الملاحظة الدّقيقة لرينوفييه[207] فإنّ عبادة القوّة والقدر هي الخطأ الرّئيسيّ الّذي اقترفه الفكر والحضارة الجرمانيّة، وإنّ عبادة الحرّية هُو تتويج للفكر الفرنسيّ على مدى العصور وهو المركز الّذي حوله تحوم كلّ التزاماتنا الفكريّة، وهي تخلّف فينا عبادة للوطن نفسه الذي هي مكمّلة له، مثل أفق أكثر فساحة ومكانة توّاقة للعالميّة... إنّها بمثابة الحملة الفلسفيّة. الكلمة الّتي طُبعت أوّل مرّة من طرف السيّد بوتروكس كما أعتقد. لكنها فكرة طالما عُبّر عنها. وهي أكثر وعيًا بالنّسبة إلى النّخبة الفكريّة، فقد تسرّبت إلى أرواح كلّ المناضلين...».

---

(207) . ارل بارنار رونوفييه (1815. 1903)، فيلسوف فرنسيّ معروف بوضعه لمصطلح «تاريخ بديل» uchronie من مؤلّفاته الكثيرة: علم الأخلاق، السّنة الفلسفيّة (في مجلّدين)، فيكتور هيجو: شاعرا، فيكتور هيجو: فيلسوفا...

ر. ثامين[208]، الجامعة والحرب، ص 160ـ162

وبقراءة النّشرة الأخيرة للقوّات المسلّحة، لمسنا بأريحيّة كبيرة بأنّه في الوقت الحاليّ، هناك حيث تتموقع السّلطة العليا، يوجد هناك أيضا وضوح مثاليّ وهكذا يكون كلّ شيء في مكانه: إنّها الحكمة الفرنسيّة الّتي تقودنا.

وهكذا، فإنّ ما يدافع عنه الألمان وما ندافع عنه نحن لا ينتمي إلى نفس المرتبة. فهم يتمثّلون مفارقة تاريخيّة خانقة ويانعة وقد آن تدميرها. لا يتعلّق بينهم وبيننا بأن يكون هناك «الفُوج»[209] أو «الرّاين»[210]: [ما بينهم وبيننا]، هناك قرون. إنّها لتجربة جريئة تلك الّتي عشناها، وما زلنا نعيشها، وهي تجربة التّحرّر السّياسيّ. أمّا ألمانيا فلم تعشها وإنّنا نشكّ في أنّها قادرة على ذلك. هكذا إذن، نحنُ نساندُ حرب استقلال ضدّها، حربا أكثر من وطنيّة. وسواء علمت أم لم تعلم الملايين من جيوش الحلفاء بأنّهم يضمّون الشّباب العالميّ الّذي يُعلي راية الثّورة الفرنسيّة عاليًا، وهم حصن حيويّ للقانون المنيع ضدّ الاستبداد.

ب. ديجاردن، من نشريّة «الاتّحاد من أجل الحقيقة»

جويلية 1917، خطابٌ أُلقي يوم 13 جولية 1917

بمناسبة توزيع جوائز كوندورسيه[211]

«إنّ الثّورة في حدّ ذاتها ــ وما الحرب الّتي عقبتها إلا حاشية إيديولوجيّة

(208) . رايمون ثامين (1857. 1933)، فيلسوف أخلاقي وجامعي فرنسي، له مؤلّفات أكاديميّة عديدة منها: الجامعة والحرب، بيداغوجيا الحرب...

(209) . فوج: إقليم فرنسيّ، تابع لمنطقة اللورين وهو إقليم ألحق بالأرض الفرنسية بعيد ثورة 1790.

(210) . الرّاين: نهر يشقّ أوروبّا بما في ذلك ألمانيا، وهو معروف بأنّه مثّل طويلا الحدود الرّئيسيّة ما بين الرّومان وقبائل الجرمان.

(211) . جائزة كوندورسيه: جوائز تُمنح على شرف الماركيز كوندرسيه، المصلح التّربويّ ورمز الثّورة الفرنسيّة (1743. 1794)

ــ لأنّ النّضال من أجل حقّ الشّعوب هو امتداد منطقيّ للنضال من أجل حقوق الإنسان».

ج. جاي ــ جران، نشريّة «الاتّحاد من
أجل الحقيقة»، 5 و9 جانفي 1919

«عند انسحاب روسيا، كان المشاة قد تمّ جرّهم إلى هنا، لإيمانهم المطلق بالنّجم البونابارتيّ وكانوا ينامون في الثّلوج ويموتون. لكن سنة 1914، وجيشنا متركّب من مواطنين أحرار، كانوا يرفضون تحمّل المعاناة كما يرفضون تحميل أولئك الّذين يحبّون لاعدلَ عدوان وحشيّ».

برنشفيك، تطوّر الوعي، ص 717

«إنّ موارد البلاد، قد تمّ إنفاقها في الشّركات العملاقة الخاصّة بالطّموح الّذي لا ينضب... طموح قتل من خلاله الغازي الملكَ... إنّ «لاَوْن»[212] لهي في الواقع هزيمة العبقريّة أمام الحقّ الثّائر. سيكون الدّرس ذاته بالنّسبة إلى جنودنا. إنّها العدالة المستردَّةُ، مهما فعلنا فإنّ مسارها محتوم على مرّ العصور. هي «فالمي» وقد عادت أدراجها، 1792، 1793 لتنقلب ضدّنا... نعم، نهاية وبعد أن جعلنا أروبّا بأكملها ترى كيف تنتفض الشّعوب بروح عالية وانتصاريّة من أجل إنقاذ سيادتها، ها هي أوروبّا اليوم ونحن نراها تنتصر لنفس القضيّة بنفس الأسلحة... الأكيد بأنّ لا وجود لمضطهدين إلا لمن أرادوا أن يكونوا كذلك».

الماريشال فوش، المجلّة الفرنسيّة مايو 1921

(مقتبسة من برنشفيك في «تطوّر الوعي» ص 242)

---

(212) . لاون: بلديّة فرنسيّة تقع بمنطقة «بيكاردي» في شمال فرنسا، يتحدّث هنا بول نيزان عن سقوط «لاون» بأيدي الجيوش الألمانية يوم 2 سبتمبر 1914 لتظلّ نقطة ارتكاز عسكريّة وأقربها إلى باريس وذلك إلى غاية 13 أكتوبر 1918، تاريخ تحريرها.

«إنّ إبراز ما كان عليه الفكر الفرنسيّ إلى مشارف سنة 1914 لهو بمثابة إثبات للمكانة الّتي ستقوم أوروبّا بردّها إلينا، وهي مكانة لن تُغتصب ثانية، هذا لأنّها من حقّنا، ونحن أهلٌ لها».

د. بارودي، الفلسفة المعاصرة في فرنسا ــ المقدّمة.

«تتمثّل فكرتي في أنّه ليس على رجال الدّين حقيقة أن يشاركوا في الحرب الوطنيّة إلاّ إذا كانت أقرب إلى حرب أهليّة، وأعني [الحرب] الّتي تُصادم ما بين مبدأين أبديّين تحت نوعي أمّتين. وهذا ما كان بالغ الوضوح، بالنّسبة إلي، في حرب 1914، الّتي لي بمثابة تهويل مبالغ فيه لقضيّة دريفوس، حيث كان مبدأ الوصاية متجسّدا في آل هوهنتسولرن[213]، ومبدأ الحرّية الفرديّة [متجسّدا] في فرنسا. وأنا لا أخفي بأنّ هذا الاحترام لم يكفّ على أن يكون من الدّوافع الّتي جعلتني أعتنق بكلّ غبطة قضيّة هذه الأخيرة (فرنسا)».

ج. باندا، أفكار جمهوريّ عام 1872

المجلّة الفرنسيّة الجديدة أوت(أغسطس) 1931

بإمكاننا مضاعفة هذه النّصوص المُهينة إلى ما لا نهاية، وأغربها ربّما هي نصوص السيّد «ج. شوفاليي»[214]، في كتاباته حول ديكارت، ونصوص برغسون الّتي سنجدها في كتيّب «ف. أرويت»[215]: **إنّها نهاية لاستعراض فلسفيّ.**

(213) . آل هوهنتسولرن: من أهمّ العائلات الحاكمة في ألمانيا من أواخر القرن التّاسع عشر إلى غاية 1918.

(214) . اك شوفالي (1882. 1962)، فيلسوف فرنسيّ، أستاذ في جامعة غرنوبل وهو رفيق مقرّب من هنري برغسون.

(215) . رنسوا . ماري أرويت: فولتير.

الملاحظة- 10:

... كجملة أبدّاعاته العفويّة.

«إذن، ففي الوقت الّذي فيه يبني إيديولوجيّ ما الأخلاقَ والقانونَ، لا بالعودة إلى الوضعيّة الاجتماعيّة الحقيقيّة للنّاس المحيطين به بل بالتقاطها من بعض المفاهيم أو بافتراضها انطلاقا من بعض المكوّنات الاجتماعيّة الأكثر سذاجة. فما هي الأدوات المتوفّرة له من أجل هذا البناء؟ من الواضح أنّ صنفيْن من هذه الأدوات يتوفّران له: هناك من ناحية بقايا ضئيلة من الحقيقة الّتي ما تزال صامدة أمام هذه المُجرّدات المأخوذة على أنّها نقطة انطلاق، وهناك من ناحية ثانية العنصر الّذي قد يقحمه ايديولوجيُّنا في وعيه الخاصّ. وماذا سيلمس في هذا الوعي؟ فيما يخصّ الجزء الغالب من الأفكار الأخلاقيّة والقانونيّة والّتي هي ملائمة تقريبا (سواء كانت إيجابية أو سلبيّة، موالية أو رافضة) للوضعيّات الاجتماعيّة والسّياسيّة الّتي يعيش [إيديولوجيُّنا] في خضمّها، ثمّ، ربّما هناك أيضا أفكار مستعارة من الأدب الّذي يخوض في مثل هذا الموضوع، ونهاية، ليس من المستحيل أن نجد أهواء شخصيّة في كلّ ذلك. لقد عمل وعبّر إيديولوجيُّنا كما ينبغي، أمّا الحقيقة التّاريخيّة الّتي ألقى بها من الباب فقد عادت إليه من النّافذة، وبينما يتهيّأ له بأنّه بصدد ترسيخ أخلاق ونظريّة قانونيّة [صالحة] لكلّ الأزمان إلاّ أنّه في الحقيقة لا يتوصّل فعليًّا إلاّ إلى تشكيل صورة مشوّهة، هذا لأنّها [صورة] منتزَعةٌ من أرض حقيقته، صورة مقلوبة كما لو أنّها تلوح من خلال مرآة مقعّرة، مرآة من نزعات ثوريّة أو محافظة في عصره.

ف. إنجلز، السيّد دوهرنغ يقلب العلم، ص 193ـ 140

الملاحظة- 11:

«العمل الإيديولوجيّ هو عبارة عن عمليّة يقودها دون شكّ هذا الّذي نسمّيه «مفكّرا»، بوعي لكنّه وعي مغلوط. وتبقى القوى الحقيقيّة الدّافعة الّتي تحرّكه مجهولة بالنّسبة إليه... هكذا، يتوهّم قوى مغلوطة أو ظاهرة. وبما أنّها عمليّة تكهنيّة فإنّه يستنبط محتوى وشكل هذه العمليّة من التّكهّن الصّرف، النّابع من شخصه أو من سابقيه. إنّه يعمل بشكل حصريّ بأدوات تكهنيّة يتلقّاه بصفة بعيدة على أن تكون نقديّة، كأي إنتاج كهنوتيّ. يبدو له كلّ هذا متماسكا، بما أنّ كلّ نشاط بالنّسبة إليه يأتي عبر التكهّن، فيبدو في آخر تحليل معتمدا نفس هذا التّكهّن».

ف. إنجلز، رسائل إلى فرانز ميرينغ[216]، 14 جويلية 1893

الملاحظة- 12:

... كونٌ للحقيقة وكونٌ للعدل.

«تُعرَّف العقلانيّة، حسب التّعاليم السّقراطيّة على أنّها فلسفة الحُكْم. [أمّا] الّذكاء فهو ما يعطي للفعل البشريّ سمته الخاصّة، ويُعْرَفُ الذّكاء من خلال التّفكير في تنوّع وتضامن الوظائف الاجتماعيّة، بنفس الشّاكلة الّتي عليها يتصرّف الابنُ تجاه أمّه، أو المواطن تُجاه القاضي، باتّباع الوعيّ الّذي اكتسبوه من الرّابط الحقيقيّة داخل العائلة أو في صلب الدّولة. إذن للفهم نفس المعنى عند سقراط كما عند السيّد أينشتاين... يكفّ العالِمُ على تجريد إنسانيّته، ومكانه الّذي يشغله في الفضاء، والحركة الّتي تسكنه، فهو

(216) . فرانز ميرينغ (1846. 1919)، سياسي ثوري شيوعي ألماني. كان عضوا في البرلمان الرّوسي ثم عضوا في الحزب الشّيوعي الألماني وقد أسس حلف سبارتاكوس رفقة الفيلسوفة والسياسية روزا لوكسمبورغ.

يعي بمركز مرجعيّ خاصّ ومتحرّك يحمله معه، ليس بالأمل المستحيل بأن يتخلّص منه لكن من أجل تحييد امتيازه المخيّب بمساعدة عمليّة من التّنسيق الفكريّ الذي يتمثّل في الانتباه لكلّ المركز المرجعيّة الأخرة في نفس الوقت: يتعلّم بنفسه إدراك وجهة نظر الآخر كما يدرك الآخر وجهة نظره... هذه الوظيفة المعقّدة والدّقيقة الّتي يضعها العلم الآينشتانيّ في قلب الذّكاء الإنسانيّ هي تماما تلك الّتي وجدناها محقّقة في محاورات سقراط. لم يتوخّ العالم الأخلاقيّ على مدى فترات المحاورة منظومة مسبقة للتّفكير الإنسانيّ والّتي عادة ما تكون مسلّطة من خارج الفرد، تتوالد أفكار العائلة والمدينة على مرأى من أعيننا بشكل من الأشكال ناتجة عن جهد الذّكاء الّذي بواسطته يتمكّن الكائن من أن يتخلّى عن نظرته الأنانيّة وليدة الدّافع الغريزيّ، فيدرك بنفسه بأنّه مرتبط بوالدية أو بمواطنيه عبر منظومة علاقات متبادَلة هي الأخرى وليست قابلة للاستبدال. لا يمكن تعريف منظومة مماثلة بشكل عقلانيّ باعتماد الفكر دون أن تكتشف معيار العدالة الّذي يمثّل الدّعامة الأساسيّة لها، هذا دون أن تجعل من هذا المعيار مركزا للإرادة... إنّ الفرد السّقراطيّ لهو وعي، ما يعني أنّ الحركة الإرادية تعقبُ الفكر العقلانيّ... ومن خلال هذه الاستحالة المتعلّقة بالفجوة الفاصلة بين نور الّذكاء وحزم الإرادة، نؤكّد على أنّنا لسنا مجرّد أعضاء سلبيّين ولا رعايا في مدينة كيكروبس[217] أو زوس، بل كائناتٌ حرّة نرتبط بالكرامة التّشريعيّة في جمهوريّة روحيّة».

ل. برنشفيك، تطوّر الوعي ص 720ـ 722

يوجد في الفلسفة المعاصرة هذه الفكرة القائلة إنّ الحقيقيّ هو من

(217). كيكروبس: أوّل الملوك الأسطوريّين لإقليم أتيكا اليونانيّة وهو مؤسّس الشّكل السياسي للمنطقة.

العوامل الرّئيسيّة للاتّحاد والتّضامن. يوفّر حوار العلماء نموذجا لعلاقات إنسانيّة يفرضها مجتمع متمثّل للقيم الأخلاقيّة والسّلم الاجتماعيّة. من هنا [ينحدر] هذا التّأكيد على أهمّية تخاطب العقول وعلى استيعابها لبعضها البعض عند فيلسوف للعلوم مثل السيّد لالاند. إنّهم لا يرون مطلقا بأنّ الكون العلميّ لم يعد يستلزم الصّراعات الإنسانيّة وأنّه كون غير قابل للتّمثّل طالما يتعلّق بالعمل. فقد أعلن السّيّد بارودي على غرار السيّد برنشفيك: «يتواصل البشر بالعقل وفي العقل وحده يمكن أن يتأسّس الوفاق ما بين النّفوس» (كتاب «**ضوء من أجل الحقيقة**»، فيفري ــ مارس 1919)، يبدو هؤلاء الفلاسفة وكأنّهم يعتقدون بأنّ النّاس يعيشون حياة تأمّل وتقاعد مثلهم تماما. لكنّ هؤلاء النّاس ليسوا أجهزة تسجيل. فصراعاتهم حقيقة ملموسة ولهم أن يستثمروا في كلّ سبل الكسب إلاّ في حقائق العقل.

ينضمّ الفلاسفة الّذين يستندون على حركة العلوم إلى الفلاسفة المستندين على علم الاجتماع. فيعبّر واحد مثل دوركهايم بوسائله المُختلفة عن نفس الرّغبة المسالمة في الانسجام. فكتاب «تقسيم العمل» هو كتاب يهدف إلى ضمان السّلام. إنّه يعبّر عن تأسّفه لما وصلت إليه لحالة الاجتماعيّة «حيث تخيّم حالة الحرب بكلّ ثقلها» (المقدّمة، الفقرة السّابعة)، «وتتكرّر الصّراعات دون انقطاع» واضطرابات من كلّ صنف هناك حيثُ «يقدّم لنا العالَمُ الاقتصاديّ أسوأ عمل فرجويّ» وإنّه يعرّف أيضا هدف المجتمع المتمثّل «في تفادي أو على الأقلّ في التّخفيف من وطأة الحرب ما بين البشر». تجعل سوسيولوجيا دوركهايم من المجتمع، مهما كان وأيّ مجتمع كان، وسيلةً للتّواصل قادرة على الإصلاح ما بين النّاس

وعلى تجاهلهم لحقيقة صراعاتهم. صحيح أنّه من الشّائع التّحدّث عن المجتمع بأسلوب تحقيريّ، إذ لا نرى فيه سوى الرّقيب البرجوازيّ رفقة المسلّح الّذي يحميها، وهذا بمثابة مجانبة للحقيقة الأخلاقيّة الأكثر ثراء وتعقيدا والمتاح لنا تأمّلها عمليًّا دون الانتباه إلى حقيقتها (كتاب: السّوسيولوجيا والفلسفة، ص 109). رياضيّات أو تمثيلات اجتماعيّة، ينتهي كلّ شيء إلى الانسجام. تسعى الفلسفة البرجوازيّة إلى إخفاء حالة الحرب الّتي لن تتجرّأ على إزاحة الغطاء السّماويّ على دولة السّلام الخياليّ الّتي تفشل في كلّ مرّة في تأسيسها على سطح الأرض.

الملاحظة- 13:

... قوّة الحقيقة الّتي كانت بداخله.

في نقاش حول وظائف العقل في المجتمع الفلسفيّ الفرنسيّ، نرى التّعارض من بين الموقف المثاليّ للبرجوازيّ الّذي يؤمن بالأفكار وموقف المفكّر الّذي قامَ جزئيًّا على الفلسفة الماركسيّة: في خصوص التّردّي الأبويّ، يقول السّيّد برنشفيك:

«عندما تخفق ظروف هذا الإنقاذ، فإنّ الوظيفة الاجتماعيّة للأبوّة تكفّ عن لعب دورها وعلى الحقّ الأبويّ أن يختفيَ منطقيًّا».

وهو ما يجيب عليه سيرويل[218] بقوله:

«لم يدخل إخفاق السّلطة الأبويّة الحيّز القانونيّ على إثر منطق قائم على مبدأ العدالة بل على إثر اضطرابات كبيرة خاضتها جحافل اجتماعيّة

(218) . جورج سيرويل يوجين (1847. 1922)، فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، وهو المنظّر لما سُمّي «السينديكاليّة الثّوريّة» أو ما قد يسمّى اليوم «العنف الثّوري»، معروف بكتابه المثير للجدل «تأمّلات في العنف».

شديدة التّحمّس».

نشرة الجمعيّة الفرنسيّة للفلسفة، سنة 1910

الملاحظة- 14:

....يشعرُ كلّ برجوازيّ بأنّه مُنتخب.

تتمثّل الجملة الأولى من المعاهدة الأخلاقيّة **لمالبرانش**[219] في الآتي: «إنّ الفكر الإنسانيّ هو فعل أو حكمة الله نفسه...» وهنا لا يسعني إلاّ أن أتساءل: لِمَ إذن كلّ هذا التّهجّم ضدّ استخدام العقل؟ كما لو أنّه من بعض الحِيَل الماكرة الّتي استنبطها إنسان ما على أهوائه ولمصلحته الخاصّة أو كأنّه لم يكن هو الآخر حقّا إلهيًّا أو كما لو كان بإمكاننا أن نضع في مقابل هذه الكلمة كون من البديهيّ انتزاع هذا العقل من اللاّدينيّين أنفسهم: «العدميّة إنسانيّة، والعقل إلهيّ».

تُهيّئ سمة العقل هذه الشّبه دينيّة لتقهقر مُمكن ودائم للفكر البرجوازيّ باتّجاه المآوي الآمنة صلب الإيمان الدّينيّ، هذا الفكر لا ينفي وجود الما وراء. لذلك فإنّ المفكّر البرجوازيّ يحتفظ كما كان دائما بالحقوق الممكنة لإله سوف يضمن [سلطة] العقل. يوجد في الفلسفة الفرنسيّة اعتراف ضمنيّ بالمآل الأخير: لقد مهّد السيّد بوتروكس والسيّد برغسون الطّريق للدّين. [إليكم] السيّد بويسّون، أب الفكر المدرسي:

«هنالك على الأقلّ نقطة واحدة في حضن الطّبيعة الشّاسع من حيثُ تنبثق قوّة ما، على حقّ كانت على غير حق، قوّة ترى بأنّها حرّة، فتتمرّد على

(219) . مالبرانش (1638. 1715)، كاهن وفيلسوف أخلاقي فرنسي، عرف خصوصا بسعيه إلى تجميع فكر القدّيس أغسطينوس وديكارت.

الضّرورة وتطمح إلى غايات عُليا. إنّها «الأنا البشريّة». يلمّح السيّد بويسّون إلى مخرج دينيّ محتمل وذلك بعقده لتمايز ما بين روح وجسد الدّيانات، روح الدّيانة:

«إنّه ذاك السّموّ العفويّ للرّوح الّذي يجمع بين كلّ شيء، الذّكاء، الخيال، القلب، الإرادة. فروح الدّيانة هي ما تحمل في داخلها كلّ أبديّ وغير قابل للتّدمير... إنّ وظيفة الدّين هي منع الرّوح البشريّة وكلّ قدراتها من أن تتوقّف، أن تتجمّد، أن تتحجّر...».

وإنّ السّرّ الّذي يربض وراء تماسك هذه النّفحة الدّينيّة يكمن في الإصلاح المدرسي للجمهوريّة:

«ماذا تعني المدرسة العلمانيّة؟ نفوس طيّبة...وقد سمحت لنفسها بعدم رؤية ما في ثورتنا التّعليميّة عدا كونها ردّة فعل تجاه الكاثوليكيّة للبعض أو انتصار للوضعيّة بالنّسبة إلى البعض الآخر»، هذه المدرسة هي ما تبثّ في الأذهان سيادة العقل والوعي. «إنّ الإنسان في المدرسة العلمانيّة هو «ف. بيكوت» نفسه، منسّق مدرسة فونتوني والّذي كان قد كتب بأنّ على المدرسة أن تحثّ المعلّمات الشّابّات بأن يعتبرن أنفسهنّ مرتبطات بعمل إلهيّ حيث يرتبط بهنّ الفعل داخل معنى الله نفسه، وذلك بالعمل على تحويل المزاج المُتقلّب والفطرة الفظّة إلى عناصر مساعدة على التّعلّم، فالمرأة الواعية والمفكّرة القادرة على الحقيقة والعدل قدرة ليست أقلّ من مقدرتها على الحبّ». لقد كانت استنتاجات بويسّون واضحة وضوح الشّمس: فمن ناحية:

«يُعَدّ أيّ ادّعاء للاستغناء عن سلطة العقل أو سلطة الوعي لفائدة سلطة تصطنع علويّتها على قوانين الطّبيعة البشريّة لتمنعنا من الانصراف

إلى وجهتنا كلّ الانصراف».

هذه كبرياء. وإليكم الملاذ:

إنّ أسوأ إلحاد، هو الإلحاد الأخلاقيّ: ليس الأخطر ذاك الّذي ينكر وجود الله بدوغمائيّة بل ذاك الّذي ينكر عمليًّا الجوهر والمعرفة والفضيلة المثاليّة ومثاليّة العدل، وفي ملاحظة منقولة عن «غابريال سيّاي»[220] فحواها أنّ السيّد بويسّون يتحدّث عن حياد إلهيّ، فالله مثل العقل في عمق الرّوح البرجوازيّة.

بالإضافة إلى ذلك، فإنّ مفكّري اليوم مشدودون إلى ديانة إيجابيّة وهم متأكّدون من أيّ فلسفة يجعلونها رسميّة: يقول السيّد غابريال مارسيل عن السيّد برنشفيك الآتي:

«الكبرياء أوّلا وقبل كلّ شيء، ولا أتردّد في إعلان ذلك. سيعارضونني ويسوقون لي ملاحظة مفادها ألاّ طابع شخصيًّا في هذه الكبرياء بما أنّ الرّوح الّتي يتحدّث من خلالها السيّد برنشفيك لا تنتمي لأحد. سأجيبُ بداية بأنّها هي، أو هي تريد أن تكون روح كلّ العالم. نحن نعلم منذ أفلاطون بأنّ الدّيمقراطيّة من أين تنبع تلك المثاليّة ليست سوى تمويه يخفي مداهنة. وهذا ليس كلّ شيء: في الواقع يتمثّل كلّ ما هو مثاليّ الرّوح بالضّرورة. ــ لكنّ هذه المرّة نحن نتعامل مع فرد بعينه... وإنّه لمن البديهيّ بأنّه لو وجد هذا المثاليّ نفسه وجها لوجه مع ماركس على سبيل المثال ليعلن له بالوضوح الكافي بأنّ روحه تلك هي نتاج برجوازيّ صرف وبنتٌ للرّفاه الاقتصاديّ، فسيكون عليه أن يلجأ حتما إلى أكثر المجرّدات

(220) . غابريال سيّاي (1852. 1922)، مؤرّخ فلسفي فرنسيّ ومناضل علماني واشتراكي كان أحد أعضاء الرّابطة الفرنسيّة لحقوق الإنسان.

فقرا. أمّا أنا فأعتقد بأنّ مثاليّة من هذا القبيل هي مثاليّة عالقة بين فلسفة دينيّة ملموسة من ناحية وبين ماديّة تاريخيّة من ناحية أخرى». ها إنّنا نرى بأنّ فلسفة السيّد برنشفيك وهي تتّجه صوب تتويجها الدّينيّ. فكتاب «معرفة الذّات» هو كتاب ورع. أمّا البرجوازيّة المثاليّة بمختلف الفوارق الّتي تحتوي عليها ليست بصدد العيش كما ينبغي في هذه السّاعة المتوتّرة من التّاريخ. فقد أخذ فقرها الإيجابيّ بالتّفجّر. وتبحث البرجوازيّة ذاتها عن دعائم علمانيّة أكثر أمانا وعن أغذية أكثر نفعا حتّى تغذّي عزلتها، لذلك نشهد ولادة تيّارات رجعيّة، فالفلسفة الدّينيّة تقدّم للأفراد مساعدات وآمالا. يتجلّى هذا التيّار المزدوج للفكر العامّ والفكر الخاصّ في استطلاع «آغاتون» الشّهير[221]. أتوقّع بأننا سنشهد تلك الأيّام الّتي ستعيشُ فيها فلسفة الدّولة الفرنسيّة الّتي لا يمكنها النّجاح إلاّ في كنف الهدوء، اهتزازا تحت وطأة أحداث أكثر جدّيّة. عندها سيضطرّ فلاسفة البرجوازيّة التذلّل أمام العامّة: إذا لم يكن المرور الإيديولوجيّ من فلسفة ديمقراطيّة إلى فلسفة رجعيّة ممكنًا وفوريّا فإنّه يتعيّن علينا توقّع بأنّ المرور من الفلسفة ذات الطّابع العلمانيّ إلى حكمة ضمير دينيّ يبقى جائزا: إذ لا يمكن للجسور أن تُقطع نهائيًّا. كما لم يسبق وأن حدث ذلك بفضل الفلاسفة، كان السيّد بوتروكس وهو واحد من مؤسّسي الفلسفة الجامعيّة قد تمسّك بهذا المقطع: إنّ من شأن أيّ طارئ أن يتوجّه بنا صوب الله. كما يتمسّك السيّد برغسون بذلك أيضا:

إنّ الاعتبارات المعروضة في مقالتي حول المعطيات الفوريّة تؤدّي إلى

(221) . شر الكاتب والاقتصادي والصّحفي الفرنسي «جون ألفريد دو تارد Jean Alfred de Tarde» استطلاعا حول جامعة السّربون سنة 1911 وآخر حول شبّان ذاك العصر سنة 1913 تحت اسم مستعار هو «آغاتون».

تسليط الضّوء على حقيقة الحرّية: فالمادّة والذّاكرة هما معطيان يمكن لمسهما بأصابع الرّوح وهذا ما أتمنّاه حقّا، أمّا معطيات مثل التطوّر الأبدًاعيّ فهي تتمثّل الخلق كفعل: وينبع كلّ هذا من فكرة إله خالق وحرّ ومولّد للمادّة والحياة في آن، حيث يسير جهد الخلق جنبا إلى جنب مع الحياة عبر تطوّر الأنواع وتشكّل الشّخصيّات الإنسانيّة.

كما لا يمكن قطع هذه الجسور من قِبَل المُربّين: في برنامج المدارس الابتدائيّة الرّسميّ يوجد ملحق بمرسوم دستوريّ في 18 جانفي (يناير) 1887 وهذا فحواه:

«يلقّنهم المربّي ألاّ ينطقوا اسم الله باستخفاف: اذ يرتبط ارتباطا وثيقا في أذهانهم بفكرة القضيّة الأولى والكائن المثاليّ، شعورٌ بالاحترام والوقار ويعوّد كلّ واحد منهم على نشر نفس احترام فكرة الله هذه رغم أنّها قد تتمثّل أمامه تحت أشكال مختلفة عن أشكال ديانته الخاصّة، بعد ذلك... يلتزمُ المربّي بأن يُفْهِمَ ويجعل الطّفلَ يشعر بأنّ أوّل تكريم يدين به للألوهيّة يكون عبر الانقياد لقوانين الله مثلما يوحي بها له في ضميره وعقله».

إنّ الدّين بالأساس هو واحد من أكثر الوضعيّات سهولة لانسحاب الفكر البرجوازيّ وهو أيضا الحزب الّذي لا يستطيع أن يتبنّى الفلسفة الأرضيّة الثّوريّة على الإطلاق:

«الدّين هو نظريّة العالم العامّة وخلاصته المكثّفة والموسوعيّة ومنطقه وقد اتّخذ شكلا سعيدا ونقطة شرفه الرّوحيّ وحماسته وعقوبته الأخلاقيّة ومكمّله الشّعائريّ ومنطقه العامّ للعزاء والتّبرير... فأن تطالبه بالتّخلّي عن الأوهام المتعلّقة بوضعيّتنا الخاصّة كم يطالبه بالتّخلّي عن وضعيّة تحتاجُ إلى الأوهام... للتّاريخ مهمّته إذن، بمجرّد أن تتبخّر الحياة المستقبليّة للحقيقة وهي أن

يؤسّس الحقيقة المغايرة انطلاقا من الحياة الآنيّة. أمّا المهمّة الأولى للفلسفة الّتي هي في خدمة التّاريخ فإنّها تتمثّل بمجرّد الكشف عن الصّورة المقدّسة الّتي تعبّر عن تنازل الإنسان عن نفسه في فضح هذا التّنازل بأشكاله الدّنيئة. وهكذا يتحوّل نقد السّماء إلى نقد للأرض ويتحوّل نقد الدّين إلى نقد للحقّ ويتحوّل نقد التيولوجيا إلى نقد للسّياسة».

كارل ماركس: نقد فلسفة الحقّ عند هيجل[222] (ص84ــ85)

الملاحظة- 15 :

«إنّ من أعظم القوى لدى البرجوازيّة تكمن في مقدرتها على إعطاء العلم طابعه الغامض، وذلك بإزالة كلّ صلة واضحة له مع الممارسة اليوميّة: بدلا من عرضه كم هو في الواقع دسّته في مجاميع على شكل عامّ لتكتفي فيما بعد بمحاولة استذكاره وجملة من الملاحظات الّتي تدفع عجلة العمل اليوميّ ووسائل أخرى تلقّنها التّجربة من أجل اكتساب القدرة على مجابهة الصّعوبات الّتي قد يفرزها التّطبيق، لقد بدا العلم مثل شيء في تمام انقطاعه عن الحياة، مثل سرّ محفوظ بكلّ غيرة في حرم المدارس، حيث كان الكهنة الجدد والمثقّفين البرجوازيّين من اضطلع بمهمّة إيداعه. لقد تجاوز الاحترام الخرافيّ «للعلماء» كلّ طبقات المجتمع بما في ذلك الطّبقة العاملة».

ر. لوزون[223] العُمّاليّة في الرّياضيّات العليا، مجلّة «الحياة العاملة»، 5 ديسمبر 1912

---

(222) . نقد فلسفة الحقّ عند هيجل: مخطوط كتبه كارل ماركس سنة 1843، لم يُنشَر في حياته ويعلّق فيه عن كتاب هيجل «أصول فلسفة الحقّ».

(223) . وبار لوزون (1882. 1976)، مهندس ونقابي ثوري فرنسيّ معارض لسياسة فرنسا الاستعماريّة، له العديد من المؤلّفات في الهندسة والسّياسة .

الملاحظة- 16:

... مثل السّيد بيكوت، مثل السّيد بولوت، مثل السّيد بارودي.

يقول السيّد تيبودي[224] معارضا في صلب الجمهوريّة للأستاذين «بارّاس»[225] و«لانيو»[226]: «إنّ الأساسيّ فيما يدرّسه لانيو هذا هو الآتي، ففي نفس الوقت الّذي يكون فيه لانيو وكلّ لانيو مثالًا مرخّصًا له ومثاليّ، ممثّلا لهذه النّخبة الكهنوتيّة الجامعيّة الّتي عليها أساتذتنا للفلسفة. أو بالأحرى هم أنصاف كهنة. ففي داخل الدّعوة الفرنسيّة مبدأ شبيه بالدّعوة الكهنوتيّة. كلّ من أعدّ مرحلة التّبريز في الفلسفة، حتّى وإن أصبح صارخا برلمانيًّا أو مدير بنك مشبوه هو ضحيّة في نهاية المطاف مثل أيّ متربّص للفكرة القائلة إنّ أسمى ما في الإنسان هو حياته المسخّرة لخدمة الرّوح وإنّ الجامعة تعمل من خلال امتحاناتها إلى جعل هذه الخدمة ممكنة. إذن ليس نصف الكاهن هذا شبيها بإكليروس رومانيّ بل قل براع بروتستانتي...».

ما يصنع السّلطة الّتي تلوّن بكلّ سهولة أقوال كاهن ما، هي الفكرة العليا الّتي هي من مشمولاته، هذا لأنّه يتكلّم باسم إله يؤمن به ويشعر بقربه أكثر من الجمهور الدنيويّ. لا بدّ وأنّ للسيّد العلمانيّ مثل هذا الشّعور. فهو بدوره يمثّل عضو منتم لشخص عظيم يتجاوزه: الذي هو

---

(224) . لبار تيبودي (1874. 1939)، ناقد فرنسي اشتهر فيما بين الحربين كان يكتب «للمجلة الجديدة الفرنسيّة» وهو أحد تلامذة هنري برغسون واشتغل أستاذا للفلسفة. له عدّة مؤلّفات في السياسة والفلسفة.

(225) . وريس بارّاس (1862. 1923)، كاتب وسياسي ينتمي لما يُسمّى «القوميّة الفرنسيّة»، تقوم أفكاره على «إعلاء الذّات»، له عدّة روايات معروفة منها «الأرض والأموات» و«المنبتّون» الخ...

(226) . ول لانيو (1851. 1894)، أستاذ فلسفة فرنسيّ ممّن بحثوا في الإدراك والوضعيّات المعرفيّة وهو أيضا ممّن أسّسوا ما يُسمّى «الطريقة الانعكاسيّة» في علم النّفس. له عدّة مؤلّفات منها «ملاحظات بسيطة في خصوص الوحدة والعمل»، «في وجود الله»، «دروس مهمّة» إلخ...

المجتمع. فكما أنّ الكاهن هو النّاطق باسم ربّه، فهو أيضا ناطق باسم أفكار أخلاقيّة عظمى لزمنه ووطنه. وليكن مرتبطا بهذه الأفكار وليشعر بكلّ العظمة حتّى تكتنفه السّلطة الّتي تنبعث من هذه الأفكار ويعيها تماما كما يعي كلّ ينبثق منها.

إ. دوركهايم، التّربية والسّوسيولوجيا.

«لكن وإذا ما احتلّت المدرسة الابتدائيّة مكانة بتلك الأهمّيّة في الحياة القوميّة، فإنّ ذلك يعود إلى تلك الرّوح الّتي تشغل أجساد المعلّمين... الجسد الابتدائيّ... الّذي له طباع وطموحات جسد روحانيّ، فهو يشعر بأنّه يستثمر مهمّة ما وهو مدعوّ إلى خدمة نفسه أكثر من خدمة الدّولة...».

د. هالفاي[227]، تدهور الحرّيّة.

الملاحظة- 17:

... هذا العملاق الّذي أسّس العلوم.

هو «اليارد» الّذي جعل منه دوركهايم شبيها بمفوّض دراسات. لقد مكّنه من كلّ الثّقة وقد دعاه في البداية إلى جامعة باريس ثمّ إلى اللّجنة الدّراسيّة وهو ما خوّل للسيّد دوركهايم مراقبة كلّ التّعيينات الّتي تتمّ في التّعليم العالي... بالضّرورة سنفكّر في «فيكتور كوزان» الّذي كان قد سمّى أساتذة الفلسفة «فوْجي العسكريّ» وسمّى مذهبه «علَميًّا».

آغاتون، روح السّربون المتجدّدة. ص 98، 99.

«يمتلك الزّخم الحاليّ لتعليمنا تقاربا مستمرّا بين كلّ مراحله الابتدائيّة

(227) . انيال هالفي (1872. 1962)، مؤرّخ وناقد فرنسي من أصل يهودي، له عديد المؤلّفات المهمّة منها «نهاية الأعيان»، «حياة فرديريك نيتشة» الخ...

والثّانوية والجامعيّة. وإذا ما أسعفتني النّكاتُ فإنّي سأحدّثكم عن معارك دائرة بين العميد «برينو» والوزيز «ليون بيرار» والمدير ورئيس الجامعة «لابّي» ورئيس [الجمهوريّة] «ألكسندر ميلران». هُزم بيرار وميلران. ستتمكّن عمادة السيّد برينو إذن من نشر السّوربون الابتدائيّة على نطاق واسع. أمّا مقدّمة التّعليم السّوسيولوجيّ في المدارس العليا الّتي يستخدمها المعلّمون فهي من وضع «بول لابّي»[228]، علمانيّ كما هو ومستقيم ومناضل، وخَلَفٌ ملائم لبويسّون وأشباهه ولبيكوت وأشباهه ولستيغ[229] وأشباهه أيضا، وهي مقدّمة ستحدّد خلال الزّمن الرّوحيّ الجمهوريّ تاريخا أكثر أهميّة. ولهذا فقط، وفّرت الدّولة لمدارسها ومدرّسيها ما توفّره الكنيسة في تكويناتها للملقّنين الخصماء، إنّها الثيولوجيا. لقد تخيّل «لابّي» هذا النمط من التّعليم وقد ردّ المدرّسون ردّا نقديًّا. لا، قطعا لقد ردّوا ردّا ثيولوجيا».

أ.ثيبوديت، جمهوريّة الأساتذة، ص 222، 223

هكذا هي إذن قنواتُ السّلطة الرّوحيّة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الملاحظة- 18:

... الفلسفة الجامعيّة.

«إنّنا لا نملك مذهب دولة «، قال السيّد بارودي. لكنها ليست تماما

(228) . ول لابّي (1869. 1927)، أستاذ محاضر في الجامعة الفرنسيّة، له عدّة مؤلّفات منها «الحضارات التونسيّة: المسلمون واليهود والأوروبّيون»، «المرأة في العائلة»، «منطق الإرادة» الخ...

(229). جول ستيغ (1868 . 1950)، سياسي فرنسي شغل عدّة خطط هامّة في الجمهوريّة الثّالثة الفرنسيّة.

المسألة المطروحة بكلّ دقّة: ففي بداية مشواره كان «فيري»[230] قد أعلن: «توجد نقطتان لا ينبغي لدولة المدرّسين والمشرفين الاختلاف خولهما: الأخلاق والسّياسة، لأن في الأخلاق كما في السّياسة تكون الدّولة في ملكيّتها الخاصّة، هما من اختصاصها وبالتّالي هما في مسؤوليّتها» (مجلس الشّيوخ، 5 مارس 1880). في شهر جوان من سنة 1879، كان قد قال أيضا: «(الدّولة) تعنتني بالتّربية حتّى تحافظ داخلها على أخلاق معيّنة من أخلاق الدّولة، وبعض مذاهب الدّولة الضّروريّة لمناقشاتها».كان السيّد «ل. بروجوا»[231] قد صرخ في وقتٍ لاحقٍ بقوله: «كم تبدو أكثر أهمّية مرّة أخرى هذه الوحدة فيما يخصّ المذهب في العمل التّربويّ الأخلاقيّ...».

إنّ نظريّة الدّولة هذه هي ذات النظريّة الخاصّة بالسيّد «م. روستان»، الّذي يرفض بضحالة أن يشاركه فيها أحد. (قضيّة بوير)[232].

في الواقع، لقد تمّ بعث هيئة وطنيّة خاصّة بمذهب [الدّولة] منذ سنة 1880. يقوم على تجارة السّاسة، والفلاسفة وموظّفي شارع «غرونيل». وبدفع من وزراء ومكاتب للصّبر والعناد وبِحَثٍّ من الدّولة: «ما يعني في نهاية المطاف وزيرا محاطًا ب3 أو 4 مديرين بمكاتبهم، وبعشرات المتفقدّين العامّين، وبمستشارين ولجان غير مسؤولة». (ف. بيكوت، دراسات يوما بيوم، الجزء السّابع) هذا المذهب الّذي يقوم حرفيًّا على

(230) . ول فيري (1832. 1893)، سياسي فرنسي شهير، شغل عدّة خطط في صلب الجمهوريّة الثّالثة الفرنسيّة، له عدّة إنجازات في خصوص التربية والتّعليم وهو معروف خصوصا بنصرته للحركة التوسّعيّة الفرنسيّة. تقلّد منصب عمدة باريس قبل وفاته بقليل.

(231) . ليون بورجوا (1851. 1925)، رجل دولة فرنسيّ، وعضو للبرلمان قبل أن يشغل خطة وزير للشؤون الدّاخليّة سنة 1890.

(232) . ضيّة قائد الثّورة الهايتيّة جان بيير بوير (1766. 1850)، والّتي فضحت ادّعاءات الدّولة الفرنسيّة في ذاك الوقت حول الحرّية والمساواة وغيرها من القيم الّتي كانت سبّاقة في الدّعوة إليها.

الأخلاق كان ومازال يتمّ تدريسه منهجيًّا في جميع مراحل تعليمنا المرتبط به في كلّ مفاصله.

يا للحيويّة الّتي دفعت الفلاسفة إلى خدمة السّياسة البرجوازيّة منذ بويسّون إلى ستيغ، منذ دوركهايم إلى بولوت! يا لحماسة هؤلاء الكهنة الّذين اندفعوا لخدمة مشاريع ساسة كانت لهم من الشّجاعة ما يكفي حتّى يلتجئوا إليهم: «لقد كانت جرأة نادرة... هذا النّداء الّذي تمّ توجيهه إلى الفلسفة من أجل تكوين المعلّمين في بلد حيث مازال تكوينهم غير كاف ولم يتضمّن نبعا أخلاقيًّا آخر عدا التّرانيم المسيحيّة المحفوظة ميكانيكيًّا...». (هنري ماريون[233]، حركة الأفكار البيداغوجيّة في فرنسا منذ سنة 1870، ص 16).

وقد كُللت هذه الجرأة بالنّجاح: ضاعف الفلاسفة الكتب المدرسيّة الرّاديكاليّة والدّروس في الجامعة كلّها لخدمة أخلاق الطّبقة الّتي يطلب مهم الوزراء تبريرات كافية لها. إن الاختصاص الكبير للفلسفة الفرنسيّة هو البيداغوجيا: لا غير أسماء [معدودة] في خدمة الغالبيّة اللائكيّة، ماريون، **إسبيناس**[234] **دورياك**[235] **إيغجار**[236] ثامين، دوركهايم ، فوكوني. لا غير الكتب المدرسيّة. يا للحركة الدّؤوبة في المكاتب المدرسيّة.

---

(233) . هنري فرنسوا ماريون (1846. 1896)، فيلسوف فرنسي متخصص في البيداغوجيا وعلوم التّربية.

(234) . ألفريد إسبيناس (1844. 1922)، فيلسوف وعالم اجتماع فرنسيّ متأثّر أوغيست كونط الّذي كان أوّل من ترجمه إلى الفرنسيّة. وهو من الفلاسفة الّذين أثروا في الفيلسوف الألماني فريديريك نيتشة (1844. 1900)

(235) . ليونيل دورياك (1847. 1923)، فيلسوف فرنسيّ ممّن درّسوا في جامعة السّوربون مختصّ في فلسفة الفنّ والموسيقى له مؤلّفات كثيرة منها: العقيدة والحقيقة، مقدّمة إلى علم نفس الموسيقيّ، عن الأذن الموسيقيّة، بسيكولوجيا الأوبيرا الفرنسيّة الخ..

(236) . فيكتور إيغجار (1848. 1909)، فيلسوف صلب المدارس الدينيّة مختصّ في البسيكولوجيا والابيستيمولوجيا (فلسفة العلم)، وهو من الّذين درّسوا الرّوائي الفرنسي المعروف «مارسيل بروست» له عديد المؤلّفات منها: ولادة العادات والتّقاليد، أقوال باطنيّة، ذات المحتضرين الخ..

وكانت مهمّتهم واضحة تماما: الأمر يتعلّق بتعليم الطّفل «أن يحبّ هذا المجتمع الحديث الّذي تأسّس سنة 1789، وهذه المبادئ الّتي تعود إلى سنة 1789... الّتي تشكّل أخلاقنا المدنيّة والرّوح الخاصّة بوطننا ذاته» (ج. فيري، 10 جوان 1881)، هناك بعض النّصوص الّتي تكشف بوضح موضوع هذه المجهودات الأخلاقيّة الحثيثة:

«كان المقرّر (بول بيرت)[237] قد قدّم التعليم المدنيّ على أنّه يحتوي على جزأين: الأوّل ــ التّعليم في ناحية ما سيكون بمثابة عرض بسيط أمام الطّفل للظّروف الّتي تعمل فيها الدّولة... والجزء الثّاني، أنّنا سندرّس الطفل وهو الثالثة عشر من العمر، أشياء أعمق. [هي فكرة] لن تحوز على موافقة الجميع. لكن ينبغي أن نعلّم الطّفل أن يحبّ حالة الأشياء كما هي».

أ.إسرائيل[238]، مدرسة الجمهوريّة
ص 143ـ144

«التّعليم هو الإجراء الّذي تمارسه الأجيال الرّاشدة على أجيال أخرى مازالت لم تنضج بعد من أجل الحياة الاجتماعيّة. له من الأهداف بأن يثير ويطوّر عند الطّفل بعضا من حالاته الفيزيائيّة والمعرفيّة والأخلاقيّة الّتي يتطلّبه منه المجتمع السّياسيّ في مجمله وفي الوسط الخاصّ الّذي هو مخطّط له».

إ. دوركهايم، التربية والسّوسيولوجيا ص 49

---

(237) . بول بيرت (1883. 1886)، طبيب وفيزيائي وسياسي فرنسيّ. كان عضوا راديكاليّا في مجلس الشّعب وهو من مؤسّسي المدرسة العلمانيّة الفرنسيّة وقد شارك في وضع ما يُسمّى «قانون جول فيري» ليصبح فيما بعد وزيرا للتّعليم الوطني الفرنسي، وقد ألّف عدة كتب مدرسيّة تمّ تصنيفها فيما بعد على أنّها كتب تكرّس العنصريّة.

(238) . لكسندر إسرائيل (1868. 1937)، سياسي فرنسي من أصل جزائريّ له شغل عدّة خطط صلب الدّولة الفرنسيّة: نائبا راديكاليّا، سيناتور وسكرتير دولة في حكومة إدوارد هاريوت الخ

«ليس الانسان الّذي على التّعليم أن يحقّقه لدينا هو ذاك الإنسان كما صنعته الطّبيعة وإنّما ذاك الّذي يريده المجتمع أن يكون».

المصدر السّابق، ص 116

«إذا... كان للتّعليم قبل كلّ شيء مهمّة جمعيّة، إذا كان من أهدافه أن يجعل الطّفل يتكيّف مع الوسط الاجتماعيّ الّذي هو موجّه للعيش فيه، فإنّه من المستحيل على ألاّ يهتمّ المجتمع من عمليّة بهذه الأهمّيّة... لذلك فقط عليه (المجتمع) أن يذكّر المعلّم باستمرار بالأفكار والمشاعر الّتي ينبغي طبعها على الطّفل حتّى يصبح في وئام مع الوسط الّذي عليه أن يعيش داخله. إذا لم يكن [التّعليم] دائم الخضور... فإنّ الرّوح العُظمى للوطن ستنقسم وستنحلّ إلى عدد لا نهائيّ ومتعارض من الأرواح الصّغيرة الّتي ستكون في تعارض مستمرّ فيما بينها... وإنّ حالة الانقسام الّتي عليها حالتنا اليوم في بلدنا ما يجعل من واجب الدّولة هذا حسّاسا بصفة استثنائيّة وأكثر من كونه مهمّا... على الرّغم من كلّ المعرضات، هناك حاليًّا في أساس حضارتنا، جملة من المبادئ المشتركة بين الجميع بشكل ضمنيّ أو صريح، في كلّ الأحوال قليلون هم الّذين يتجرّؤون على إنكار هذا مباشرة: احترام العقل والعلم والأفكار والمشاعر الّتي هي أساس الأخلاق الدّيمقراطيّة. إنّ دور الدّولة يكمن في تحرير هذه المبادئ الأساسيّة وأن تدرّسها في مدارسها وأن تسمح بتركها مجهولة من طرف الأطفال وأن تكون في كلّ مكان مُتحدّثا عنها بكلّ الاحترام الممكن».

ف. بويسّون، قاموس البيداغوجيا، 1911

«يسعى(التّعليم الفرنسيّ) إلى تكون أناس متطابقين مع النّوع المثاليّ للإنسان الّذي تفترضه هذه الحضارة (الفرنسيّة) من أجل صنع بشرا

صالحين لفرنسا وأيضا للإنسانيّة مثلما تعرضها فرنسا في علاقتها بالآخرين...».

أ.فوكوني، في التّربية وسوسيولوجيا دوركهايم

يمكن لنا مضاعفة هذه التّعريفات المتعلّقة بالتّوافق الأخلاقيّ المفروض من طرف الدّولة والّذي كانت قد صاغته الفلسفة. فقد أسعفته بالصّيغ المقتضبة المطلوبة، وأعطته أيضا كلّ التبريرات الممكنة، وضمنته بما لا أعرف من منطق الذي يجمع الأهداف الّتي يطمح إليها. وقد كانت إشكاليّة التّبريرات هذه الأكثر حساسيّة وليس في وسع أيّ فيلسوف أو سياسيّ أن يعترف بذلك. يا لحرج أن تجد نفسك فجأة بعيدا عن العقوبات الإلهيّة. ينبغي أن يكون التّطابق مبرّرا كفاية حتّى تكون مقبولا من طرف الّذين يستهدفهم هذا التّطابق. كانت هناك تجارب عديدة: استخدمنا لذلك كانط ورونوفي، استخدمنا الرّوحانيّات والوضعيّة والعلم، غير أنّ هذه المصادر لا تكفي لضمان الاحترام. وقد كان القانون الأخلاقيّ والواجب والأفكار على وشك الإفلات من كلّ اهتمام وتعاطف شعبيّ. حوالي سنة 1890، سطعت هذه الصّعوبات بكلّ وضوح: «إنّ الغريزة المشبوهة والمستفزّة للطبقة الّتي يقلّ تنويرها لا تخدعها (الفلسفة) بأن تجعلها ترى بأنّ على أفكار العدل والعقل ومن أجل الحصول على مبدأ فعليّ أن تلائم نفس قوانين الواقع... (القانون منشور)، واقع الضّروريّات العميقة النّابعة من طبيعة ... الأشياء، ضروريّات للشّعوب أن تخترقها بشكل أعمق لو كانوا أكثر عقلانيّة وأكثر حرّية. هذه قاعدة صلبة قد نعطيها للقانون ولن تعترض كلّ نظريّة أيّ شكوك...».

(مابيلو[239]، التعليم المتدّن، ص 13 ـ 14).

يقترح السيّد مابيلو البرنامج الّذي سيتمّ ملؤه من طرف دوركهايم . لم تكن الوضعيّة البرجوازيّة بين سنتي 1893 و1894 تبدو آمنة: لقد كانت فرنسا برمّتها قلقة وكنّا نرى أكثر من رمز في دوركهايم . كانت القنابل تزعج المارّة والوزراء. ولذلك كانت أقول السيّد بورجوا بمثابة نواقيس خطر. لقد كان الجميع ينادون بتعزيز الأخلاق البرجوازيّة فيقولون:

«في هذه السّاعة حيث نسمع المجرمين والمجانين والمزبدين وهم يبشّرون بالثّورة ضدّ المجتمع وهم يعارضون دعاية السّلام والأخوّة بالدّعوة البغيضة إلى الكره، لا يجب علينا فقط ضرب الجرائم المرتكبة بصرامة قاسية، لكن ينبغي أيضا أن نعرف كيف نمنع عودتها من جديد. ولهذا هناك عمليّتان ضروريّتان، العمل التّشريعيّ الّذي يعود بالنّظر إلى الدّولة والعمل التّربويّ الّذي يقع على كاهل المواطنين الصّالحين. ينبغي على الدّولة أن تشرع وتحقّق الإصلاحات بلا كلل... ومع هذا وجب التّحذير وتقديم النّصح، هذا لأنّ العدالة تقتضي ديمقراطيّة عظمى مثل الّتي نملكها».

(مداخلة بمناسبة المؤتمر الثّالث لرابطة التّعليم، سنة 1894)

كان الأولى إصلاح التّبريرات الأخلاقيّة. فقد راجعها دوركهايم ووضع بين يدي البرجوازيّة كالأسلحة الرّوحيّة الّتي كانت تفرضها. وبعد بعض المقاومة البسيطة، هيمنت فلسفة دوركهايم .

«والسيّد بوغلي، تلميذ السيّد دوركهايم الّذي شرح لنا بأنّ «السّياسة لم تكن غريبة على هذا «التحوّل المفاجئ». كما قال أيضا إنّ «متعاوني السّنة

(239) . ليوبولد ماليبو (1853. 1941)، أستاذ جامعي فرنسي ورئيس الاتّحاد الوطني للتّعاون الفرنسي.

السّوسيولوجيّة قد فهموا بشكل أفضل وهم أمام الخصم» المشترك، فنشدوا نفس المنحى المثاليّ».

(استطلاع أغاتون، ص 107).

كانت هناك مؤسّسات أخلاقيّة منهوكة تعود إلى العصر العظيم، عصر بويسّون وستيغ وبيكوت. ثمّ جاءت مؤسّسات أخرى يافعة أكثر في مملكة السّوسيولوجيا. تمّ تكريس هذه المؤسّسات من طرف السيّد لابّي الّذي فرضها في المدارس العليا. في كتاب «انحلال الحرّيّة» للسيّد دانيال هاليفي، وهو يحلّل قدرة هيئتنا الجامعيّة، ركّز على دور السّيّد لابّي، بوصفه من قدّم لهذه السّوسيولوجيا: «مادّة مبهمة لا نعرف منها سوى أمر واحد بدقّة وهي كونها فلسفة الرّاديكاليّة والاشتراكيّة الرّسميّة». (ص 101)

وهكذا ينجز الفلاسفة ما هو موكول للبرلمان. يُنزلون منذ منابرهم إلى الجامعات والمعاهد والمدارس الابتدائيّة كلَّ المتطابقات المدنيّة والأخلاقيّة وتلك الكومة من المراوغات ومن الكسل والخنوع وقد قامت ضدّها فلسفة ما. فقد صرخ فيهم «بيغاي»[240]: «متى يكفّ فرنسيّونا إذن عن تسوّل الدّولة ولا يقبلون منها إلاّ بحكومة للقيم الواقعيّة؟ متي تفهم دولتنا الّتي في كلفتها العديد من المهن منذ صنع أعواد الثّقاب إلى صنع القوانين... متى تفهمُ بأنّ ليس من اختصاصها أن تصنع من أجلنا الميتافيزيقا... لقد فصلنا كنائسنا عن المؤسّسات. متى نفعل نفس الشّيء مع الميتافيزيقا؟ لم يعد هناك مجال لتواصل التّلقين الكهنوتيّ للدّولة... هل

(240) . ارل بيغاي (1873. 1914)، كاتب وشاعر وكاتب مقالات فرنسيّ، كان أيضا ضابطا في الجيش الفرنسي، له أعمال متنوّعة ويُعتبر أوّل من كتب القصيدة الحرّة، كتب تحت أسماء مستعارة ك «بيير دولوار وبيير بدوين» من مؤلّفاته «شيء من العقل»، «وضعيّات/»، «شبابنا»، «ملاحظات حول برغسون وفلسفته»، «محاورة بين التّاريخ والرّوح الكافرة» الخ...

سيكون من الضّروريّ أن يكون لنا «بوليغني»[241] في هذا العالم الّذي بلا إله حيث علينا أن نعقد اتّفاقا جيّدا... هل سيكون من الضّروريّ أن يصبح هذا العالم الّذي بلا إله وبعودة لا متوقّعة ربّما نوعا من الكهنوت الحكومي الجديد لكنّ ملقّنا من طرف شرطة مسلّحة بإشراف وتعاون من لدنّ السّادة حفظة السّلام».

شارل بيغاي، عن مواقف متّخذة من طرف حزب المثقّفين، الج 3 ص 166

في ناحية أخرى من الأفق، وبدوافع أخرى مختلفة تتعالى أصوات ساخطة، أصوات ثوريّة توجّه نفس الاتّهامات بشكل مسموع.

الملاحظة- 19:

... أشكّ في أنّه مازال متّسع من الوقت.

«أنا أدفع الضّرائب ولكنّي لا أكتفي بدفع الضّرائب بل أنا رجل يريد أن يكون محميًّا من طرف رقباء المدينة، رجل مضطرّ على قبول تحمّل ــ إذا ما أردتم القول ــ تواجد البوليس السرّيّ من أجل أمنه الخاصّ، البوليس الّذي هو ربّما ليس شيئا مثاليًّا. أقبل بذلك رغم كلّ شيء وعليه فإنّي أدخل نفسي كلّ يوم فيما يشبه النّفاق الّذي قد تعيبونه على رجل مثلي. لكنّي أُقدم على ذلك من أجل سلسلة من القشور الخارجيّة. فلديّ قشرة بورجوازيّ ودافع ضرائب وأستاذ وكلّ ما تريدون لكن يبقى شيء آخر. يبقى أنا ذاتي، وأنا أبذل طاقتي حتّى أتجرّد من هذه القشور، وسيكون من المحتمل أن نتهي ما انتهى الى استخلاصه السّيّد بيرل حول القشرة الّتي تصبح

(241) . قرية صغيرة في الشّمال الفرنسي، وهو رمز دينيّ قويّ لأنّها تمثّل مهد القدّيسة «جان دارك» المعروفة.

داخليّة».

ل. برنشفيك نشريّة الاتّحاد من أجل الحقيقة، 1929، عدد 3.

هكذا هو مشهد عبوديّة الفلاسفة. لن يغيّر كلّ التّحرّر الدّاخلي شيئا من هذه الوضعيّة. يعتقد الفيلسوف بأنّه حرّ ويفكّر أن يكون إنسانا في حماية كلّ تلك الدّفاعات. إنّه يظنّ بأنّ الكائن الّذي يفكّر داخله والّذي سينقذ البشر لا يمكن له أن يختلط مع الكائن الّذي يحبّ حفظة السّلم؟ لكن، هل نقبل بهذه الازدواجيّة الّتي يعلنها!

إنّ هذه السّلطات الّتي يعتمد عليها، ورقباء المدينة هؤلاء والشّرطة السّرّية للفلسفة ولدافعي الضّرائب، لفيلسوف البرجوازيّة وللفيلسوف الأستاذ، من أجل كلّ هذه السّلطات يعمدون إلى جرح البشر. فاليد اليمنى ممدودة بكلّ كرم للإنسان وتُنسى اليد اليُسرى الّتي تتمسّك بذراع الشّرطيّ. لن تصمد كلّ وعود الإنسان المغلّفة ولو لحظة أمام واقع الأغلفة البوليسيّة. سيتمّ كنس هذه المثاليّة.

الملاحظة- 20:

...من الطّبقة الّتي تستعبدهم إلى المصالح الّتي تسحقهم.

سيكون من الضّروريّ دراسة لأسباب الّتي تجعلنا نعتبر الفلسفة الثّوريّة الماركسيّة ــ اللينينيّة جديدة في فرنسا. هناك بعض الاحتمالات بأن تكون هذه الأسباب هي نفسها الّتي تحول دون تواجد أدب بلوريتاريّ ولماذا لم تُطرح الإشكاليّة إلاّ الآن؟ هناك تحليل قد طُرح حول الأدب في مؤتمر كاركوف نوفمبر 1930. من الواضح أنّه يمكن للفيلسوف الثّوريّ

أن يخرج مباشرة من البروليتاريا. وكان من بينهم «**دياتزجن**»[242] لكن، ولمدّة من الزّمن ليس أقلّ وضوحا من كون الفلسفة الثّوريّة ستجلب إلى صفّها العديد من ممثّليها من صفوف البرجوازيّة. في الجهة المقابلة لنموذج دياتزجن، هناك نموذج ماركس وهناك أيضا نموذج لينين. إنّ استحواذ البرجوازيّة على الوسائل المادّيّة والمؤسّسات حيث تشيع تقنية الثقافة وهو ما يجعل هذا الوضع محتوما. لقد منح ماركس بنفسه الميثاق لفلاسفة البروليتاريا هؤلاء. ومن طرف لينين نفسه. فمنذ البيان الشّيوع، كان ماركس وهو يحلّل الظّروف الملائمة لتكوّن وعي طبقي ما قد أشار إلى إمكانيّة تحوّل البرجوازيّة إلى بلوريتاريا. «يوفّر هؤلاء البرجوازيّون الّذين لم يمكن تصنيفهم مجموعة من الوسائل التّعليميّة للبلوريتاريا. نهاية، في كلّ مرّة يقترب فيها الصّراع الطبقي من لحظة فارقة، فإنّ عمليّة تحلّل الطّبقة المهيمنة وكلّ المجتمع القديم قد يخلّف عنفا ووحشيّة على شاكلة مجموعة صغيرة من الطّبقة الحاكمة وهي تنسلخ من هذه الطبقة لتلتحق بالطّبقة الثّوريّة الّتي ينتمي إليها المستقبل. تماما مثل الزمن الغابر عندما التحق جزء من النّبلاء بالبرجوازيّة، نفس الأمر يتكرّر في أيّامنا هذه، هناك جزء من البرجوازيّة يلتحق بالبروليتاريا، وهو نفس الحال بالنّسبة إلى عدد معيّن من الإيديولوجيين البرجوازيّين الّذين ارتقوا بأنفسهم إلى حدود الذّكاء النّظريّ لكلّيّة الحركة التّاريخيّة».

(البيان الشّيوعي، الفقرة 25).

وإنّه لمن الواضح بأنّ الحدود الّتي ينبغي أن يطمح إليها الفيلسوف

(242). جوزيف دياتزجن (1828- 1888)، فيلسوف اشتراكي من أصل ألماني له عدّة مؤلّفات منها «حدود المعرفة»، «أساتذتنا في حدود المعرفة»، «الدّيانة الاشتراكيّة الديمقراطيّة» ستّ صلوات الخ...

الّذين يتبنّى أطروحة البروليتاريا هي تماما الوظيفة الّتي نفسها لدى الأحزاب الاشتراكيّة. «إنّ لهم، من النّاحية النظريّة، بالنسبة إلى جمهور البروليتاريا الأسبقيّة الّتي تتمثّل في ذكاء الظروف والتّقدّم والنّتائج العامّة للحركة البروليتاريّة» (المرجع السّابق، فقرة 34) لقد وصف ماركس بالتّدقيق حركة هؤلاء الإيديولوجيين في بسيكولوجيّته المعرفيّة (رسالة إلى روج، 1844). أمّا المهامّ المفروضة على الفلسفة الثّوريّة فقد وضّحها لينين وهو يربطها بنقد التّطوّر التّلقائي للحركة العمّاليّة: «إنّ تأكيد الاقتصاديّين على أنّ جهود الإيديولوجيين بما في ذلك الأكثر فطنة هي جهود عاجزة على تشتيت التحرّك العمّالي عن مساره الّذي يحدّده تفاعل القوى المادّية ووسائل ماديّة للإنتاج الّتي قد تعادل تنازلا عن الاشتراكيّة. فهذه الأخيرة (وعي اشتراكي) لا يمكن لها أن ترسخ إلا من الخارج... لقد ولد العلم الاشتراكيّ من نظريّات فلسفيّة وتاريخيّة واقتصاديّة والّتي تبلورت من طرف ممثّلي الطّبقات المالكة. هذا لا يعني طبعا بأنّ العمّال لم يشاركوا في تطوير هذه النّظريّات. لكنّهم شاركوا في ذلك لا كعمّال بل كمنظّرين اشتراكيّين... لم يشاركوا فيها إلاّ بعد نجاحهم وبقدر ما نجحوا في استيعاب علم عصرهم بصورة متفاوتة وبجعله يتقدّم، دون نظريّة ثوريّة لا حركة ثوريّة ممكنة... فيم يتمثّل دور الاشتراكيّة الديمقراطيّة، إن لم يكن ذلك بأن يصبح «روحا» لا تكتفي بالتّحليق في أعلى الحركة العفويّة لكنّها تبحث عن الارتقاء بهذه لحركة إلى مستوى برنامجها؟ لا يمكن دورها بالطّبع في الانجرار وراء الحركة... (ما العمل؟)، هذه المهمّة المقترحة على فلسفة الثّورة تحتّم ايديولوجيّين من شأنهم أن يجلبوا للنضال البروليتاريّ الأسلحة الفكريّة الّتي كانت البرجوازيّة قد وضعتها في عهدتهم من أجل

خدمتها، إنّها تطالبهم بتطابق تامّ على جميع الأصعدة مع الإجراءات الّتي تتبعها البروليتاريا، مع الثّورات الّتي وُلدت من وضعها الطّبقي. إنّها تطالبهم بكلّ النزاهة الثّوريّة الّتي كانت دائما في مأزق بسبب القذارة الّتي تبقى لصيقة طويلا بجلودهم بعد انتقالهم إلى حزب البروليتاريا. عليهم وفي كلّ نقاط نشاطهم وفكرهم أن يعكسوا عاداتهم الّتي تربّوا عليها وأن يقضوا في داخلهم على الكبرياء والاكتفاء اللّذين هما من علامات رجال الدّين البرجوازيّين. ينبغي عليهم أن يجلبوا كلّ الموارد التّقنية للمثقّف وأن يتخلّوا على كلّ عيوب هذا المثقّف. لا يكفي الانضمام إلى البروليتاريا بدفعة عاطفيّة قد تدمّرها مشاعر أخرى في يوم من الأيام. لا يكفي أيضا أن يتحسّسوا «ثورة العار، وأن لا يريدوا المشاركة فيها أكثر: فكلّ هذه الخطوات ليست أكثر من خطواتهم الأولى. سيكون عليهم أن يقدّموا إثباتاتهم. سوف لن يروا أنفسهم إلا بوصفهم أخصّائيّين في خدمة البروليتاريا، لكنّهم يظلّون بالضّرورة مشبوهين. عليهم أن يتجنّبوا تعهّدات فكريّة مبالغ في طموحاتها، وألاّ يعتقدوا بأنّ التّحالف مع البروليتاريا سيتفتح لهم الطّريق مشرعا على الرّومنسيّة الفلسفيّة. العمل الّذي سيكون عملهم صعب دائما ومملّ أحيانا. كان إنجلز يقول: «كلّ كلمة نخسرها على النّاس، كلّ سطر ينبغي كتابته أو قراءته ضدّ الثيولوجيا أو التجريد أو ضدّ المادّية المتعجرفة تغضبني. لابدّ وأنّه أمر آخر مختلف تماما، فبدل كلّ هذه الأوهام -هذا لأنّ الإنسان الّذي لم يتحقّق بعد، يظلّ في حدّ ذاته وهما إلى حدّ تحقّقه- أن نهتمّ بأشياء حقيقيّة وحيّة ذات تطوّرات تاريخيّة. هذا على الأقلّ وهو أفضل لمدّة أطول، لا أن نكون مختزلين إلى دور وحيد وهو مسك القلم بل أن تكون أفكارنا قادرة على

التّحقّق مباشرة عبر اليدين، إن لم يكن فباللّكمات».

(رسالة إلى ماركس، 19 نوفمبر 1844).

***

سوف يتلقّى الفلاسفة الثّوريّون من البروليتاريا أكثر ممّا سيعطونهم. لا ينظمّ فرد لحزب طبقة ما إلا لمصالح محدّدة: ففي ذهن المثقّف، يمكن لمصائر الذّكاء ذاتها أن توفّر منفعة فريدة في فعاليّتها. وإنّ وضعيّة الفلسفة البرجوازيّة ما يجعل الاكتفاء الحقيقيّ من هذه المنفعة مستحيلا. استنفاذ الثّقافة البرجوازيّة، الطّرق المسدودة حيث يعلق العلم، وانحطاط الفلسفة وأخيرا البربريّة حيث تفسد هذه الثّقافة، يجبر كلّ هذا عددا من المثقّفين على التّوجه إلى مستقبل حيث سيكون من الممكن القيام بقفزة جديدة إلى الأمام. كان رجل مثل أوغيست كونت يدرك بالفعل الموارد الّتي يمكن للبروليتاريا أن توفّرها للتّقدّم بالفلسفة. ففي كتاب «خطاب حول مجمل الفلسفة الوضعيّة» نقرأ: «لا يمكن للفلسفة الوضعيّة أن تحصل على اتّفاقيّات جماعيّة عميقة إلاّ في عمق الطّبقة الّتي، هي غريبة عن كلّ تعليمات سامّة من الكلمات أو من الأجهزة والّتي تُنشّطها طبيعيًّا حالة اجتماعيّة حيويّة، اتّفاقيّات تقوم من هنا فصاعدا على أفضل دعائم التّفكير السّليم والأخلاق. وباختصار، إنّ بروليتاريّتنا هي الوحيدة القادرة على أن تصبح الدّاعمة الحاسمة للفلاسفة الجدد. وإنّ الدّافع المحفّز يرتبط أساسا بتحالف حميميّ بين هذين العنصرين اللّذين يمثّلان أقصى التّراتب النّهائيّ. فبالرّغم من تنوّعهما الطّبيعيّ، الأكثر وضوحا ممّا هو عليه في الواقع، فهما يحتويان في العمق على كثيرًا من التّقارب المعرفيّ والأخلاقي. ستنتهي كلا الحالتين المعرفيّتين بأن تثبتا شيئا فشيئا نفس الموهبة في علاقتها

بالحقيقة، ونفس الخيارات فيما يخصّ كلّ ما هو مفيد، ونفس الميل إلى ربط أفكار المتعلّقة بالتّفاصيل إلى رؤى عامّة. سيطوّران أيضا من ناحية أو أخرى العادات السّخيّة النّابعة من سهو طبيعيّ وحكيم ومن احتقار مماثل لرفعة مؤقّتة: على الأقلّ عندم يُقدم الفلاسفة الحقيقيّون على تكوين عبر تجارة البروليتاريا الجديرة، سمتهم النّهائيّة. إنّ الكلمة النّهائيّة، والعبارة المستوحاة من المصلحة الخاصّة بالفيلسوف الّذي يرتضي بانضمامه إلى البروليتاريا سيبلغان اكتمالهما في النصّ الرّائع الّذي هو «المساهمة في نقد فلسفة الحقّ لهيجل»، والّذي كتبه ماركس: «إنّ النّظريّة لا يمكن أن تتحقّق أبدًا بين شعب إلا بقدر ما تكون تحقيقا لاحتياجات هذا الشّعب. فهل ستكون الاحتياجات النّظريّة قابلة للتّطبيق مباشرة؟ لا يكفي أن تسعى الفكرة للتّحقّق، ينبغي أن يكون هناك بالإضافة إلى ذلك الحقيقة الّتي دفعت إلى البحث في الفكرة... مثلما تعثر الفلسفة على أسلحتها المادّية في داخل البروليتاريا، فإنّ على البروليتاريا أن تعثر في الفلسفة على أسلحتها الفكريّة... فتحرّر الألمانيّ هو بمثابة تحرّر للإنسان. وتمثّل الفلسفة رأس هذا التّحرّر. أمّا البروليتاريا فهي القلب منه. لا يمكن للفلسفة أن تتحقّق دون إلغاء للبروليتاريا ولا يمكن للبروليتاريا أن تتحقق دون تحقيق للفلسفة».

مكتبة
t.me/soramnqraa

مراجع بول نيزان

1. **مآل الأفكار:**
   - ف. إنجلز: لـودفيغ فويرباخ.
2. **الفلاسفة في مواجهة التّاريخ:**
   - ل. برنشفيك: مجلّة الميتافيزيقا والأخلاق، سنة، 1911 وسنة 1925.
   - نشريّة الجمعيّة الفرنسيّة للفلسفة، سنة 1907.
3. **استقالة الفلاسفة:**
   - رسالة من ديكارت إلى جويز بلزاك، أمستردام، 5 ماي 1631.
   - المادّية والمذهب النّقدي التّجريبي، فلاديمير لينين.
   - مجلّة الميتافيزيقا والأخلاق سنة 1925.
4. **وضعيّة الفلاسفة:**
   - كانط، جوستاف هارتنسين (1808ـــ 1890).
   - رسالة (من كانط) إلى لامبرت[243]، 31 ديسمبر 1765.
   - فريديريك لوفافر[244] «ساعة مع....».

(243) . يوهان هاينغيش لامبرت (1728ـ 1777)، رياضيّاتي وفيزيائي وفلكي سويسري، له عدّة اكتشافات ونظريّات في الهندسة والرّياضيّات.

(244) . فريديريك لوفافر (1889ـ 1949)، روائيّ وكاتب مقالات نقديّة فرنسيّ وكتابه «ساعة مع...» هي عبارة على محاورات مع أسماء فلسفيّة وأدبيّة في ذاك العصر.

- خيانة رجال الدّين، جول باندا ص 73ــ 74.
- دليل الفلسفة، أ. كوفيلي الجزء الثّاني.
- الصّوفي، أفلاطون، ص 246.
- نشريّة الجمعيّة الفرنسيّة للفلسفة، سنة 1929.
- نشرة الاتّحاد من أجل الحرّيّة، فيفري ــ مارس 1919.
- إدوركهايم ، تقسيم العمل الاجتماعيّ، الج الثّالث.
- عن المسألة اليهوديّة، كارل ماركس (1844).
- العائلة المقدّسة، كارل ماركس وف. إنجلز.

5. **الوضعيّة المادّية للفلسفة:**

- خيانة رجال الدّين، ص 206.
- الفلسفة المعاصرة في فرنسا.
- استطلاع حول الشبّان اليوم (أجواء السّوربون الجديدة)، ألفراد دو تارد سنة 1911.

6. **دفاعًا عن الإنسان:**

- تقرير أمانة المكتب الدّولي للأدب الثّوري، كاركوف، نوفمبر 1930
- المساهمة في نقد فلسفة الحقّ ليهجل، كارل ماركس، الترجمة الفرنسيّة ص 96
- جاك القدريّ، رواية لدنيس ديدرو.
- نشريّة الجمعيّة الفرنسيّة للفلسفة، سنة 1910
- كارل ماركس، سجلاّت فرانكو ألمانيّة، 1844.

مازالت هذه الصّيغة تترجم نوعا من الرّومنسيّة. ستشارك الممارسة الماركسيّة في إخفائها بالسّرعة المطلوبة.

7. **ملاحظات:**

- الأطروحة السّادسة والسّابعة حول فيورباخ.
- قانون العمل.
- ف. بويسّون، الدّين والأخلاق ص 59.
- التّعليم العموميّ والحياة الوطنيّة، ص 77.
- ملاحظات حول اللاّدينيّة المعاصرة، فيفري 1931، المجلة الجديدة للشّباب، 15 فيفري 1931.
- رسالة (من برغسون)إلى الأب جوزيف دو تونكيداك، مجلّة الدّراسات، 20 فيفري 1912.
- أدب الثّورة العالميّة. موسكو، عدد خاصّ 1931.

بول نيزان

كلاب الحراسة

كان بول نيزان مُفسِدَ حفلات. كان يدعو إلى حمل السّلاح ويحثّ على الكُره، طبقةً ضدّ أخرى وضدّ عدوّ هادئ وفان. لم يعد هناك مجال للتّرافق. إمّا أن تقتُلَ أو تُقتَل. لا منطقة وسطى. لا مجال للنّوم. وكان يكرّر على مدى حياته، بوقاحته الرّشيقة، بعينيْه المنكبّتيْن على أظافره: «لا تؤمن بالأب نويل، لقد مات منذ زمن بعيد. أمّا الحرب فقد انتهت لتوّها. وهناك في كلّ المداخن الفرنسيّة أحذية وأحذية طويلة من تلك الّتي ملأها الأب نويل بمُعلّبات أمريكيّة».

لو كان نيزان بعد على قيد الحياة لكان يقتسم معنا الآن كلّ هذه الصّرامة الجديدة، هكذا نفكّر. ما الّذي أبقى على نقاوته العنيفة؟ لم تكن أكثر من رصاصة. ليس هناك مدعاة للتّفاخر بذلك الآن، فهذا القتيل على وجه الخطأ، كان دائما ما يعبث بهدوء: لقد كتب في كتبه بأنّ برجوازيّا فرنسيّا وقد تجاوز الأربعين سنة من عمره لم يعد أكثر من هيكل عظميّ.

جان بول سارتر

مكتبة
t.me/soramnqraa
WWW.PAGE-7.COM